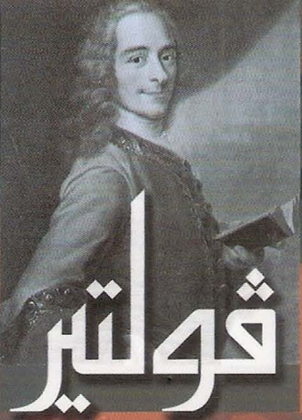


فولتير

رسالة في التسامح

ترجمة:
هنريت عبودي

العقلانيين

بترا

رسالة في التسامح

VOLTAIRE

Traité sur la tolérance

GENÈVE 1763

ڤولتير

رسالة في التسامح

ترجمة: هنرييت عبودي

❋ اسم الكتاب: رسالة في التسامح

❋ تأليف: ڤولتير

❋ ترجمة: هنريت عبودي

❋ الطبعة الأولى: 2009

❋ موافقة وزارة الإعلام رقم: 102299

❋ الناشر: دار بترا للنشر والتوزيع
www.darpetra.com
سوريا. دمشق
هاتف: 6616947
جوال: 0944507106
ص. ب 10250
darpetra@gmail.com
رابطة العقلانيين العرب
arabrationalists@yahoo.fr

❋ التوزيع: دار بترا للنشر والتوزيع

المحتويات

تنويه ٧

الفصل الأول

رواية موجزة لمصرع جان كالاس ٩

الفصل الثاني

النتائج المترتبة على إعدام جان كالاس ٢١

الفصل الثالث

فكرة الإصلاح في القرن السادس عشر ٢٣

الفصل الرابع

هل التسامح خطر؟ ولدى أي شعوب يُسمح به؟ ٢٩

الفصل الخامس

كيف يمكن تقبل التسامح ٤١

الفصل السادس

هل التعصب قانون طبيعي وقانون إنساني؟ ٤٧

الفصل السابع

هل عرف الإغريق التعصب؟ ٤٩

الفصل الثامن

ماذا لو كان الرومان متسامحين؟ ٥٣

الفصل التاسع

عن الشهداء ٦١

الفصل العاشر

عن الاضطهاد وخطر الأساطير الكاذبة ٧٧

الفصل الحادي عشر

الغلوّ في التعصب ٨٥

الفصل الثاني عشر

هل كان التعصب شرعاً إلهياً في الدين اليهودي، وهل كان معمولاً به على الدوام؟ ٩٣

الفصل الثالث عشر
تسامح اليهود اللامحدود ١١٣
الفصل الرابع عشر
هل المسيح هو من علّم التعصب؟ ١٢٣
الفصل الخامس عشر
شهادات ضد التعصب ١٣١
الفصل السادس عشر
حوار بين شخص قيد الاحتضار وآخر على أتم الصحة والعافية ١٣٥
الفصل السابع عشر
رسالة موجهة في ٦ أيار/مايو ١٧١٤
من صاحب دخْلٍ كنسي إلى الأب اليسوعي لوتلّييه ١٣٩
الفصل الثامن عشر
الحالات الوحيدة التي يكون فيها التعصب من مستلزمات القانون البشري ١٤٥
الفصل التاسع عشر
حكاية شجار بسبب مجادلة في الصين ١٤٩
الفصل العشرون
هل من فائدة من تنشئة الشعب على الخرافة؟ ١٥٣
الفصل الحادي والعشرون
الفضيلة خير من العلم ١٥٩
الفصل الثاني والعشرون
في التسامح الكوني ١٦٣
الفصل الثالث والعشرون
صلاة إلى الله ١٦٩
الفصل الرابع والعشرون
ملاحظة إضافية ١٧١
الفصل الخامس والعشرون
تتمة وخاتمة ١٧٧
مادة أضيفت لاحقاً تتضمن عرضاً لآخر حكم صدر في صالح أسرة كالاس ١٨٣

تنويه

لم تكن ترجمة هذا النص عن الفرنسية بالهيِّنة. فاللغة التي كتب بها ڤولتير هي لغة القرن الثامن عشر التي كانت تعتمد الصور أكثر مما تعتمد المفاهيم، فضلاً عن أن قواعدها لم تكن قد تعقلنت تماماً. أضف إلى ذلك أن ڤولتير يورد العديد من شواهده باللاتينية، وحتى باليونانية، بدون ترجمة إلى الفرنسية. والنص حافل بأسماء الأعلام التي إذا لم تُشرح في الهامش استعصى فهم النص على القارئ. والأمر بالمثل فيما يتعلق ببعض المفاهيم اللاهوتية وببعض المصطلحات الدينية، الخاصة بالديانتين اليهودية والمسيحية، التي اقتضت، هي الأخرى، فتح هوامش لها لتغدو مفهومة للقارئ العربي.

كل ما أتمناه، إذاً، على هذا القارئ هو أن يقرأ هذا النص، الذي هو بحق من النصوص المؤسسة لفكر التنوير والحداثة، بمثل التأني الذي تعيَّن علي أن أبذله في نقله إلى العربية.

هـ.ع

الفصل الأول

رواية موجزة لمصرع جان كالاس

إن جريمة قتل جان كالاس، التي اُقترِفت بسيف العدالة في مدينة تولوز[1] بتاريخ التاسع من آذار/مارس ١٧٦٢، هي واحدة من أبرز الوقائع القمينة باسترعاء اهتمام جيلنا وأبناء الأجيال القادمة. فلئن كانت يد النسيان تطوي بسرعة صفحة الآلاف المؤلَّفة من الضحايا الذين يقضون نحبهم في ساحات الوغى، فما ذلك فقط لأن تلك هي ضريبة الحرب المحتومة، بل أيضاً لأن أولئك الذين يلقون حتفهم بسلاح العدو كان يمكنهم بدورهم أن يُنزِلوا المصير نفسه بهذا العدو، فضلاً عن أنهم لم يسقطوا وهم عُزَّل من وسائل الدفاع عن النفس. فحيثما تتعادل كفّتا الخطر والغلبة، تنعدم أسباب التساؤل والاستغراب، وتفتر أيضاً مشاعر التعاطف والشفقة. ولكن عندما يذهب ربّ أسرة بريء ضحية الخطأ، أو الانفعال الأهوج، أو التعصب، وعندما لا يكون بين يدي المتهَم من سلاح للدفاع عن نفسه سوى فضيلته، وعندما لا يجازف المتحكمون بمصيره إلا بالوقوع في الخطأ إذا ما قرروا نحره، وعندما يباح لهم أن يقتلوا، بلا عقاب، بمجرّد إصدارهم حكماً، عندئذ ترتفع الصرخة العامة، ويعصف بكل فرد الخوف على نفسه، ويدرك الجميع أن حياتهم ما عادت مضمونة الأمان في مواجهة محكمة يُفترض فيها ألاّ تكون نُصّبت، أصلاً، إلا للسهر على حياة المواطنين؛ وعندئذ أيضاً تتضافر كل الأصوات على المطالبة بالثأر والانتقام.

إن هذه القضية الغريبة هي في آن معاً قضية دين، وانتحار، وقتل أب. وبيت القصيد فيها معرفة ما إذا كان أب وأم قد عمدا إلى خنق ابنهما إرضاء لله، وما إذا كان أخ قد خنق أخاه، أو صديق قد خنق صديقه، وما إذا كان القضاة يستأهلون اللوم

١- تولوز: العاصمة السابقة لمقاطعة اللانغدوك الواقعة في جنوب غرب فرنسا؛ وقد تأسست فيها في العام ١٢٢٩ رهبانية الآباء الدومينيكانيين وجامعة لاهوتية بهدف محاربة الهرطقة. (المترجمة)

والإدانة لأنهم أمروا بتعذيب أب بريء على الدولاب حتى الموت، أو على العكس لأنهم وفّروا حياة أم وأخ وصديق مذنبين.

كان جان كالاس، البالغ من العمر ثمانية وستين عاماً، يمارس مهنة التجارة في مدينة تولوز منذ نحو أربعين سنة ونيّف. وقد أجمع كل الذين عاشوا معه على القول إنه كان أباً صالحاً. كان بروتستانتياً، على غرار زوجته وأبنائه جميعاً، باستثناء واحد منهم جحد الهرطقة وارتّد عنها إلى الكاثوليكية؛ وبقي الأب، مع ذلك، يُجري له نفقة متواضعة. كان الرجل بعيداً كل البعد، على ما يبدو، عن ذلك التعصب الغبي الذي من شأنه أن يمّزق أواصر المجتمع كافة، فلم يعارض ارتداد ابنه عن البروتستانتية، واستقبل تحت سقف بيته، على مدى ثلاثين سنة، خادمة كاثوليكية ورعة تولت تربية أولاده جميعاً.

كان أحد أبناء جان كالاس، ويدعى مارك - أنطوان، مولعاً بالأدب. وكان يُعرف عنه أنه شاب مضطرب الذهن، ميّال إلى الاكتئاب، وحادّ الطباع. ولمّا لم يفلح في ممارسة التجارة، التي لم يكن مؤهلاً لها، ولا في الانضمام إلى سلك المحامين، لعجزه عن الحصول على شهادات تثبت كاثوليكيته، ارتأى أن يضع حداً لحياته، وأشعر أحد أصدقائه بما عقد عليه النية. وتثبيتاً لقراره طالع كل ما جاء في الكتب عن الانتحار.

واتفق ذات يوم أن خسر الشاب كل ما بين يديه من مال في القمار، فاختار ذلك اليوم عينه لينفّذ ما عقد عليه العزم. وفي أثناء ذلك كان صديق له ولأسرته يدعى لاڤيس LAVAISSE، وهو شاب في التاسعة عشرة من العمر ومعروف بطيبته ودماثة أخلاقه، وابن محام شهير في تولوز، قد قدِم من مدينة بوردو عشية ذلك اليوم[1]. وشاءت الصدفة أن يتناول طعام العشاء على مائدة أسرة كالاس؛ فأكل بصحبة الأب، والأم، ومارك - أنطوان، بِكر أبنائهما، وبيير، ثاني أبنائهما. بعد العشاء، انتقل الجميع إلى غرفة الجلوس، عدا مارك - أنطوان الذي توارى عن الأنظار. وحين استأذن الفتى لاڤيس بالانصراف رافقه بيير كالاس على الدرج، وفوجئا معاً، عندما نزلا، بمرأى مارك - أنطوان مشنوقاً على بابٍ بجوار مخزن أبيه. كان بقميصه الداخلي، وكانت

١- يوم ١٢ تشرين الأول-أكتوبر ١٧٦٢.

سترته مطوية على طاولة المتجر، وما كان قميصه ينمّ عن تعرضه لأي شدّ أو عراك، وكان شعره مسرَّحاً أتمّ التسريح، وما كان جسده يحمل أي أثر من جرح أو كدمة[١].

لن نطيل هنا في تفصيل دقائق تولّى المحامون عرضها؛ ولن نصف الألم واليأس اللذين انتابا الأب والأم: فأصداء بكائهما ونحيبهما سُمعت من قبل الجيران.

هرع لاڤيس وبيير كالاس للحال في طلب أطباء ورجال العدل. وفيما كانا ينهضان بهذا الواجب، وهما في حالة اضطراب لا توصف، وفيما كان الأب والأم يشهقان ويذرفان الدمع، احتشد أهل تولوز حول الدار. ومعلوم أن التولوزيين شعب متطيِّر وسريع الغضب؛ وهو ينظر إلى إخوانه الذين ليسوا من دينه وكأنهم مسوخ ومخلوقات شاذة. ففي تولوز، على وجه التحديد، وفي احتفالات رسمية، رُفعت صلوات الشكر لله لدى ذيوع نبأ وفاة الملك هنري الثالث[٢]. وفي تولوز حُلِفت أغلظ الأيمان بذبح كل من يُفصح عن رغبته في الاعتراف بالملك العظيم والطيب هنري الرابع[٣]. وتحتفل هذه المدينة كل عام، في موكب مهيب تتخلله الألعاب النارية، بذكرى مجزرة اقترفها سكانها قبل قرنين من الزمن وذهب ضحيتها أربعة آلاف مواطن هرطوقي. وبالرغم من صدور ستة قرارات عن مجلس المدينة بحظر هذا العيد البشع، فإن أهلها لا يزالون يحتفلون به، على غرار مهرجانات الزهور.

١- لم يكن من أثر في جثة الشاب، بعد نقها إلى القصر البلدي، سوى خدش طفيف في طرف الأنف، وسوى لطخة صغيرة عند الصدر حدثت، ولا بد، من جراء عدم الانتباه أثناء نقل الجثمان.

٢- هنري الثالث: ملك فرنسا من عام ١٥٧٤ إلى ١٥٨٩، تأرجح لفترة بين البروتستانتيين و«رابطة الكاثوليكيين» التي كان يتزعمها الدوق دي غيز قبل أن ينقلب على هذا الأخير ويأمر بقتله. وكان يتهيأ لخوض معركة جديدة ضد الرابطة لاسترداد مدينة باريس عندما اغتاله الراهب الدومينيكاني جاك كليمان في آب/أغسطس ١٥٨٩. (م)

٣- هنري الرابع: ملك فرنسا من عام ١٥٨٩ إلى عام ١٦١٠؛ بروتستانتي الأصل. أنقذ نفسه من مجزرة ليلة عيد القديس بارتليمي بارتداده عن دينه. نجح، بعد اعتلائه العرش، في التوفيق بين البروتستانتيين والكاثوليكيين، وحقق إصلاحات كبيرة ونعم بشعبية عظيمة. اغتيل على يد فرنسوا راڤاياك الذي كان مهووساً دينياً ومعادياً للبروتستانتيين. وقد اغتال الملك لأنه فسّر قراره بغزو إسبانيا الكاثوليكية على أنه بداية لحرب ضد البابا. (م)

ارتفع صوت أحد المتعصبين من الرعاع يعلن أن جان كالاس قد أقدم على شنق ابنه مارك – أنطوان. وتعالت الأصوات تردد هذا الاتهام، فانعقد الإجماع عليه في مثل لمح البصر. وزاد آخرون أنّ الميت كان سيرتدّ عن البروتستانتية غداة ذلك اليوم، وأن أسرته ولاڤيس الشاب قد خنقاه كراهية بالدين الكاثوليكي. وللحال أيضاً تحول هذا الادعاء إلى حقيقة راسخة. وباتت المدينة برمتها على اقتناع تام بأن من تعاليم الدين البروتستانتي حضّ الآباء والأمهات على قتل أبنائهم حالما يفصحون عن رغبتهم في اعتناق الكاثوليكية.

عندما تنفعل العقول تجمح وتجنح. هكذا زُعم أن بروتستانتيي مقاطعة اللانغدوك[1] كانوا عقدوا اجتماعاً موسَّعاً عشية ذلك اليوم، وأنهم اختاروا، بغالبية الأصوات، جلاّد الطائفة، وأن الخيار قد وقع على لاڤيس الشاب، وأن هذا الأخير قَدِم من بوردو، بعد أن تلقى خبر انتخابه، في غضون أربع وعشرين ساعة، ليساعد جان كالاس وزوجته وابنهما بيير على شنق صديق وابن وأخ.

بُلّغت هذه الشائعات إلى قاضي مدينة تولوز، السيد داڤيد، فدبّت فيه الحميّة؛ ورغبة منه في الإعلاء من مكانته بسرعة تحرّكه، اعتمد إجراءات مخالفة للأصول وللقوانين، فزّج في السجن بجميع أفراد أسرة كالاس، والخادمة الكاثوليكية، ولاڤيس الشاب.

بعد ذلك جرى تعميم استدعاءات، لا تقلّ مخالفة للقوانين المعمول بها، لإجبار الشهود المفترَضين على الإدلاء بشهاداتهم. أكثر من ذلك: فقد جرى دفن مارك – أنطوان، خلال حفل مهيب، في كنيسة القديس إصطفان، رغم معارضة راعي هذه الكنيسة واحتجاجه على هذا الانتهاك لقدسية المكان. فالشاب مات وهو على المذهب الكالفني؛ وإن صح فوق ذلك أنه وضع بنفسه حدّاً لأيامه، فقد كان يجب أن توضع جثته على حصيرة وأن تُجرجَر في الشوارع.

١- مقاطعة في جنوب غرب فرنسا كانت معقلاً للكاتاريين، وهم أتباع نحلة مانوية قروسطية تقول بثنائية إله الخير وإله الشر. وبعد تجييش حملة صليبية في القرن الثالث عشر للقضاء على الكاتاريين واستئصال شأفتهم وُضِعت هذه المقاطعة تحت السلطة المباشرة لملوك فرنسا، بيد أنها احتفظت بمؤسساتها الخاصة لغاية ثورة ١٧٨٩. (م)

ثمة أخويات أربع للتوّابين[1] في منطقة اللانغدوك: البيضاء، والزرقاء، والرمادية، والسوداء. ويعتمر أعضاء هذه الأخويات قلنصوات مقنَّعة لها ثُقْبان ليتمكنوا من النظر من خلالهما. وقد حاولوا استمالة قائد المنطقة، الدوق فيتز جيمس، وحمّله على الانضمام إلى سلكهم، لكنه رفض عرضهم. وقد أقام الأخويون البيض جنّازاً احتفالياً لمارك - أنطوان، كما لو أنه مات شهيداً. والواقع أن ما من كنيسة احتفلت بذكرى شهيد حقيقي بمثل هذا القدر من الحفاوة؛ ولكنها كانت حفاوة رهيبة بملء معنى الكلمة. ففوق منصة مهيبة اعتلاها نعش، رُفع هيكل عظمي متحرك يمثّل مارك - أنطوان وقد قبض على سعفة نخيل بيد وأمسك بريشة بالأخرى للتوقيع على وثيقة ارتداده عن الهرطقة: للتوقيع على حكم إعدام والده بالأحرى. ولم يبق أمام المسكين، الذي قتل نفسه بنفسه، إلا أن يُطوَّب[2]: فقد غدا الناس يعتبرونه قديساً. راح بعضهم يتضرع إليه، وبعضهم الآخر يتلو الصلوات على قبره. فريق من الناس يناشده الإتيان بمعجزات، وفريق آخر يروّج أخباراً عنه لمعجزات أتاها. راهب انتزع بعضاً من أسنانه ليحتفظ بها كذخيرة دائمة؛ وسيدة ورعة، شبه عديمة السمع، ادّعت بأنها سمعت بوضوح رنين أجراس. كاهن مصاب بالنقطة الدماغية شفي بعد أن تناول مقيِّئاً. جميع هذه المعجزات دُوِّنت محاضرها، وبحوزة كاتب هذه الرواية شهادة تفيد بأن شاباً من تولوز فقد صوابه بعد أن أمضى بضع ليالٍ يصلّي على ضريح القديس الجديد من دون أن يحصل، في النهاية، على المعجزة التي كان ينشد. كان عدد من القضاة أعضاء في أخوية التوابين البيض؛ وبالتالي فإن إعدام جان كالاس كان محتّماً.

ومما هيّأ الأجواء لإعدامه اقتراب موعد ذلك العيد العجيب الذي يقيمه سكان تولوز كل عام احتفالاً بذكرى مجزرة قضى فيها زهاء أربعة آلاف هوغونوتي[3]؛ وقد

١- التوّاب: عضو في واحدة من الأخويات التي كانت تدعو إلى التكفير عن الذنوب والخطايا باللجوء إلى الصلاة، والتعبّد، وممارسة المحبة المسيحية، دون أن يمنعهم ذلك من اللجوء إلى العنف عند الاقتضاء. وكان أعضاء هذه الأخوية يقنّعون وجوههم ويرتدون بَرانِس يختلف لونها من أخوية إلى أخرى. (م)

٢- التطويب: مرحلة أولى متّبعة في الكنيسة قبل الإعلان الرسمي عن قداسة القديس. (م)

٣- الهوغونوتي: تسمية هجائية مشتقة من الألمانية بمعنى المتآمر كانت تطلق على البروتستانتي الفرنسي. (م)

صادفت، في العام ١٧٦٢، الذكرى المئوية لهذا العيد. نُصبت في المدينة زينات هذا الاحتفال، فازداد خيال الشعب المحتقن احتداماً وهيَجاناً. وشاع بين الناس علانية أن منصّة الإعدام التي «سيدولب»[1] عليها أفراد عائلة كالاس ستكون أجمل زينة هذا العيد؛ وقيل أيضاً إن الرعاية الإلهية هي التي جاءت بتلك الضحايا ليصار إلى نحرها في سبيل الدين المقدس. وقد سمع عشرون شخصاً بأم آذانهم هذا الكلام، بل ما هو أشد منه عنفاً بعد. وهذا في أيامنا! وفي زمن حققت فيه الفلسفة كل ذلك القدر من التقدم! وفي وقت تَنشر فيه مئة أكاديمية بيانات تدعو إلى تهذيب الأخلاق والتخفيف من قسوة الأعراف! ولكن يبدو أن التعصّب، الذي ساءه ما حققه العقل من إنجازات، راح يتخبط تحت وطأته بمزيد من الغيظ والحنق.

ثلاثة عشر قاضياً راحوا يجتمعون يومياً لإنجاز الدعوى. لم يكن هنالك أي دليل ضد أسرة كالاس، بل كان مستحيلاً أن يكون هنالك دليل؛ ولكن الدين المتنكّر له ناب مناب هذا الدليل. وقد أصرّ ستة من القضاة على الحكم على جان كالاس وابنه ولاڤيس بالموت على الدولاب، وعلى زوجة جان كالاس بالصعود إلى المحرقة، في حين طالب سبعة قضاة آخرون، أكثر اعتدالاً، بأن يصار على الأقل إلى التحقيق في ما جرى. وقد تكررت المداولات وطالت، وكان واحد من القضاة على يقين تام ببراءة المتهمين وباستحالة الجريمة؛ لذلك دافع عنهم باندفاع، وعارض داعي التشدد والقسوة بداعي الإنسانية، وغدا هو المحامي العام لآل كالاس في بيوت تولوز قاطبة حيث ما فتئت الأصوات ترتفع مطالبة بسفك دماء هؤلاء المنكوبين باسم الدين المطعون. ولكن ثمة قاضٍ ثانٍ، معروف بتشدّده، راح يتهجم حيثما تواجد على آل كالاس، متحاملاً عليهم بمثل الحميّة التي أبداها الأول في الدفاع عنهم. وكانت الفضيحة التي أثاراها بموقفهما من الفداحة بحيث اضطرا، كلاهما، إلى التنحي عن منصبهما وإلى الانزواء في الريف.

ولكن مِن نحس الطالع أنه، في حين أصرّ القاضي المتعاطف مع أسرة كالاس على تنحيّه، من باب اللباقة وحسن الأخلاق، عاد عنه القاضي الآخر وأدلى بصوته ضد

١- الدَوْلَبة: ضربٌ من التعذيب يقضي بتهشيم عظام المحكوم عليه بالإعدام ثم تركه يموت موثوقاً إلى دولاب خشبي. (م)

مَن لم يعد مؤهَّلاً لمحاكمتهم: صوت تسبب في صدور الحكم بالإعدام على الدولاب. فمن أصل ثلاثة عشر قاضياً كان ستة قد صوَّتوا، في البداية، ضد هذا الحكم؛ ولكن بعد طول أخذ وردّ، انضم واحد من بينهم إلى الفريق المتشدِّد، المطالب بالإعدام.

من المسلّم به أنه عندما يبتّ القضاء في موضوع إعدام أب، عندما يكون في صدد إنزال أفظع أشكال العقوبات برب أسرة، فإن الحكم الذي يصدر عنه لا بد أن يأتي بالإجماع. فالأدلة على جريمة غير معقولة كهذه لا بدّ أن تكون واضحة وضوحاً بيِّناً للجميع[1]. وفي حالة كهذه، فإن أي ظل من الشك قد يحوم يجب أن يكون كافياً ليجعل يد القاضي الذي سيوقّع على الحكم بالموت ترتجف مذعورة. إن ضعف بصيرتنا وتقصير قوانيننا أمر نلمسه كل يوم؛ غير أنهما يتجليان على أسطع نحو عندما تكون غلبة صوت واحد كافية لإعدام مواطن بالدولاب. في أثينا كان الحكم بالإعدام يقتضي غالبية خمسين صوتاً فوق النصف. ماذا نستنتج من ذلك؟ حقيقة نعرفها، ولكن من غير جدوى؛ حقيقة أن الإغريق كانوا أعقل منّا، وأكثر إنسانية.

مِن الواضح أن جان كالاس، وهو المسنّ الذي تجاوز الثامنة والستين، وشبه العاجز عن التحرك بسبب خرع ساقيه وتورّمهما، ما كان قادراً على أن يخنق ويشنق بمفرده ابناً في الثامنة والعشرين، ذا بنية أقوى من المعتاد. ولو اقترف تلك الفعلة لاحتاج، لا

١- لم أطّلع إلا على مثالين لأبوين اتُّهِما، عبر شتى مراحل التاريخ، بقتل أبنائهما لأسباب دينية.

الأول هو والد القديسة بربارة. كان هذا الأب قد أوصى بفتح نافذتين في غرفة حمّامه؛ وفي أثناء غيابه، أحدثت بربارة نافذة ثالثة إكراماً للثالوث المقدس؛ وقد رسمت «بطرف إصبعها» علامة الصليب على أعمدة رخامية، فانحفرت العلامة بعمق داخل الأعمدة. غضب والدها ولحق بها شاهراً سيفه، لكنها هربت عبر جبل انشقّ من أجلها. دار الأب من حول الجبل وقبض على ابنته. جُلدت وهي عارية تماماً، لكن الله غطّى عريها بغيمة بيضاء. وفي النهاية قطع والدها رأسها. هذا ما يرويه لنا كتاب «**أقدس القديسين**».

أما المثال الثاني فبطله الأمير هرفيجيلد [ابن الملك الإسباني القوطي لوفيجيلد (م)]؛ فقد تمرد على أبيه الملك، وخاض معركة ضده في العام ٥٨٤، فهُزِم وقُتل على يد أحد الضباط. وقد جُعل منه شهيداً لأن والده كان من أنصار أريوس.

محالة، إلى مساعدة زوجته، وابنه بيير كالاس، ولاڤيس الشاب، والخادمة، ولانغمس الجميع في الجريمة لأنهم لم يفترقوا عن بعضهم لحظة واحدة ساعة وقوع تلك المأساة الرهيبة. ولكن هذه فرضية لا تقل عبثية عن الفرضية الأولى: فلماذا كانت خادمة كاثوليكية ورعة ستقبل بأن يَعمد بعض الهوغونوتيين إلى اغتيال شاب كانت قد تولت تربيته بنفسها، عقاباً له على اعتناق مذهبها؟ وكيف يكون لاڤيس الشاب قد قدِم خصيصاً من بوردو لخنق رفيقه وهو على غير علم بارتداده المزعوم عن البروتستانتية؟ وكيف تقوى أمّ عطوف على الاعتداء على فلذة كبدها؟ ولو سلّمنا جزافاً بأنهم شاركوا فعلاً في شنق شاب يكاد يكون بمفرده أقوى منهم جميعاً، فهل كانوا سيحققون مأربهم بدون عراك طويل وعنيف، بدون صياح وصراخ يستنفران أهل الجيرة، بدون ضربات متوالية، بدون كدمات، بدون ملابس ممزّقة؟

من الواضح أنه لو وقعت تلك الجريمة النكراء فعلاً، لكان جميع المتهمين مذنبين ما داموا لم يفترقوا عن بعضهم بعضاً لحظة واحدة. ولكن من الواضح، أيضاً، أنه ما كان لهم أن يكونوا مشاركين في الجرم للاعتبارات التي أسلفنا ذكرها؛ كما أنه من الواضح، أخيراً، أن الأب ما كان قادراً على اقتراف الجريمة بمفرده. مع ذلك حُكم على هذا الأب، دون سواه، بالموت على الدولاب.

لم تكن الحجة التي اعتُمِدت في إصدار هذا الحكم أكثر معقولية من مجمل الدعوى. فالقضاة المصممون على إعدام جان كالاس انتزعوا اقتناع باقي زملائهم بمداورتهم الحجة التالية: زعموا أن ذلك الرجل المسن، الضعيف البنية، لن يصمد أمام التعذيب، وأنه سيعترف بجريمته وجريمة شركائه عندما يشرع الجلادون بتهشيم أضلاعه. ولكن كم خابت ظنونهم وخزيت نفوسهم عندما لم يفعل ذلك الشيخ المسن، وهو يحتضر على الدولاب، سوى أن أشهد الله على براءته وناشده أن يغفر لقضاته. وهكذا اضطروا إلى أن يصدروا حكماً ثانياً، معارضاً للأول، قضى بإطلاق سراح الأم، وابنها بيير، ولاڤيس الشاب، والخادمة. ولكن عندما أوضح أحد المستشارين أن الحكم الجديد يَطعن في الأول، وأنهم يدينون أنفسهم بإصداره لأن إطلاق سراح هؤلاء المتهمين يقطع الدليل على براءة الأب المغدور الذي لم يفارقهم لحظة واحدة ساعة وقوع المأساة، بادر القضاة إلى الحكم بالنفي على الابن، بيير

كالاس. قرار يتعارض، بدوره، مع المنطق السليم. ذلك أنه إمّا أن يكون بيير كالاس بريئاً من دم شقيقه، وإما أن يكون منغمساً في جريمة قتله. فإن يكن مذنباً، فقد كان يتوجب إعدامه على الدولاب أسوة بأبيه؛ وإن يكن بريئاً، فليس مِن مبرر لنفيه. والواقع أن القضاة الذين هالهم مشهد تعذيب الأب وإعدامه، والوَرَع المؤثر الذي استقبل به الموت، توهموا أنهم قد ينقذون شرفهم ويبيّضون صفحتهم إذا ما تظاهروا بالعفو عن الابن؛ فلكأن هذا العفو لا يشكل إخلالاً جديداً بالواجب الملقى على عاتقهم. ولقد توهموا أيضاً أن نفي شاب فقير وبلا سند عقوبة غير ذات أهمية، عقوبة لا تنطوي على ظلم فادح بالمقارنة مع ذاك الذي اقترفوه بحق الأب.

عندما كان بيير كالاس لا يزال سجيناً هُدِّد تكراراً بأنه سيلقى مصير أبيه إن لم يرتدّ عن دينه. هذا ما أقسم الشاب على قوله[1]. وحين غادر المدينة صادف في طريقه كاهناً مبشِّراً، فأعاده هذا الأخير إلى تولوز حيث أُجبر على الإقامة في دير للآباء الدومينيكانيين وعلى أداء سائر فروض المذهب الكاثوليكي: هذا ما كان المطلوب بوجه من الوجوه. فعلى هذا النحو افتدي دم الأب، وتمّت ترضية دين توهّم القضاة أنهم قد ثأروا له.

في الوقت عينه سُلخت بنات جان كالاس عن أُمهن وحُجر عليهن داخل أحد الأديرة. وقد غدت تلك الأم، التي كاد دم زوجها يبللها، والتي حملت بين ذراعيها بِكر أبنائها وقد أمسى جثة هامدة، وكابدت من نفي ثاني أبنائها، وحُرمت من وجود بناتها، وجُرّدت من كل ما تملك، غدت وحيدة في هذا العالم، لا أمل لها ولا رجاء ولا سند لها تعوِّل عليه لتأمين لقمة عيشها، وتكاد تكون كالميتة من فداحة الكوارث التي حلّت بها. وقد رأف لحالها بعض الأشخاص، بعد أن اطلّعوا على مجمل ظروف هذا الحدث الرهيب وأذهلتهم ملابساته، فألحّوا عليها كي تخرج من عزلتها وتتجرأ على التقدم بشكوى تَظلُّم أمام العرش الملكي. كانت قواها قد خارت، بل كانت تحتضر احتضاراً. وبما أنها كانت من أصل إنكليزي، وقد ساقتها المقادير منذ نعومة أظافرها إلى التوطّن في مقاطعة نائية من مقاطعات فرنسا، فإن اسم مدينة باريس وحده كان

١- لقد زارني راهب دومينيكاني في سجني وهددني بنهاية مشابهة إن لم أرتدّ عن ديني: أُقسم بالله على صحة ما أقول، ٢٣ تموز/ يوليو ١٧٦٢، بيير كالاس.

كفيلاً بإدخال الذعر إلى نفسها. فقد توهمت بأن عاصمة المملكة لا بد أن تكون أكثر همجية بعد من عاصمة اللانغدوك. ولكن حق زوجها عليها بالثأر لذكراه تغلّب أخيراً على وَهَنها. قدمت إلى باريس وهي تكاد تلفظ أنفاسها، ففوجئت بما لاقته فيها من ترحاب، ومؤازرة، وتعاطف.

في باريس يتغلب العقل على التعصب مهما احتدّ وعنُف، في حين أن الغلبة في الأقاليم والمقاطعات تكاد تكون دوماً للتعصب.

كان السيد دي بومون، المحامي الشهير لدى محكمة باريس العليا، أوّل من تولى الدفاع عن السيدة كالاس؛ وقد صاغ عريضة وقّع عليها خمسة عشر محامياً من بين زملائه. أما السيد لوازو، الذي لم يكن دونه بلاغة، فقد كتب مذكرة دافع فيها عن أسرة كالاس، في حين تقدم السيد مارييت، المحامي في المجلس الملكي، بطلب التماس لإعادة النظر في قضية هذه الأسرة: طلبٌ كان له وقعه الإيجابي في جميع الأذهان. والجدير بالتنويه أن هؤلاء المدافعين الشهماء الثلاثة عن القوانين وعن البراءة تنازلوا عن ريع نشر مرافعاتهم لصالح الأرملة المنكوبة[1]. وقد تعاطفت باريس، بل أوروبا بأسرها، مع هذه المسكينة وأيّدتها في مطالبتها بالإنصاف. وبالفعل، انتصف لها الجمهور العريض وأصدر حكمه لصالحها قبل أن توقّع المحكمة العليا على هذا الحكم بفترة طويلة.

وشَقّ التعاطف والشفقة طريقهما إلى النيابة العامة أيضاً، رغم أن السيل المتدفق للقضايا من شأنه لجم الرأفة، ورغم أن التعامل المتواصل مع البؤساء من طبيعته تقسية القلب. وهكذا أُعيدت البنات إلى أمهن. وقد بكى القضاة عندما مَثُلتْ الثلاث أمامهم في ثياب الحداد، والدمع يسيل من عيونهن مدراراً.

لكن أسرة كالاس بقيت، رغم ذلك، تواجه عداء بعض الناس، نظراً إلى أن المسألة كانت تتعلق بالدين. فعدد من الأشخاص، ممن يُعرفون في فرنسا باسم les dévots، أي «الورعاء»[2]، رفعوا عقيرتهم ليعلنوا أن إعدام كالفنيٍّ طاعن في السن، وإن كان

١- انتشرت نسخ مزوّرة من هذه المرافعات في العديد من المدن، فما استفادت السيدة كالاس من ريع هذه المبادرة الشهمة.

٢- كلمة DEVOT آتية من اللاتينية DEVOTUS. وكان «ديفوتيو» روما القديمة هم الأشخاص الذين ينذرون أنفسهم في سبيل خلاص الجمهورية من أمثال كورتيوس وداميوس.

بريئاً، أفضل من حمل ثمانية قضاة من اللانغدوك على الإقرار بأنهم أخطؤوا الحكم. بل إنهم عمدوا إلى استخدام هذه العبارة: «إن عدد القضاة أكبر من عدد أفراد أسرة كالاس»، ليستخلصوا منها أنه يتعين التضحية بأسرة كالاس في سبيل إنقاذ شرف القضاة. ولم يدر في خلد هؤلاء الأشخاص أن شرف القضاة يكمن، مثلهم مثل بقية البشر، في استدراك خطئهم. فنحن هنا، في فرنسا، لسنا ممن يؤمنون بأن البابا، يؤازره كرادلته، معصوم عن الخطأ؛ فلماذا يكون ثمانية قضاة من تولوز معصومين عنه؟ والواقع أن العقلاء والنزهاء من الناس قد أجمعوا قاطبة على القول بأن الحكم الصادر في تولوز ما كان إلا ليُنقض في جميع بلدان أوروبا، وإن حالت اعتبارات خاصة دون نقضه من قبل المحكمة العليا في فرنسا.

كانت هذه القضية العجيبة قد بلغت هذا الطور من تفاعلاتها عندما صمم أشخاص متجرِّدون، ولكن مدركون لفداحة ما حصل، على التقدم إلى الجمهور ببعض التأملات حول التسامح، والحِلم، والرأفة التي لا يتردد الراهب هوتفيل[1]، في روايته المتحذلقة الأسلوب والمحشوة بالأخطاء عندما يتصدى لسرد الوقائع، في أن يصفها بأنها «معتقد قبيح»؛ علماً بأن العقل ما كان يرى فيها إلا خاصية من خواص الطبيعة.

إذاً، فإما أن يكون قضاة تولوز، المدفوعون بتعصب الدهماء، قد أمروا بإعدام رب أسرة بريء، وهذا أمر لا سابقة له؛ وإما أن يكون ربّ الأسرة هذا قد أقدم على شنق بِكر أبنائه، بمساعدة زوجته، وابنه الآخر، وصديق الضحية، وهذا ما يخالف الطبيعة. وفي كلتا الحالتين يكون الغلوّ في الدين، حتى وإن كان هذا الدين من أقدس الأديان، قد تسبّب في جريمة نكراء. ومن ثم، إن من مصلحة الجنس البشري الفحص عما إذا كان يفترض في الدين أن يكون رحيماً، أو بالعكس همجياً.

١- الأب كلود فرنسوا ألكسندر هوتفيل (١٦٨٦-١٧٤٢): كاهن وكاتب ديني فرنسي وأمين سر الأكاديمية الفرنسية، انتصر لمالبرانش وانتقد بعنف سبينوزا. وفي كتابه «الدين المسيحي مبرهنا عليه بالوقائع» ندد بالتسامح الديني الذي كان بدأ يعمّ فرنسا عقب موت الملك لويس الرابع عشر، والذي ليس من شأنه في نظره إلا أن يقود إلى الزندقة والإلحاد (م).

الفصل الثاني

النتائج المترتبة على إعدام جان كالاس

إذا كان التوّابون البيض هم السبب في إعدام إنسان بريء، وفي دمار أسرة وتشتتها وإنزال العار بها - ذلك العار الذي يلحق لا محالة كل من يُنفَّذ فيه حكم الإعدام، مع أنه لو كان عار هنا فإنما هو عار الظلم واللاعدل - وإذا كان التوابون البيض، بتعجّلهم في تقديس شخص ما كان يستأهل، بحسب عاداتنا الهمجية، سوى أن تُسحل جثته في الطرقات العامة، قد تسببوا في إعدام رب أسرة صالح، فحريّ بهم أن يتوبوا حقاً حتى نهاية أيامهم. عليهم هم والقضاة أن يذرفوا الدموع، ولكن من دون أن يرتدوا جبّة طويلة بيضاء، ومن دون أن يضعوا على وجوههم قناعاً يخفي هذه الدموع.

إن جميع الأخويات جديرة بالاحترام: فهي تنشر التقوى. ولكن مهما يكن عظيماً الخير الذي قد تفعله للدولة، فهل يتساوى مع ذلك الشر الشنيع الذي تسبّبت فيه؟ فهي مؤسَّسة من الأصل، على ما يبدو، على العداء الذي يكنّه كاثوليكيو اللانغدوك لمن نسميهم بالهوغونوتيين. فأعضاء هذه الأخويات قد نذروا لله أن يبغضوا إخوانهم، فكأنما عندهم من الدين ما يكفي للبغض والاضطهاد، وليس عندهم ما يكفي للحب والإغاثة. تُرى ماذا كان سيحصل لو أن رؤساء هذه الأخويات كانوا من المهووسين المتهوّرين، كما كانت الحال في السابق مع بعض جمعيات الحرفيين وشيوخ الصنعة التي تحولت فيها الهلوسة والرؤى إلى عادة متبَعة وطريقة مقرَّرة، طبقاً لتعبير واحد من أكثر قضاتنا بلاغة وعلماً؟ ماذا كان سيحصل لو شاعت لدى الأخويات تلك الحجرات المظلمة، المسماة «حجرات التأمل»، حيث كان يصار إلى تصوير شياطين مسلحين بقرون ومخالب، ولجج تتصاعد منها ألسنة اللهب، وصلبان وخناجر، مع الاسم المقدس ليسوع في أعلى اللوحة؟ فيا له من مشهد لأعين مسحورة سلفاً، ولمخيلات ملتهبة بقدر ما هي خاضعة لمن يوجّهها!

لا حاجة للتذكير بأن بعض الأخويات كانت خطرة أو ضارة في وقت من الأوقات؛

فكثيراً ما تَسبب أعضاء الأخويات والمتسوِّطون[١] في إحداث اضطرابات وأعمال شغب. والحال أن الرابطة[٢] قد تأسست انطلاقاً من تلك الجمعيات. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: لماذا هذا الإصرار على التمايز عن بقية المواطنين؟ أمن باب الاعتداد بالنفس والاعتقاد بالتفوق؟ ولكن ألا ينطوي مثل هذا الموقف على إهانة لبقية أفراد الأمة؟ وهل المطلوب أن ينتمي المسيحيون كلهم إلى أخوية من الأخويات؟ فيا لروعة مشهد أوروبا وقد تلفحت ببرنس وأخفت وجهها خلف قناع ذي ثقبين عند العينين! أمن المعقول أن يتصور المرء أن الله يفضّل هذا الزي المضحك على الهندام العادي؟ بل أكثر من ذلك: فهذا الزي هو عينه الذي كان يرتديه المجادلون في الدين، ومن ثم ليس من شأنه إلا أن ينبّه الخصوم إلى ضرورة الاستعداد للمواجهة. إنه خليق بإشعال نار ضرب من حرب أهلية في الأذهان، حرب كانت ستترتب عليها أوخم العواقب لو لم يكن الملك ووزراؤه متعقلين بقدر ما أن المتعصبين حمقى ومتهورون.

نحن نعلم كم هو باهظ الثمن الذي دُفع منذ أن راح المسيحيون يتشاحنون ويتقاتلون بسبب العقيدة. فمنذ القرن الرابع وحتى أيامنا هذه ما فتئت الدماء تُسفَك بغزارة، إن على المحارق ومنصات الإعدام وإن في ساحات الوغى. ولكن لنكتفِ هنا بالكلام عن الحروب والفظائع التي تسببت فيها الخصومات الناجمة عن حركة الإصلاح البروتستانتي، ولنبحث في أصولها في فرنسا. فربما يساعد عرض موجز وأمين لذلك القدر الهائل من الفواجع على فتح أعين أناس محدودي العلم والاطلاع، وعلى التأثير في قلوب طيِّبة.

١- اسم كان يطلق على من يجلدون أنفسهم بأنفسهم في الطرقات العامة تكفيراً عن ذنوبهم (م).

٢- المقصود بها الرابطة الكاثوليكية، وسيأتي الكلام عنها (م).

الفصل الثالث

فكرة الإصلاح في القرن السادس عشر

عندما شرعت العقول تستنير في عصر النهضة عمّت الشكوى من ضروب التعسف وسوء استعمال السلطة؛ وثمة إجماع اليوم على الاعتراف بشرعية تلك الشكوى. فالبابا الإسكندر السادس، على سبيل المثال، كان اشترى علناً التاج البابوي. وقد شاطره مكاسبه منه أبناؤه غير الشرعيين الخمسة. وبالتواطؤ مع الأب، أي مع البابا، أقدم الابن، الكاردينال ودوق بورجيا، على استئصال شأفة آل ڤيتيللي، وأوربينو، وغراڤينا، وأوليڤريتو، وما يزيد على مئة نبيل آخر، بغية الاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم. وبدافع تحقيق المغانم أيضاً بادر البابا يوليوس الثاني إلى إنزال الحِرْم الكنسي بالملك لويس الثاني عشر، وإلى إعطاء ملْكه لأول طامع في الاستيلاء عليه؛ كما أنه زرع بنفسه الدمار في شطر من إيطاليا وعاث فيه فساداً، محارباً مع من حاربوا، وقد اعتمر خوذة وادَّرَعَ درعاً وهو رئيس الكنيسة الأعلى. أما البابا لاون العاشر فقد عمد إلى بيع صكوك الغفران، وكأنها سلع تُصرَّف في سوق عامة، بغية تغطية نفقات بذخه ومُتعه. وأولئك الذين عارضوا هذه اللصوصية وانتقدوها لم يقترفوا خطأ على صعيد الأخلاق. فلنرَ إن كانوا قد أخطأوا بحقنا على الصعيد السياسي.

لقد قالوا إن المسيح لم يفرض قط جزية تسدد للكنيسة، ولم يبع قط إعفاءات لهذه الدنيا ولا صكوك غفران للآخرة؛ فلماذا نلزم أنفسنا بما لم يطالبنا به وندفع لعاهل أجنبي ما نحن غير ملزَمين به؟ فلو سلّمنا جدلاً بأن الضريبة الكنسية السنوية، والدعاوى المرفوعة أمام محكمة روما، والإعفاءات الكنسية التي لا تزال معمولاً بها حتى اليوم، لا تكلفنا أكثر من خمسمئة ألف فرنك خلال العام الواحد، فهذا يعني أننا قد سدّدنا للكنيسة منذ عهد الملك فرنسوا الأول، أي خلال مئتين وخمسين عاماً، زهاء مئة وخمسة وعشرين مليون فرنك. وإذا أخذنا بعين الاعتبار تقلُّب سعر المارك

الفضي[1] خلال تلك الحقبة الزمنية، فإن المبلغ الفعلي الذي نكون قد سددناه يُقدّر عندها بمئتين وخمسين مليون فرنك. باستطاعتنا إذاً أن نسلّم، من دون أن نُتَّهم بالتجديف، بأن الهراطقة لم يلحقوا الأذى بالمملكة عندما اقترحوا إلغاء أشباه هذه الضرائب العجيبة التي لا مناص من أن تثير استغراب الأجيال القادمة، مدلّلين بذلك على أنهم حسّابون جيدون أكثر منهم رعايا أردياء. وقد انفردوا، علاوة على ذلك، بمعرفتهم باللغة اليونانية وبتضلّعهم بتاريخ العصر القديم. ولنكن صريحين فنقول إننا ندين لهم، رغم أخطائهم، بتطور العقل البشري الذي طالما انطمر تحت أسداف الهمجية المظلمة.

ولكن بما أنهم رفضوا وجود المَطْهَر[2] الذي لا يجوز لأحد التشكيك فيه والذي يدرّ ريعاً كبيراً على الرهبان؛ وبما أنهم رفضوا توقير رفات من نحن ملزمون بتوقير رفاتهم من القديسين – وعائد مثل هذا التوقير على القساوسة أكبر بعد – وبما أنهم تهجموا على عقائد كنسية تنعم بعظيم الاعتبار[3]، فقد كان الرد الوحيد عليهم،

١- نقدٌ قديم يزن ٧٥ ,٢٤٤ غراماً من الفضة، ولم يكن ثابت القيمة. (م)

٢- المَطْهَر: في العقيدة المسيحية مكان آلام تتطهر فيه نفوس الصدّيقين الذين لم يلبّوا على الوجه الأمثل مطالب العدالة الإلهية، فما استحقوا، بالتالي، الانتقال إلى السماء مباشرة. وقد جرت العادة أن يتبرع الكاثوليكيون بأموالهم للكنيسة كي يختصروا مدّة إقامة نفوسهم فيه للانتقال بأسرع ما يمكن إلى الجنة. (م)

٣- لقد جدّدوا تصور بيرانجيه* للقربان المقدس ونفوا إمكانية تواجد جسد بعينه في مئة ألف مكان مختلف حتى لو تدخلت السلطة الإلهية المطلقة**؛ كما نفوا أيضاً استمرارية الأعراض بعد زوال الجوهر. كانوا يعتقدون أن من سابع المستحيلات أن ما هو خبز وخمر، بالنسبة إلى النظر والذوق والمعدة، يمكن أن ينعدم وجوده في اللحظة عينها التي يوجد فيها. وقد تبنوا سائر هذه الأضاليل التي أدينت سابقاً عند بيرانجيه. وقد اعتمدوا على بعض المقاطع من نصوص آباء الكنيسة الأوائل، ولاسيما القديس يوستانس الذي يقول صراحة في رده على تروفون: «إن تقديس الطحين الناعم... هو صورة عن القربان المقدس الذي أمرَنا المسيح بصنعه استحضاراً لذكرى عذاباته وآلامه» (طبعة لوندينسيس، ١٧١٩، ص١١٩).

كما كانوا يتبنون كل ما قيل في القرون الأولى ضد التبرّك برفات القديسين وذخائرهم؛ وكانوا يستشهدون بهذا القول لڤيجيلانتيوس***: «أمن الضروري أن تحترموا، بل أن

بادئ ذي بدء، إعدامهم حرقاً. فالملك، الذي كان يحميهم ويرشوهم ويغدق عليهم في ألمانيا، سار في باريس على رأس موكب كانت محطته الختامية إعدام عدد من أولئك المساكين. وهاكم كيف تمّ هذا الإعدام: فقد عُلّقوا على عارضة خشبية طويلة متأرجحة فوق شجرة عالية، ثم أُوقدت نار عظيمة تحت أقدامهم، فكانوا يُزج بهم تارة في أتونها، ثم يُرفعون عنها تارة أخرى. وهكذا ذاقوا مرارة المنون جرعة جرعة وتقلّبوا على لظى أبشع وأطول أنواع العذابات التي ابتكرتها الهمجية، إلى أن لفظوا أنفاسهم.

تعبدوا ما ليس إلا تراباً حقيراً؟ فهل أرواح الشهداء لا تزال ماثلة في رمادهم؟ لقد تسللت عادات عَبَدة الأوثان إلى الكنيسة، فغدونا نولع المشاعل في أوج الظهيرة! في وسعنا أن نصلي لبعضنا بعضاً ما دمنا على قيد الحياة؛ ولكن ما فائدة هذه الصلوات بعد الموت؟».

بيد أنهم لا يأتون البتة بذكر ردود القديس ييرونيموس على هذا القول. لقد أرادوا، خلاصة الكلام، أن يعيدوا كل شيء إلى عهد الرسل، رافضين الاعتراف بأن الكنيسة التي توسعت وتعززت قد غدت مضطرة إلى توسيع منظومتها العقائدية. وقد أدانوا الثراء مع أنه ضروري لضمان جلال العبادة.

* بيرانجيه التوري: لاهوتي فرنسي (نحو ٩٩٨-١٠٨٨م): شارك في المناظرة المشهورة التي دارت في أواسط القرن الحادي عشر حول القربان المقدس، وجلب على نفسه، بسبب نفيه الحضور الواقعي للمسيح في القربان، إدانة المجامع الكنسية وردوداً كثيرة من اللاهوتيين. (م)

** حتى نفهم هذا المقطع من النص يجب أن نستذكر أن المسيحيين الكاثوليكيين والأرثوذكسيين يؤمنون بأن القربان المقدس، الذي يكرّسه الكاهن من الخبز والخمر، يتحول فعلاً إلى جسد ودم يسوع المسيح الذي يتناوله المؤمنون أثناء القدّاس في مئات آلاف الكنائس المنتشرة في شتى أنحاء العالم. (م)

*** ڤيجيلانتيوس، راهب من القرن الرابع للميلاد كان رفيع الثقافة؛ قدم إلى فلسطين والتقى القديس ييرونيموس في بيت لحم، فحاول هذا الأخير أن يقنعه بمذهبه في تعظيم رفات القديسين وصورهم، والصلوات التي يجب أن ترفع إليهم، والشموع التي ينبغي أن توقد على أضرحتهم. لكنه لم يوافقه على آرائه وارتحل إلى مقاطعة لومبارديا في إيطاليا حيث انتصر له أساقفتها. (م)

وقبيل وفاة الملك فرنسوا الأول كان أعضاء في محكمة مقاطعة البروفانس قد طلبوا من العاهل الفرنسي، بعد أن ألّبهم بعض رجال الدين على سكان بلدتي مريندول وكابربير[1]، أن يدعمهم بقوات مسلّحة كيما ينفّذوا حكم الإعدام بحق تسعة عشر شخصاً من المنطقة؛ والحال أنهم أمروا بذبح ما لا يقل عن ستة آلاف شخص، بمن فيهم نساء وشيوخ وأطفال، ودمّروا ثلاثين بلدة وأحالوها رماداً. وكانت الجريمة الوحيدة التي اقترفها هؤلاء الناس أنهم ولدوا ڤالديين[2]. وكانت قد انقضت قرون ثلاثة على إقامتهم في مناطق جرداء وعلى سفوح جبال أخصبوها بعملهم الدؤوب؛ وكانت حياتهم الرعوية الهادئة توحي بالبراءة التي درجت العادة على عزوها إلى عهود البشرية الأولى. وما كانوا يعرفون المدن المجاورة إلا من خلال تجارة الفاكهة التي كانوا يبيعونها لها؛ وكانوا يجهلون الدعاوى القضائية والحرب، ولم يدافعوا عن أنفسهم حتى عندما هوجموا: فقد جرى نحرهم كالحيوانات الشاردة التي تُذبح في حظيرة مغلقة[3].

بعد وفاة فرنسوا الأول، الذي يبقى رغم كل شيء معروفاً بغرامياته وبما نزل

١- مريندول وكابربير بلدتان فرنسيتان جنوبيتان حصلت فيهما مجزرة في العام ١٥٤٥ ذهب ضحيتها الڤالديون. (م)

٢- الڤالديون: أتباع بيير ڤالدوا الذي هجر أملاكه ليعيش حياة الفقر على مثال حواريي المسيح؛ وقد أنزلت الكنيسة بهم الحِرْم الكنسي عام ١١٨٤ وأدانت مذهبهم القائم على التقيد بالنص المقدس وحده وعلى نبذ العنف، وعلى الزهد والتقشف، وعلى جواز الصلاة باللغة العامية، أي غير اللاتينية. وقد احتموا من الاضطهاد في جبال الألب حيث جُيّشت ضدهم في القرن الخامس عشر حملة شبه صليبية. وقد انتمت البقية الباقية منهم إلى المذهب الكالفنيّ. (م)

٣- كانت السيدة دي سنتال تملك الجزء الأكبر من الأراضي المخرّبة التي لم تعد تشاهد فيها سوى جثث سكانها، وقد تقدمت بشكوى إلى الملك هنري الثاني الذي أحالها إلى محكمة باريس العليا. وهذه ما أدانت أحداً سوى المحامي العام لمقاطعة البروفانس، المدعو غيران، والمسؤول الأول عن المجازر، فأصدرت بحقه حكماً بالإعدام. ويقول عنه اللاهوتي دي تو إنه انفرد وحده، دون بقية المذنبين، بتحمل العقاب لافتقاره إلى أصدقاء في البلاط الملكي.

به من مصائب أكثر منه بقساوته وطغيانه، جاء إعدام زهاء ألف هرطوقي، وفي مقدمتهم المستشار دي بور[1]، ومن ثم مجزرة مدينة ڤاسي[2] ليحث المضطَهَدين، الذين تضاعف عدد المنتمين إلى نحلتهم على ضوء المحارق وتحت سيف الجلادين، على إشهار السلاح في وجه مضطهِديهم. وإذ أخلى صبرهم مكانه لحنقهم اقترفوا بدورهم من الفظائع ما اقترفه أعداؤهم، فعمّت المجازر في فرنسا التي كابدت من تسع حروب أهلية. ولئن أُعلن السلم في النهاية فقد كان أكثر شؤماً ونحساً حتى من الحرب، إذ أسفر عن وقوع مجزرة ليلة عيد القديس بارتليمي[3] التي لا مثيل لها في سجلات الجريمة.

١- دي بور: رجل دين ومستشار قانوني فرنسي، صارح الملك بضرورة إصلاح أخلاق حاشية القصر وانتهاج سياسة التسامح الديني مع البروتستانتيين، فأمر الملك باعتقاله ثم قُدّم إلى المحكمة، فحكمت بإعدامه، فشنق وأحرق في الساحة العامة يوم ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٥٥٩. وقد أبدى عن شجاعة فائقة أثناء محاكمته، ثم عند إعدامه. فقد صرخ بقضاته: أطفئوا نيرانكم وارتدعوا عن رذائلكم. وقال وهو على منصة الإعدام إنه يموت خادماً لله وعدواً لعسف الكنيسة الكاثوليكية. وقد أعقبت موته صراعات طائفية متتالية بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين. (م)

٢- ڤاسي: بلدة تقع في مقاطعة شمبانيا الفرنسية؛ أثناء مرور رئيس «الرابطة الكاثوليكية» الدوق دي غيز فيها يوم ١ آذار/مارس ١٥٦٢ توقف في كنيستها لحضور القداس ففوجئ بأداء البروتستانتيين لطقوسهم فيها، فأمر رجاله بإحراقها. وقد قتلوا نحواً من ثمانين بروتستانتياً غير حامل للسلاح وجرحوا مئات غيرهم. وقد كانت مذبحة ڤاسي هي الشرارة التي أولعت نار حروب الدين التي دامت في أوروبا قرناً ونيفاً. (م)

٣- مجزرة عيد القديس بارتليمي: مجزرة رهيبة وقعت في باريس ليلة ٢٣-٢٤ آب/أغسطس عام ١٥٧٢، ناف عدد ضحاياها من البروتستانتيين على الثلاثة آلاف. وقد اُقترفت هذه المجزرة بأمر من الملك شارل التاسع، وبتحريض من والدته كاترين دي مديشي، ورئيس الرابطة الكاثوليكية، الدوق دي غيز. وكان من بين ضحاياها الأميرال كوليِنّي الذي استحق كراهية كاترين دي مديشي بسبب النفوذ الذي كان يمارسه على الملك شارل التاسع. ولئن عُرفت هذه المجزرة باسم القديس بارتليمي - أي بارتليماوس، وهو من حواريي المسيح الاثني عشر - فلأنها وقعت عشية يوم عيده. (م)

وقد كان للرابطة[1] اليد الطولى في اغتيال الملكين هنري الثالث وهنري الرابع، الأول على يد راهب دومينيكاني، والثاني على يد شخص متوحش الطباع كان ينتمي فيما مضى إلى رهبانية الإخوة المتقشفين. هنالك من يدّعي أن النزعة الإنسانية والتسامح وحرية الضمير أمور رهيبة؛ ولكن هل كانت ستتسبب في مثل تلك الكوارث؟ لنجب بصدق عن هذا السؤال.

١- الرابطة المقدسة: اسم أُطلق على أربع جمعيات كاثوليكية مسلحة. وقد هدفت الجمعيتان الأوليان (١٤٩٥-١٤٩٦) و(١٥٠٨-١٥١٢) إلى طرد الفرنسيين من إيطاليا، أما الثالثة المعروفة باسم «الرابطة» (١٥٧٦-١٥٩٥) فقد استهدفت الكالفنيين في فرنسا، في حين وجّهت الرابعة (١٥٦٩-١٥٧١)، (١٦٦٤-١٦٩٩) ضد الأتراك. (م)

الفصل الرابع

هل التسامح خطر؟ ولدى أي شعوب يسمح به؟

قد يقول قائل إننا لو أبدينا عن حِلْمٍ أبوي إزاء إخواننا الضالين الذي يرفعون صلواتهم إلى الله بلغة فرنسية ركيكة، نكون قد وضعنا السلاح بين أيديهم وأشعلنا نار الفتنة من جديد في جرناك، ومونكونتور، وكوتراس، ودرو، وسان دوني، الخ[1]. وهذا ما أجهله لأني لست بنبيّ؛ بيد أني لا أرى أن من حسن الاستدلال القول: «لقد أعلن هؤلاء الناس العصيان المسلّح عندما أسأتَ إليهم: إذن فسيعلنونه، من جديد، عندما تحسن معاملتهم».

سوف أسمح لنفسي بدعوة المسكين بدقّة الحكم عندنا، والمتهيئين لشغل أعلى المناصب، إلى التمعّن في الأسئلة التالية: هل ينبغي أن نتخوف من أن يتسبب الحِلْم في نشوب فتن كالتي أحدثتها القسوة؟ هل ما حصل في ظرف بعينه محتّم أن يتجدد في ظروف مغايرة؟ هل تبقى الأزمنة، والآراء، والعادات واحدة لا تتغير؟

قد يكون الهوغونوتيون قد أُخذوا بدورهم، في أغلب الظن، بنشوة التعصب، وقد تكون أيديهم تلطخت بالدماء على غرار أيدينا؛ ولكن هل أبناء الجيل الحالي هم على مثل همجية آبائهم؟ أفلم يفعل عامل الزمن، وتقدم العقل، وانتشار الكتب الجيدة، واعتدال طبائع المجتمع، فعله لدى أولئك الذين يوجّهون مصائر تلك الشعوب؟ أفلم نلاحظ أن وجه أوروبا بأسرها تقريباً قد تغيّر خلال حقبة الخمسين عاماً المنصرمة؟

لقد تدعّم الحكم وترسّخ في كل مكان، وفي الوقت نفسه تهذّبت الأخلاق ولانت.

١- مدن فرنسية كانت مسرحاً لاقتتال شرس بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين في القرن السادس عشر. (م)

أضف إلى ذلك أن الشرطة العامة، المدعومة بجيوش كثيرة التعداد وفاعلة، لا تترك لنا مبرراً للتخوف من أن تتجدد عهود الفوضى القديمة، يوم كان فلاّحون كالفنيون يقاتلون فلاحين كثالكة جرت تعبئتهم على عجل بين موسمي البذار والحصاد.

لقد تغيّرت الأزمان، وتغيّرت معها أساليب المعالجة. فمن الحماقة بمكان أن نعمد اليوم إلى القضاء على جامعة السوربون[1] بحجة أنها تقدمت، في الماضي، بعريضة طالبت فيها بحرق عذراء أورليان[2]، أو بحجة أنها أسقطت عن الملك هنري الثالث حقّه في التربع على العرش وأنزلت به الحِرْم الكنسي، على غرار ما فعلت مع الملك العظيم هنري الرابع. ومن غير المعقول، أيضاً، أن نلاحق بقية مؤسسات المملكة لأنها ارتكبت تجاوزات في زمن الهيجان وانفلات المشاعر؛ فليس في ذلك إنصاف، بل فيه ضرب من الجنون كما لو طالبنا اليوم بتطهير مارسيليا من جميع سكانها بحجة أنهم كانوا أصيبوا بالطاعون في العام ١٧٢٠.

أفننهب روما ونحرقها كما فعلت قوات شارل الخامس[3] لأن البابا سيستوس

١- السوربون: جامعة للدراسات اللاهوتية جرى تأسيسها في العام ١٢٥٧ بغية توفير سبل التعليم للفقراء من الطلاب. وبدءاً من العام ١٥٥٤ غدت السوربون حلبة المداولات في الشؤون اللاهوتية وباتت تحسم في أمور الدين. ناصبت اليسوعيين العداء في القرن السادس عشر، وأدانت خصومهم الجانسينيين في القرن السابع عشر. وقد اضطلعت بدور محكمة كنسية وفرضت رقابتها الشديدة على الكتب والمؤلفات، ثم فقدت هذا الدور لاحقاً، وتحولت إلى جامعة تقليدية، هي اليوم جامعة باريس الأولى. (م)

٢- عذراء أورليان أو القديسة جان دارك: بطلة فرنسية (١٤١٢-١٤٣١) من أصل ريفي. اعتبرت نفسها حاملة لرسالة سماوية فهرعت إلى نجدة ملك فرنسا، شارل السابع، المكابد من الاحتلال الإنكليزي لأراضيه. حققت عدداً من الانتصارات العسكرية، ثم وقعت في أيدي الإنكليز، فحاكموها بتهمة ممارسة السحر وأحرقوها في مدينة روان الفرنسية. (م)

٣- شارل الخامس (١٥٠٠-١٥٥٨): ملك اسبانيا وصقلية، ثم إمبراطور على رأس الإمبراطورية الجرمانية المقدسة؛ طمح في السيطرة على أوروبا، وخاض حرب الثلاثين عاماً ضد ملك فرنسا، فرنسوا الأول. (م)

الخامس[1] كان أقدم في العام ١٥٨٥ على منح تسع سنوات من الغفران[2] لجميع الفرنسيين الذين يشهرون السلاح في وجه ملكهم؟ أفليس من الأفضل أن نحول دون أن ترتكب روما، من جديد، مثل تلك التجاوزات؟

إن العنف المسعور الذي يدفع إليه العقل اللاهوتي المغلق، والغلوّ في الدين المسيحي المُساء فهمه، قد تسببا في سفك الدماء وفي إنزال الكوارث بألمانيا، وبإنكلترا، بل حتى بهولندا، بقدر لا يقل عمّا حدث في فرنسا. ولكن على عكس واقع الحال في فرنسا، فإن تباين الأديان ما عاد اليوم يتأدى إلى حدوث اضطرابات وقلاقل في تلك الأقطار. فاليهودي، والكاثوليكي، والأرثوذكسي، واللوثري، والكالفني، وداعي تجديد المعمودية، والسوسيني[3]، والمينوني[4]، والموراڤي[5]، وسواهم، غدوا يعيشون بتآخٍ في تلك الأقطار، ويساهمون على قدم من المساواة في خدمة مجتمعهم.

ما عاد الناس في هولندا يخشون أن يؤدي السجال حول القَدَر، كمثل ذاك الذي

١- سيستوس الخامس (١٥٢٠-١٥٩٠): بابا روما من ١٥٨٥ إلى ١٥٩٠، أجرى إصلاحات تمشياً مع مقررات مجمع ترنتو الكنسي، وتدخّل في الصراعات الدينية في فرنسا إبان صعود الملك هنري الرابع إلى الحكم. (م)

٢- الغفران: إعفاء من الإقامة في المطهر لفترة زمنية محدودة، يمنحه البابا لمن يسدي خدمة للكنيسة. وقد تكون هذه الخدمة على شكل تبرع بالمال، كما هي الحال مع «صكوك الغفران» التي كان الاتجار بها السبب المباشر لحركة الإصلاح الديني التي قادها لوثر. (م)

٣- السوسينيون: اسم يُطلق على الهراطقة الذين اتبّعوا تعاليم ليليو سوسيني (١٥٢٥-١٥٦٢) وفاوستو سوسيني (١٥٣٩-١٦٠٤)، فأنكروا ألوهية المسيح وعارضوا كل عقيدة لاهوتية تتنافى ومبادئ العقل، وقالوا بالتسامح والمحبة. (م)

٤- المينونيون: فرقة دينية سويسرية الأصل تفرّعت عن حركة الإصلاح البروتستانتي، وانتشرت في هولندا وألمانيا حول شخص مرشدها مينو سيمونز، الكاهن الكاثوليكي الذي هجر الكنيسة الرومانية رافضاً مذهبها اللاعقلاني في الأسرار ومَسْلكها في الاضطهاد. ويُعتبر المينونيون بالإجمال رواداً لمبدأ العلمانية. (م)

٥- الموراڤيّون: فرقة بروتستانتية رأت النور في موراڤيا بعد إعدام المصلح التشيكي يان هوس سنة ١٤١٥ حرقاً. طالبت بحرية التبشير وعارضت غنى رجال الدين وتعصّب الكنيسة، وطالبت بالعودة إلى تآخي مسيحيي الأزمنة الأولى. (م)

خاض فيه غومار[1]، إلى قطع رأس الوزير الأول. وما عاد الناس في لندن يتخوفون من أن تؤدي المناظرات بين الكالفنيين[2] والأنغليكانيين[3] حول طقس من الطقوس الدينية أو لباس القس ساعة الصلاة إلى سفك دم ملك على منصة الإعدام[4]. أما

١- فرنسوا غومار: كان فرنسوا غومار لاهوتياً بروتستانتياً، وقد زعم، في سجال له مع زميله أرمينيوس، أن الله قضى، منذ الأبد، بأن يكون مصير غالبية البشر العذاب في النار إلى أبد الآبدين. وكما كان متوقعاً، دَعَمَ الاضطهاديون هذه العقيدة الجهنمية؛ فالوزير الأول الهولندي بارنغلدت، الذي كان يعارض غومار، أُعدم في ١٣ أيار/مايو ١٦١٩ بقطع رأسه وهو يناهز الثانية والسبعين؛ وكانت التهمة التي أُخذت عليه أنه «قد أحزن وأغمّ إلى أبعد الحدود كنيسة الله». (م)

٢- الكالفنيون: أنصار المصلح الفرنسي جان كالفن (١٥٠٩-١٥٦٤) الذي اضطر إلى الهجرة من فرنسا والاستقرار في مدينة جنيف السويسرية حيث أقام دولة تسيّرها مبادئ الإنجيل. (م)

٣- الأنغليكانيون: أتباع الكنيسة الرسمية لإنكلترا منذ انشقاقها عن كنيسة روما، إثر خلاف الملك هنري الثامن مع البابا بسبب رفض هذا الأخير منحه إذناً بالطلاق من زوجته الأولى. (م)

٤- في معرض الدفاع عن إلغاء مرسوم نانت يقول أحد المؤلفين المتفذلكين منددا بإنكلترا: «كان من المحتم أن تُنتِج ديانة كاذبة مثل هذه الثمار؛ وقد بقيت ثمرة واحدة كانت لا تزال قيد النضوج فقطعها سكان الجزيرة أولئك؛ إنهم محتقَرون من كل الأمم». ولا بد من القول إن المؤلِّف لم يختر الوقت المناسب للادعاء بأن الإنكليز جديرون بالاحتقار ومحتقَرون في جميع أرجاء المعمورة. فمن غير اللائق، في رأيي، القول عن أمة إنها جديرة بالاحتقار ومحتقَرة في الوقت الذي تشهد عن نفسها بشجاعتها ومروءتها وتحرز الانتصارات في شتى أصقاع الأرض. لقد ورد ذلك المقطع المفرط في شذوذه في فصل عن عدم التسامح؛ والحال أن الذين يدعون إلى عدم التسامح لا يليق بهم إلا مثل هذا الأسلوب في الكتابة. إن هذا الكتاب القبيح، الذي يبدو وكأنه كُتِب بقلم مجنون فربوري* قد صدر عن إنسان لا رسالة له: فأي قس كان سيكتب مثله؟ وقد غلا كاتبه في الجنون إلى حد تبرير مجزرة القديس بارتليمي. وقد يخال المرء أن كتاباً كهذا، محشوا بمثل ذلك القدر من المفارقات البشعة، قمين بأن يكون واسع التداول بسبب غرابته وشذوذه على الأقل؛ والحال أنه لا يكاد يعرفه أحد.

إرلندا، التي اغتنت وتضاعف عدد سكانها، فما عادت ترى مواطنيها الكثالكة يَذبحون باسم الله، وعلى مدى شهرين، مواطنيها البروتستانتيين، وما عادت تراهم يدفنونهم أحياء، ويعلّقون الأمّهات على المشانق، ويوثقون البنات إلى أعناق أمهاتهن ويتفرجون عليهن يلفظن أنفاسهن معاً. ما عادت إرلندا ترى مواطنيها الكثالكة يبقرون بطون نساء حبالى ويستخرجون منها الأجنّة ليرموا بها إلى الخنازير والكلاب لتأكلها؛ أو يضعون خنجراً في أيدي أسراهم المقيّدين ثم يوجّهون أذرعهم إلى نحور نسائهم أو آبائهم أو أمهاتهم أو بناتهم، ويتهمونهم، بعد ذلك، بالقتل فيعدمونهم. هذا ما رواه رابان - تواراس، وهو ضابط من إرلندا يكاد يكون معاصراً لنا؛ وهذا ما ورد في حوليات إنكلترا وكُتُب تاريخها قاطبة؛ وهذا ما لن يتكرر أبداً في أغلب الظن. فالفلسفة وحدها - شقيقة الدين تلك - كانت كافية لنزع السلاح من أيدٍ طالما تلطّخت بالدماء بفعل المعتقدات الباطلة؛ والعقل البشري، إذ صحا من غيبوبته، أخذه الذهول إزاء ضروب القسوة وأشكال العنف التي دفعه التعصب الديني إليها.

ونحن أنفسنا توجد لدينا، في فرنسا، مقاطعة غنية، الغلبةُ فيها للوثرية[1] لا للكاثوليكية. وجامعة الألزاس هي اليوم بين أيدي اللوثريين الذين يشغلون، علاوة على ذلك، عدداً هاماً من المناصب البلدية: مع ذلك لم يعكّر أي نزاع ديني صفو هذه المقاطعة منذ أن أصبحت جزءاً من مملكتنا. لماذا؟ لأن ما من شخص فيها تعرّض للاضطهاد. فإذا ما تفادينا جَرح القلوب، تعاطفت جميع القلوب معنا.

أنا لا أدعي أن الذين لا يشاركون العاهل دينه يفترض بهم جميعاً أن يتقاسموا المناصب والامتيازات مع أتباع الدين السائد. ففي إنكلترا تحرّم الوظائف الحكومية

---

* يندد ڤولتير في أكثر من موضع من كتاباته بمن يسميه «مجنون فربوري» بدون أن يكشف عن هويته قط. والحال أن المقصود هو جاك رانكيه، الكاهن في إحدى أبرشيات مدينة كامبريه. وقد حُكم عليه بالموت وأُعدم في كانون الأول/ديسمبر ١٧٦٢ عن عمر يناهز الخمسين. وكان من اليسوعيين، أو هكذا قدَّم نفسه للرهبان الماتوريين في بلدة فربوري. كان به مَسّ من الجنون وادّعى أن له ضلعاً في محاولة اغتيال الملك لويس الخامس عشر في قصر ڤرساي. (م)

١- اسم يطلق على مذهب المصلح الكنسي الألماني مارتن لوثر، وعلى مجمل الكنائس البروتستانتية التي تدين بهذا المذهب. (م)

على الكثالكة الذين يُعتبرون منضوين تحت راية المطالِب العرش[1]. بل إنهم يدفعون الضريبة مضاعفة. ولكن فيما عدا ذلك فإنهم يتمتعون بحقوق المواطنين كافة.

لقد حامت شكوك حول بعض الأساقفة الفرنسيين ممن قيل إنهم يرون أن وجود كالفنيين في أبرشياتهم لا يشرّفهم ولا يخدم مصلحتهم. وقد اُعتبر موقفهم هذا عقبة كأداء في وجه التسامح. ولا يسعني أن أصدّق ذلك. فهيئة الأساقفة في فرنسا تضم أشخاصاً رفيعي المنزلة، يفكرون ويتصرفون بنبل جدير بأصالة منشئهم. وكلمة حق تقال: إنهم خيّرون وكرماء، وأغلب الظن أنهم يحاكمون الأمور على الوجه التالي: إنهم يعتقدون أنه لو لاذ رعايا أبرشياتهم من الكالفنيين بالفرار واستقرّوا في بلدان أجنبية لما اعتنقوا المذهب الكاثوليكي؛ في حين أنهم لو عادوا إلى رعاتهم لاستناروا بتعاليمهم ولتأثّروا بمثالهم؛ وسيكون من دواعي الشرف والفخر في هذه الحال هديهم إلى الكاثوليكية، علاوة على ما في ذلك من فائدة من المنظور الزمني: فبقدر ما يرتفع عدد المواطنين يزداد ريع أراضي الأساقفة.

كان في أبرشية أحد أساقفة مدينة ڤارمي، في بولونيا، مُزارع من دعاة مجدِّدي المعمودية وجابٍ سوسيني. وقد اقترح عليه بعضهم أن يطردهما كليهما ويرفع أمرهما إلى القضاء: الأول لأنه لم يعمِّد ابنه إلا بعد بلوغه الخامسة عشرة، والثاني لأنه لا يؤمن بعقيدة التشارك في الجوهر[2]. وقد أجاب الأسقف بأن الاثنين سيُحكم عليهما بالعذاب الأبدي في الآخرة، أما في هذه الدنيا فثمة حاجة به إليهما.

لنخرج على أي حال من دائرتنا الضيقة ولنتأمل في ما يجري في بقية أرجاء المعمورة. فالسلطان الأعظم[3] يحكم بسلام ووئام عشرين شعباً ينتمون إلى ديانات مختلفة؛ فهنالك نحو من مئتي ألف يوناني يعيشون بأمان في القسطنطينية؛ والمفتي، بشخصه، هو من يسمِّي بطريرك طائفة الروم ويقدّمه إلى السلطان. وقد سُمح أيضاً

١- الإشارة هنا إلى جاك إدوارد ستيوارت، ابن ملك انكلترا جاك الثاني الذي اعتنق الكاثوليكية فثار عليه رعاياه عام ١٦٨٨، فاضطر إلى اللجوء لفرنسا. (م)

٢- التشارك في الجوهر: عقيدة كاثوليكية تقول بأن الأقانيم الثلاثة للإله الواحد متشاركة في الجوهر. (م)

٣- الاسم الذي كان يُطلق في أوروبا على السلطان العثماني في الأستانة. (م)

لطائفة اللاتين بأن يكون لها بطريرك. ويتولى السلطان بنفسه تسمية الأساقفة اللاتين لبعض جزر اليونان[١]، ويستخدم، للمناسبة، العبارة التالية: «آمره بأن يقيم بصفة أسقف في جزيرة خيوس وفقاً لعاداتهم القديمة وطقوسهم الباطلة». إن الإمبراطورية العثمانية تحتضن أعداداً كبيرة من اليعاقبة[٢] والنساطرة[٣] والقائلين بالإرادة الواحدة[٤]. وهي تضم أيضاً أقباطاً، ونصارى من أتباع القديس يوحنا[٥]، ويهوداً، وزرادشتيين، وبراهمانيين. وبالرغم من هذا المزيج، لا تشير الحوليات التركية إلى أي فتنة حَرّض عليها دين من تلك الأديان.

ولو يمّمنا شطر الهند أو بلاد فارس أو أرض التتار، للمسنا التسامح عينه والطمأنينة عينها. ولم يتردد بطرس الأكبر[٦] في محاباة الديانات كافة في إمبراطوريته الشاسعة، وقد ازدهرت التجارة والزراعة بفضل هذه السياسة التي لم ترتد سلباً على الجسم السياسي للأمة الروسية.

إن حكام الصين، المعروف تاريخهم منذ أكثر من أربعة آلاف عام، لم يعتنقوا إلا

١- انظر ريكوت [يحيل ڤولتير قارئه هنا إلى كتاب بول ريكوت: **تاريخ الكنيسة اليونانية والكنيسة الأرمنية** المترجَم عن الإنكليزية (م)].

٢- اليعاقبة: اسم يطلق على المسيحيين الأرثوذكسيين المنتمين إلى الكنيسة السريانية والقائلين بوحدة الطبيعة في شخص المسيح. (م)

٣- النساطرة: أتباع نسطور، بطريرك القسطنطينية (٣٨٠-٤٥١) الذي عزله مجمع أفسس المسكوني عام ٤٣١ لأنه رفض إطلاق لقب «أم الله» على العذراء مريم، انطلاقاً من التمييز في شخص المسيح بين طبيعتين: إلهية وبشرية، ومؤكداً بالتالي أن مريم هي أم المسيح وليست أم الله. (م)

٤- عقيدة الإرادة الواحدة: هرطقة رأت النور في القرن السابع الميلادي، وحاولت التوفيق بين أنصار الطبيعتين والطبيعة الواحدة، فقالت بأن للمسيح طبيعتين، ولكن له إرادة واحدة، وهي الإرادة الإلهية. وقد أدانها مجمع القسطنطينية الثالث عام ٦٨١. (م)

٥- يوحنا المعمدان: متصوّف فلسطيني بَشّر بقرب مجيء ملكوت السموات، وعَمَّد المسيح في نهر الأردن. قُطع رأسه عام ٢٨ م بناء على طلب سلّومة ابنة هيروديا. (م)

٦- بطرس الأول الملقب بالأكبر (١٦٧٢-١٧٢٥): قيصر روسيا ثم إمبراطورها، اشتهر بفتوحاته وإصلاحاته. (م)

ديناً واحداً هو دين النوحيين[١]، القائم على العبادة الخالصة للإله الواحد. لكنهم كانوا يغضون الطرف، مع ذلك، عن خرافات البوذية وطوابير رهبانها الذين كانوا سيشكّلون مصدر خطر لو لم تضبطهم وتردعهم حكمة القضاة.

صحيح أن الإمبراطور العظيم يونغ - تشينغ[٢]، وهو أكثر أباطرة الصين حكمة وشهامة، قد طرد اليسوعيين من بلاده، غير أنه لم يقدم على هذه الخطوة لأنه كان غير متسامح، بل لأن اليسوعيين هم الذين كانوا غير متسامحين. لقد أوردوا بأنفسهم في «**الرسائل الغرائبية**»[٣] ما قاله لهم ذلك العاهل الطيب: «أنا أعلم تماماً أن دينكم لا يعرف التسامح؛ كما أني أعلم تماماً ما فعلتموه في مانيلاّ وفي اليابان؛ لقد تمكنتم من التغرير بوالدي، لكن لا تحلَموا بخداعي أنا». لو قرأنا مجمل الخطاب الذي تنازل فوجّهه إليهم لأدركنا أنه كان من أعقل الناس وأكثرهم حِلْماً. فهل كان عليه أن يستقبل في بلاده علماء فيزياء قدموا من أوروبا، وتذرعوا بعرض ميازين حرارة وكرات هارون الإسكندراني[٤] على أهل البلاط، كي يحثوا أميراً من الأسرة المالكة على التمرد؟ وماذا كان سيقول هذا الإمبراطور لو قرأ كُتب تاريخنا، لو عايش عهد الرابطة الكاثوليكية ومؤامرة البارود؟[٥].

١- النوحيون: نسبة إلى نوح، فرقة دينية تؤمن بكونية الدين للبشرية كافة، لأن الله طلب من نوح أن يخلّص جميع الكائنات الحية بدون تمييز، على عكس معظم الأنبياء اللاحقين الذين ما جاؤوا إلا لينقذوا أمة بعينها. (م)

٢- يونغ تشينغ: إمبراطور الصين بين ١٧٢٢ و١٧٣٥. كان ڤولتير يعدّه مثالاً للمستبد المستنير. (م)

٣- **الرسائل الغرائبية**: مجموعة ضخمة من الرسائل تقع في ٢٤ جزءاً، أرسلها من الصين والمشرق والهند وأميركا آباء يسوعيون مبشِّرون. نُشرت هذه الرسائل بين عام ١٧٠٢ و١٧٧٩ فساهمت إلى حد كبير في انفتاح أوروبا النهضة على الثقافات غير الأوروبية. (م)

٤- كرة هارون الإسكندراني: كرة معدنية تدور بخروج البخار منها، اخترعها هارون الإسكندراني في القرن الأول للميلاد. (م)

٥- مؤامرة البارود: مؤامرة فاشلة نظّمتها جماعة كاثوليكية سنة ١٦٠٥، وكانت تهدف إلى

أما كفاه أن يطّلع على ما اطّلع عليه من المشاحنات المخزية بين الآباء اليسوعيين[1]، والدومينيكانيين[2]، والكبوشيين[3]، والكهنة المدنيين الذين أُوفدوا إلى الصين من أقصى أرجاء المعمورة: لقد راحوا، وهم الذين قدِموا لنشر الحقيقة، يتبادلون التهم ويستنزلون اللعنات وضروب التكفير على بعضهم بعضاً. والإمبراطور، بطردهم، لم يفعل أكثر من إعادة مشاغبين أجانب إلى ديارهم؛ وقد حرص، مع ذلك، وبعناية أبوية، على تأمين شروط لائقة لرحيلهم، والحؤول دون تعرّضهم للإهانة في أثناء سفرهم. لقد جاء نفيهم، في الحقيقة، مثالاً على التسامح والإنسانية.

لقد كان اليابانيون أكثر الناس تسامحاً[4]: فقد تعايشت اثنتا عشر ديانة بأمان في إمبراطوريتهم. وقد جاء الآباء اليسوعيون ليضيفوا إليها ديانة جديدة، هي الديانة الثالثة عشرة. بيد أن هؤلاء سرعان ما جهروا برفض بقية الأديان، فتسبّبوا في نشوب حرب أهلية لا تقل بشاعة عن تلك التي كانت فجّرتها الرابطة الكاثوليكية؛ فعمّ الدمار والخراب، ومُحق الدين المسيحي من الوجود في حمام من الدم. وقد أغلق اليابانيون

اغتيال ملك إنكلترا الأنغليكاني جاك الأول وأسرته وقسم من الأرستقراطية الإنكليزية. وسيأتي الكلام عنها لاحقاً. (م)

١- اليسوعيون: رهبانية أسسها إغناثيوس دي لوايولا في روما سنة ١٥٤٠ سعت إلى نشر الكاثوليكية في الشرق الأقصى وفي أميركا الهندية، وخاضت حرباً لاهوتية شرسة ضد البروتستانتية، وعارضت الثورة الكوبرنيكية والتنوير، وانتصرت بتعصب للبابوية، ومارست الاضطهاد ضد خصومها قبل أن تتعرض بدورها بين الحين والآخر للاضطهاد. (م)

٢- الدومينيكانيون: رهبانية كاثوليكية أسسها دومينيكوس القشتالي (١١٧٠-١٢٢١) الذي طوّبته الكنيسة قديساً. وقد تصدى الدومينيكانيون بوجه خاص لمحاربة الهرطقة الكاتارية في مقاطعة اللانغدوك الفرنسية. (م)

٣- الكبوشيون: رهبانية كاثوليكية تأسست في القرن السادس عشر بالانشقاق عن رهبانية الإخوة الصغار الأسيزيين. وقد اشتهرت بهذا الاسم نسبة إلى غطاء الرأس (كبوشون CAPUCHON) الذي يتلفح به أفرادها. (م)

٤- انظر كمبفر وسائر الروايات عن اليابان [يحيل ڤولتير قارئه هنا إلى كتاب كمبفر وتوتبرغ: **رحلات إلى اليابان** المترجَم عن الإنكليزية والألمانية إلى الفرنسية (م)].

إمبراطوريتهم في وجه بقية العالم، وباتوا ينظرون إلينا وكأننا وحوش كاسرة، شبيهة بتلك التي قضى عليها الإنكليز وطهّروا جزيرتهم منها. وعندما أدرك الوزير كولبير [١] ما بنا من حاجة إلى اليابانيين - الذين ليسوا، هم، بحاجة إلينا - حاول عقد علاقات تجارية مع إمبراطوريتهم، ولكن عبثاً: فقد واجهوه برفض صلب لا رجوع عنه.

العالم بأسره يقطع لنا الدليل، إذاً، على أنه لا جدوى من ممارسة التعصب، ولا حتى من الدعوة إليه.

لنتّجه الآن بأنظارنا صوب النصف الآخر من الكرة الأرضية، إلى كارولينا على وجه الخصوص، تلك الدولة التي كان لوك الحكيم أول من شرّع لها [٢]. ففي كارولينا يكفي أن يتفق سبعة من أرباب الأسر على إرساء أسس ديانة جديدة حتى يُقرّها القانون ويعترف بها؛ ولم تنجم عن هذه الحرية المطلقة أي فوضى. يشهد الله أننا لم نورد هذا المثال كي نحثّ فرنسا على الاحتذاء به! فما سقناه إلا لكي نثبت أن المغالاة إلى أقصى الحدود في التسامح لم تتسبب في حدوث أدنى انشقاق أو فتنة. غير أن ما يكون مفيداً وصالحاً في مستعمرة حديثة النشأة قد لا يكون بالضرورة مناسباً ومؤاتياً في مملكة قديمة العهد.

وما عسانا نقول عن أولئك البدائيين الذين نُعتوا باسم الكويكرز [٣] على سبيل السخرية، والذين التزموا بحكم عاداتهم - حتى ولو كان فيها جانب مضحك - بالسير على درب الفضيلة وبالدعوة بلا جدوى إلى السلام والوئام بين البشر؟ في

١- جان باتيست كولبير (١٦١٩-١٦٨٣): رجل دولة فرنسي، لعب دوراً رئيسياً في توطيد دعائم السلطة المركزية. شجّع التجارة والصناعة، وحارب الفساد والرشوة، وأسّس أكاديمية العلوم (١٦٦٦) ومرصد باريس. (م)

٢- كارولينا: يوم كتب ڤولتير هذا النص عن التسامح كانت كارولينا لا تزال مستعمَرة بريطانية. وقد استقلت هذه الدولة ثم انضمّت إلى الاتحاد الأميركي لتغدو سنة ١٧٧٨ - وهي سنة وفاة ڤولتير - الولاية الثالثة عشرة من الولايات المتحدة الأميركية. (م)

٣- الكويكرز: فرقة دينية إنكليزية الأصل تُعرف باسم «جمعية الأصدقاء»، وقد انشقت عن الكنيسة الأنغليكانية الطهرانية وجَعلت من الإيمان قضية شخصية وأنكرت كل تراتبية كنسية، وعرفت أوسع انتشار لها في الولايات المتحدة الأميركية حيث الغلبة فيها للتيار الإنجيلي. (م)

بنسلڤانيا يناهز عددهم المئة ألف؛ وفي ذلك الوطن السعيد الذي شيّدوا ليس ثمة مكان للشقاق والنزاع؛ بل إن اسم مدينتهم بالذات، فيلادلفيا[١]، الذي يذكّرهم في كل لحظة بأن البشر جميعهم إخوان، هو بمثابة مثال تقتدي به الشعوب التي لم تعرف التسامح بعد، ورمز يذكّرها بعارها لأنها ما زالت تجهل هذا التسامح.

إن التسامح، في خلاصة القول، لم يتسبب قط في إثارة الفتن والحروب الأهلية، في حين أن عدم التسامح قد عمّم المذابح على وجه الأرض. فلنحكم الآن بين تينك الغريمتين، بين الأم التي تود أن يُذبح ابنها والأم التي تتخلى عنه كي يبقى على قيد الحياة[٢].

إني لا أتكلم هنا إلا عن مصلحة الأمم. ومع احترامي، كما هو مفروض بي، للاهوت، فإني لا أنشد من وراء هذه المقالة إلا خدمة مصلحة المجتمع المادية والمعنوية. وإني لأناشد كل قارئ غير منحاز أن يتمعن جيداً في هذه الحقائق، ويسعى إلى تقويمها ونشرها. فعندما يبادر قراء يقظون إلى تبادل أفكارهم وآرائهم، فإنهم يذهبون دوماً إلى أبعد مما وصل إليه المؤلِّف[٣].

١- فيلادلفيا: مدينة أميركية في ولاية بنسلڤانيا، نُحت اسمها من «دلفيا»، المدينة اليونانية التي اشتهرت بمعبدها للإله أبولون والإلهة أثينا، ومن «فيلا» التي تعني «المُحِبّة» و«الصديقة». (م)

٢- إشارة إلى القصة الواردة في التوراة حول احتكام سيدتين إلى الملك سليمان الحكيم كي يحسم في أمومتهما لطفل رضيع. ولمّا اقترح الملك أن يُقسم الرضيع إلى قسمين ويعطي كل واحدة منهما قسماً، وافقت مدّعية الأمومة على الحل، في حين رفضته الأم الحقيقية مفضلة الانفصال عن ابنها على أن تقضي على حياته. (م)

٣- يقول السيد دي لا بوردونّيه، معتمد مدينة روان، إن مصنع القبّعات في كودبيك ونوشاتل قد انهار بسبب رحيل اللاجئين. ويقول السيد فوكو، معتمد مدينة «كان»، إن التجارة قد هبطت بنسبة خمسين بالمئة في منطقته المالية. ويؤكد السيد دي موبيو، معتمد بواتييه، أن مصنع النسيج المطرّز قد تخرّب تماماً. ويشتكي السيد دي بوزون، معتمد مدينة بوردو، من شبه زوال التجارة في مدينتي كليراك ونيراك. أما السيد دي ميرومنيل، معتمد مقاطعة التورين، فيؤكد أن تجارة مدينة تور قد تراجعت بمقدار عشرة ملايين في العام الواحد؛ وكل ذلك بسبب الاضطهاد (راجع بيانات المعتمدين، عام ١٦٩٨). لنأخذ بعين الاعتبار، أيضاً وخاصة، عدد ضباط البر والبحر، وكذلك البحّارة، الذين اضطروا إلى

أن يحاربوا ضد فرنسا، وبتفوق خطير في كثير من الأحيان؛ ولنتساءل، من ثم، إن لم يكن عدم التسامح قد ألحق الضرر بالدولة.

ليس في نيتنا المجازفة بتقديم مقترحات إلى وزراء ندرك مدى عبقريتهم ومدى نبل مشاعرهم، وندرك كم تضاهي مروءتهم أصالة منشئهم؛ ولسوف يتضح لهم أن إصلاح البحرية يفترض قدراً من التسامح إزاء سكان شواطئنا*.

*كان العديد من مدن الساحل الأطلسي الفرنسي مأهولاً بالبروتستانتيين. (م)

الفصل الخامس

كيف يمكن تقبل التسامح

إني لأجرؤ على الافتراض بأن وزيراً مستنيراً وشهماً، أو أسقفاً إنسانياً وحكيماً، أو عاهلاً يدرك أن مصلحته تكمن في تعاظم عدد رعاياه، ومجده في سعادتهم، قد يتفضل بإلقاء نظرة على هذا النص المشوَّش والمشوب بالنواقص، فيضيف إليه من أفكاره النيّرة ويحاور نفسه قائلاً: ماذا يضيرني لو رأيت الأرض تُزرَع وتُزيّن بعدد أكبر من الأيدي الكادحة، والقبائل تتكاثر وتتضاعف، والدولة تعمر وتزدهر؟

إن ألمانيا ما كانت لتكون اليوم إلا صحراء بلقعاً تغطيها بقايا عظام الإنجيليين، والبروتستانتيين، والكاثوليكيين، وأتباع تجديد المعمودية الذين ذَبحوا بعضهم بعضاً تباعاً، لو لم تأت معاهدة وستفاليا في آخر الأمر لتوفر حرية المعتقد[1].

لدينا يهود في مدينتي بوردو ومتنر وفي مقاطعة الألزاس؛ ولدينا لوثريون ومولينيون[2] وجانسينيون[3]؛ فلماذا لا نتقبل الكالفنيين ونحتويهم بين ظهرانينا وفق

١- معاهدة وستفاليا: المعاهدة التي وضعت خاتمة لحرب الثلاثين عاماً ولحرب الثمانين عاماً بين البلدان الكاثوليكية والبلدان الأوروبية. وقد جرى توقيعها في ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٦٤٨. وكان من أهم بنودها الاعتراف بوجود ثلاث طوائف: الكاثوليكيين واللوثريين والكالفنيين، في الإمبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة، وإعطاء الملوك حق فرض دينهم على رعاياهم، وبالتالي إقرار مبدأ سيادة الدولة القومية كأساس للقانون الدولي، مع ما يترتب على ذلك من إلغاء لحق الأقوى في التدخل. (م)

٢- المولينيون: أنصار اليسوعي الإسباني لويز مولينا (١٥٣٥-١٦٠١) الذي أسفر تصوّره عن النعمة الإلهية إلى ولادة مذهب «الطمأنينة»، وهو مذهب صوفي يرى أن الكمال يقوم على حب الله وسكينة النفس. (م)

٣- الجانسينيون: أنصار اللاهوتي الهولندي كورنيليوس جانسينيوس (١٥٨٥-١٦٣٨) الذي ادّعى أن الخلاص مكتوب لفئة من البشر، منذ الولادة، ومضنون به على سائر الفئات. ولئن انتشرت الحركة الجانسينية في كل من هولندا وإيطاليا، فإن مركزها الرئيسي

الشروط المطبقة على الكاثوليكيين في لندن؟ فبقدر ما يزداد عدد الطوائف والنحل تخفّ خطورة كل واحدة منها على حدة؛ فالتعدد يضعفها ويقلل من شأنها، ولاسيما عندما تخضع جميعها، دونما تمييز، لقوانين عادلة تردعها؛ قوانين تحظر التجمعات الصاخبة، وتنهى عن الشتائم والفتنة، وتبقى فاعلة بكل قوة بحكم سريان مفعولها على الجميع.

نحن نعلم أن العديد من أرباب الأسر، ممن شيّدوا ثروات طائلة في بلاد الغربة، هم على أهبة الاستعداد للعودة إلى وطنهم. إنهم لا يطالبون إلا بحماية القانون الطبيعي، والاعتراف بصلاحية زواجهم، والإقرار بشرعية أولادهم، وبحقهم في وراثة آبائهم وضمان حصانتهم الشخصية. إنهم لا يدرِجون في مطالبهم لا تخصيص أماكن عامة للصلاة ولا الحق في شغل مهامّ في الدولة والارتقاء إلى المناصب الرفيعة: فالكثالكة محرومون من مثل هذه الامتيازات سواء في لندن أو في عدة أقطار أخرى. وليس المطلوب، أصلاً، منح امتيازات كبيرة ومناصب مضمونه لفئة من الفئات، وإنما إتاحة المجال أمام الشعب لينعم بالسكينة والأمان، والحد من قسوة مراسيم وقوانين كانت ضرورية في الماضي ولم تعد مبرَّرة اليوم. ليس من مهمتنا نحن أن نرسم للحكومة نهجها ونحدد لها ما يتعين عليها أن تفعله. حسبنا أن نتوسط إليها باسم أولئك المنكوبين.

ما أكثر السبل إلى الاستفادة من أولئك الناس والحؤول دون أن يكونوا مصدر خطر! إن حكمة الوزارة والمجلس، مدعومة بالقوة، قمينة بالاهتداء بيسر إلى تلك السبل التي وفّق العديد من الأمم الأخرى في سلوكها وأحرز نتائج مرضية بفضلها.

إننا لا نماري في أنه لا يزال هنالك متعصّبون في صفوف الدهماء من الكالفنيين؛ ولكن من الثابت أن عدد المتعصبين أكبر بعد في صفوف الدهماء من المختلجين[1].

يبقى في فرنسا حيث دخلت في صدام مع اليسوعيين وعَرفت رواجاً لا يستهان به بفضل الإشعاع الذي مارسه دير بور - رويال. (م)

١- جماعة مسيحية كانت تصاب باختلاجات في وجدها الديني، وكان المختلجون قد اتخذوا من مدينة سان-ميدار الفرنسية مركزاً لهم؛ وكانوا يجتمعون في مقبرتها لأداء طقوسهم الاختلاجية والتظاهر بإتيان المعجزات. (م)

ولئن قيل إن حثالة ممسوسي مدينة سان-ميدار لا تمثّل شيئاً يحسب حسابه من تعداد الأمة، فإن حثالة المتنبئين الكالفنيين قد أبيدت، بالمقابل، عن بكرة أبيها. وخير وسيلة لتخفيض عدد المهووسين، إن كان لا يزال لهم وجود، هي التخلي عن تلك الذهنية المريضة لصالح العقل الرشيد، أعني العقل الذي ينير البشر ببطء وتُؤَدَة، ولكن على نحو مؤكد لا رجعة عنه.

إن هذا العقل وديع، إنساني، يحث على الحِلْم، يخنق الفتنة في المهد، يشدّ من أزر الفضيلة، يحبِّب الانصياع للقوانين فيعززها أكثر مما تفعله القوة. ثم ألا يتعين علينا أن نأخذ في اعتبارنا كم بات التعصب والاندفاع موضع سخرية لدى شرفاء الناس؟ إن هذه السخرية تقف حاجزاً منيعاً في وجه الشطط وضروب الشذوذ التي لا مناص من أن يقع فيها كل متشيّع لشيعة. ولقد طويت صفحة الماضي كما لو أنه لم يكن قط. ولزام علينا أن ننطلق دوماً من النقطة التي وصلنا إليها، كما من تلك التي وصلت إليها سائر الأمم.

في زمن من الأزمان ساد اعتقاد لدى الهيئات المعنية بوجوب إصدار أحكام بحق الذين يدرّسون مذهباً يتعارض مع مقولات أرسطو، ومع الخوف من الفراغ، ومع الماهيات وكلّية الجزء. ولدينا في أوروبا ما ينوف عن مئة مجلّد من الاجتهادات القضائية حول السحر، وحول طرائق تمييز السحرة المشعْوِذين من السحرة الحقيقيين. وكثيراً ما كان يُنَزَل الحِرْم الكنسي بحق الجراد وغيره من الحشرات الضارة بالمحاصيل الزراعية؛ وقد بقيت هذه العادة متبعة في العديد من الطقوس. بيد أن هذه الأعراف غدت، في الإجمال، ملكاً للماضي، وقد أصبحنا ندع أرسطو وشأنه، وكذلك السحرة والجراد. إن الأمثلة عن هذه الضروب الخطيرة من العته التي كان لها شأن، وأي شأن، في الماضي أكثر من أن تحصى؛ ولئن عاود بعضها الظهور بين الحين والآخر فلفترة محدودة: فمتى أتت مفعولها، وشُفي الغليل منها، زالت وتلاشت. ولو ارتأى أحد الناس اليوم أن يكون كاربوقراطياً[1] أو أوطيخياً[2]، أو

١- الكاربوقراطيون: نسبة إلى الفيلسوف كاربوقراطس، وهو فيلسوف غنوصي من مواليد الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي. وكان الكاربوقراطيون يؤمنون بالتناسخ، ويرون أن العالم مِن خلق ملائكة ساقطين، وأن المسيح عديل لفيثاغورس وأفلاطون. (م)

٢- الأوطيخيون: نحلة من أتباع الراهب أوطيخا الذي كان يقول بالطبيعة الواحدة لشخص المسيح؛ وقد أدانه مجمع خلقيدونية عام ٤٥٥. (م)

من القائلين بالإرادة الواحدة أو بالطبيعة الواحدة[١]، أو نسطورياً أو مانوياً[٢]، فماذا سيحصل؟ إنه سيقابَل بمثل الاستهزاء الذي يقابَل به شخص ارتدى، على الطراز القديم، سترة قصيرة مشدودة على صدره تعلوها ياقة بيضاء زُيِّنت بثنيات على شكل أنابيب.

كانت الأمة قد بدأت تفتح عينيها عندما فبرك اليسوعيان لوتلييه[٣] ودوسان[٤] البراءة المعنونة أونيجنتوس[٥] UNIGENTUS وأرسلاها إلى روما. لقد توهما أنهما لا يزالان يعيشان في عصور الجهل، يوم كانت الشعوب تتبنى بلا فحص ولا تمحيص الادعاءات الأكثر مجانية للعقل. وقد تجرءا على إبطال العمل بذلك المبدأ الذي يحافظ على صحته الكلية في جميع الأحوال والأزمان، المبدأ القائل: «لا يجوز أن يحول الخوف من حِرْم كنسي عسفي دون قيام الإنسان بواجبه». وقد كان ذلك منهما بمثابة إلغاء للعقل، ولحريات الكنيسة الغاليكانية، ولأُسس الأخلاق. وكانا، بإبطالهما العمل

١- مذهب الطبيعة الواحدة أو المونوفيزيقية: مذهب لاهوتي رأى النور في القرن الخامس الميلادي في مسعى من أنصاره لحلّ التناقض في قرارات مجمع نيقيا حول طبيعة المسيح. وهي القرارات التي نصّت على أن الابن مشارك لله الأب في الجوهر. وقد رفض المونوفيزيقيون طبيعة المسيح البشرية وأكدوا على طبيعته الإلهية، بالتضاد مع النسطورية التي قالت بالطبيعتين. وقد أدين مذهبهم في مجمع خلقدونية عام ٤٥١. (م)

٢- المانوية: مذهب ثنوي يقول بصراع مبدأ الخير ومبدأ الشر، ويرفض أتباعه لذّة الجسد ويحرّمون القتل والتجديف. وتنسب إلى مؤسسها ماني، الذي له «**وصايا عشر**». وقد وجِدت في المسيحية نفسها فرقة مانوية. (م)

٣- ميشيل لوتلييه: راهب يسوعي فرنسي (١٦٤٣-١٧١٩) كان معرِّف الملك لويس الرابع عشر، وقد حرّضه على الجانسينيين، فأمر بهدم ديرهم في بور - رويال. (م)

٤- لويس دوسان: من الآباء اليسوعيين (١٦٥٢-١٧٢٦)، مؤلِّف «**تاريخ النسطورية**» و«**تاريخ الأوريجانية**». كان شديد العداء للجانسينيين، وكتب ضدهم «**مذكرة مقتضبة**». (م)

٥- أونيجنتوس: البراءة التي أعطاها البابا كليمنضوس الحادي عشر للملك لويس الرابع عشر في أيلول/سبتمبر ١٧١٣ وأدان فيها التيار الجانسيني في واحدة ومئة مسألة؛ وقد قوبلت البراءة بالاعتراض في أوساط عديدة ومِن قِبل محكمة باريس العليا. ومع ذلك فُرض تطبيقها بالقوة واعتُمدت كقانون للمملكة الفرنسية. (م)

بذلك المبدأ، كمن يقول للبشر: إن الله يأمركم بألا تنهضوا بواجبكم كلما تخوفتم من الظلم. لم يسبق قط أن طُعن الحس السليم بمثل هذه الصفاقة. بيد أن المستشارين اللاهوتيين في روما لم يتنبهوا إلى ذلك. وقد جرى إقناع الحاشية الفاتيكانية بضرورة تلك البراءة التي صوِّرت على أنها تلبي رغبة الأمة. وهكذا وقِّعت، وخُتمت، وعُمِّمت: فترتّبت عليها النتائج التي نعلم. ومن المؤكد أنه لو توقع أحد هذه النتائج لكانت البراءة عُدِّلت وخُفِّفت لهجتها: ذلك أن الخلافات والمشاحنات التي أثارتها كانت في منتهى الحدّة، ولم تهدأ وتخفت ضراوتها في خاتمة المطاف إلا بفضل حكمة الملك وطيبته.

والأمر بالمثل في معظم القضايا التي تفرّق بيننا وبين البروتستانتيين: فبعضها لا تترتب عليه عواقب تذكر، وبعضها الآخر لا يخلو من خطورة؛ غير أن الصخب والشجار اللذين نشبا من حولها خفّت حدتهما إلى درجة أن البروتستانتيين أنفسهم لم يعودوا يصرّون اليوم على الخوض في السجال في أي كنيسة من كنائسهم.

إذاً، فزمن التقزز والشبع حتى التخمة هذا، أو بالأحرى زمن التعقل هذا، قد يكون مباحاً لنا أن نتأوّله على أنه عهد استقرار عام وضمانة لهذا الاستقرار. فهوى السجال وباء دخل في مرحلته الأخيرة؛ وهذا الطاعون، الذي شفينا منه، ما عاد يحتاج إلى أكثر من حِمْيَة معتدلة. وأخيراً، إن مصلحة الدولة بالذات تقضي بأن يعود الأبناء المهجّرون إلى بيت أبيهم بدون ضجيج: المشاعر الإنسانية تطالب بذلك، والعقل ينصح به، أما السياسة فلا تجد في مثل هذه الخطوة ما يثير مخاوفها.

الفصل السادس

هل التعصب قانون طبيعي وقانون إنساني؟

إن القانون الطبيعي هو ذاك الذي ترسمه الطبيعة للبشر كافة. فمن ربّى ابنه استحق الاحترام الذي يعود إلى كل أب، والعرفان بالجميل الذي يدين به المرء لكل من أحسن إليه؛ ومَن زَرع أرضاً بيديه استحق ما تنتجه هذه الأرض؛ ومَن قَطع عهداً كان مُطالَباً بالالتزام به؛ ومَن استحصل على عهد حَقّ له أن يطالب بالوفاء به.

ولا يمكن للقانون الإنساني أن يقوم على أي أساس آخر غير هذا القانون الطبيعي؛ والمبدأ الأعظم، المبدأ العام لكل القوانين واحد في كافة أرجاء المعمورة، ويتلخص كالآتي: «لا تفعل ما لا ترغب في أن يُفعل بك». والحال أننا لا نفهم كيف يمكن لإنسان، انطلاقاً من هذا المبدأ، أن يقول لإنسان آخر: «آمن بما أؤمن به أنا، وبما لا تؤمن به أنت، وإلا كان مصيرك الهلاك». وهذا ما يقال في الواقع في البرتغال، في إسبانيا، وفي غوا[1]. أما في أقطار أخرى فقد بات يُكتفى بالقول: «آمن وإلا بغضتك؛ آمن وإلا ألحقت بك كل الأذى الذي أقدر عليه؛ وما دمت لا تؤمن بديني، أيها المسخ، فلا دين لك إذاً، ومحكوم عليك، بالتالي، أن تكون مكروهاً من جيرانك، من مدينتك، من مقاطعتك».

لو كان القانون البشري يبيح هذا السلوك لتعيّن على الياباني أن يكره الصيني، الذي يتوجب عليه بدوره أن يمقت السيامي المطالِب بملاحقة الغانغاريديين[2]،

١- انتشرت المسيحية في مقاطعة غوا في الهند بعد أن دخلها الاستعمار البرتغالي الذي استمر لغاية العام ١٩٦١. وقد عانت هذه المقاطعة من قسوة وتصلب عقلية محاكم التفتيش التي كانت أشد وطأة في إسبانيا والبرتغال منها في الأقطار الأوروبية الأخرى. (م)

٢- الغانغاريديون: شعب خيالي أحال إليه ڤولتير في عدد من مؤلفاته بوصفه شعباً نموذجياً يعيش وفق مبادئ العقل، متنزهاً عن التعصب والآراء المسبقة؛ وقد جعل موطنه الضفة الغربية من نهر الغانج في الهند. (م)

وهؤلاء سيصبّون جام غضبهم على سكان الهندوس؛ ولتعيّن، أيضاً، على المونغولي أن ينتزع من صدر أول مالاباري[1] يصادفه قلبه، وعلى المالاباري أن يذبح الفارسي، وعلى الفارسي أن يفتك بالتركي؛ ولانهال الجميع على المسيحيين الذين طالما افترسوا بعضهم بعضاً.

إن الحق في التعصب حق عبثي وهمجي إذاً؛ إنه حق النمور وإن فاقه بشاعة: فالنمور لا تمزّق بأنيابها إلا لتأكل، أما نحن فقد أفنينا بعضنا بعضاً من أجل مقاطع وردت في هذا النص أو ذاك.

١- سكان منطقة مالابار في الهند. (م)

الفصل السابع

هل عرف الإغريق التعصب؟

إن الشعوب التي أورثَتنا تاريخها بعض المعلومات قد أجمعت على اعتبار دياناتها المختلفة وكأنها عُرى تربط بينها: كانت بمثابة رابطة للجنس البشري. وقد وُجد لديها ضرب من حق الضيافة بين الآلهة على غرار حق الضيافة بين البشر. فإذا ما وصل غريب إلى مدينة طَفقَ يتعبّد لآلهة البلد. حتى آلهة الأعداء كانت تُحتَرم وتُجلّ. فالطرواديون كانوا يرفعون صلواتهم إلى الآلهة عينها التي كانت تناصر الإغريق في قتالهم.

لقد قصد الإسكندر الأكبر الصحارى الليبية لاستشارة الإله آمون، الذي أطلق عليه الإغريق اسم «زويس»، واللاتين اسم «جوبيتير»، مع أنه كان لهم «زويس» أو «جوبيتر» غيره يتعبّدون له في بلادهم. وعند محاصرة مدينة من المدن كانت الصلوات تُرفع لآلهتها وتُقدَّم لها الأضاحي، بغية نيل رضاها ومؤازرتها. حتى في أوج الحرب، إذاً، كان الدين يجمع بين البشر، ويخفف أحياناً من حدة هيجانهم، وإن أمرهم، أحياناً أخرى، باقتراف أفعال غير إنسانية، بل فظيعة.

وقد أكون على خطأ؛ ولكن يبدو لي أن ما من شعب من الشعوب القديمة المتحضّرة قد ضَيّق الخناق على حرية التفكير. كان لكل قوم دينهم؛ ولكن يتراءى لي أنهم كانوا يتعاملون مع البشر تعاملهم مع آلهتهم: فقد كانوا يُقرّون جميعاً بوجود إله أسمى، وإن كانوا يشركون به عدداً لا يحصى من آلهة أدنى منه مرتبة؛ ولم تكن لهم إلا عبادة واحدة، وإن كانوا يسمحون بطرائق تنّد عن الحصر في التعبد.

فالإغريق، على سبيل المثال، لم يعارضوا، بالرغم من تديّنهم الشديد، إنكار الأبيقوريين للعناية الإلهية ولوجود النَفْس. ولن أتكلم عن الشيع والنحل الأخرى التي كانت جميعها تخالف الفكرة القويمة التي ينبغي أن تكون للبشر عن الإله الخالق؛ ومع ذلك كانت جميع هذه الفرق مباحة أو مغضوضاً النظر عنها.

إن سقراط، الذي ارتقى إلى أعلى درجة ممكنة في معرفة الخالق، دفع ثمن ذلك، على ما قيل، ومات شهيد القول بتسامي الألوهية؛ إنه الإنسان الوحيد الذي حَكم عليه الإغريق بالموت بسبب آرائه. ولئن يكن ذلك فعلاً سبب إدانته، فهذا ما لا يشرّف التعصّب، لأن مَن انفرد بتمجيد الله قد عوقب أسوأ عقاب، بينما أُسبغت ضروب التكريم، على العكس، على كل من قدّم عن الألوهية أحطّ المفاهيم. أحرى، إذاً، بأعداء التسامح في رأيي إلا يستشهدوا بالمثال الشائن الذي أعطاه قضاة سقراط.

لا مراء، على كل حال، في أن سقراط ذهب ضحية فريق حانق، متكالب ضده: فقد كان له أعداء ألدّاء في صفوف السفسطائيين، والخطباء، والشعراء، ممن كانوا يعلّمون في المدارس، بل حتى في أوساط المربّين المكلّفين بتنشئة أبناء الأسر الراقية. وقد اعترف بنفسه، في الخطاب الذي نقله عنه أفلاطون، بأنه كان ينتقل من دار إلى أخرى ليثبت لأولئك المربّين أنهم جهلة. وبكل تأكيد، ما كان هذا السلوك يليق بمن وصفه أحد العرّافين بأنه أكثر البشر حكمة. وقد ألّب عليه خصومه كاهناً ومستشاراً في مجلس الخمسمئة[1]، فاتفقت كلمتهما على اتهامه؛ ولست أدري، في الحقيقة، بماذا اتهماه على وجه الدقة، ذلك أني لم ألمس إلا غموضاً في **دفاعه**؛ وخلاصة ما وُضع على لسانه في هذا **الدفاع**[2] أنه قد وُجّهت إليه تهمة بث آراءٍ مناهضةٍ للدين وللحكم في عقول الشباب. تهمة يلجأ إليها الوشاة والمفترون يومياً في كافة أرجاء المعمورة. والحال أنه أمام القضاء يتوجّب الارتكاز إلى وقائع جلّية وإبراز عناصر اتهام محددة ومفصّلة: وهذا ما لم نلمسه في محاكمة سقراط؛ فكل ما نعرفه أن ثمة مئتين وعشرين صوتاً جاءت لصالحه في بادئ الأمر. وهذا يعني أن مجلس الخمسمئة كان يعدّ في صفوفه مئتين وعشرين فيلسوفاً: وهذه نسبة قد يعزّ، في أغلب الظن، أن نجد ما يعادلها في أية هيئة أخرى. ولكن الغالبية انعقد قرارها، في النهاية، على الحكم عليه

١- مجلس الخمسمئة: مجلس الحكم والقضاء الأعلى في أثنيا في العهد الديموقراطي. كان يتألف من خمسمئة عضو منتخبين بالقرعة بمعدل خمسين عن كل قبيلة من قبائل أثينا العشر. وكان يُجدَّد انتخابه كل سنة، وكان يُشتَرط في المنتخَب أن يكون فوق الثلاثين ولم يسبق انتخابه. (م)

٢- **الدفاع**، أو **دفاع سقراط**: محاورة كتبها تلميذه أفلاطون وروى فيها تفاصيل محاكمته ودفاعه عن نفسه. (م)

بتجرّع السمّ الزعاف. على أنه ينبغي ألا يغيب عنّا أن أهل أثينا، عندما عادوا إلى رشدهم، كرهوا القضاة والمتهمين واستفظعوا ما أتوه، وأن ماليطس، المسؤول الأول عن هذا الحكم، قد حُكم عليه بالموت بدوره بسبب تلك المظلمة، وأن سائر الذين جاروه في موقفه نُفوا من أثينا، وأن معبداً قد شُيِّد تمجيداً لسقراط. وفي الواقع، لم يحصل قط أن حظيت الفلسفة بمثل هذا الثأر وبمثل هذا التمجيد. إن مثال سقراط هو، في النهاية، أقوى وأرهب حجة يمكن أن تُشهَر ضد التعصب. لقد كان للأثينيين هيكل مكرّس للآلهة الأجنبية، أي للآلهة التي ما كان بوسعهم أن يعلموا بوجودها. فهل من دليل أقوى من هذا الدليل لا على تسامحهم مع جميع الأمم الأخرى فحسب، بل على احترامهم لدياناتها أيضاً؟

إن شخصاً متزناً، ليس بعدوّ للعقل، ولا للأدب، ولا للنزاهة، ولا للوطن، قد عمد مؤخراً، في سياق تبريره لمجزرة عيد القديس بارتليمي، إلى الاستشهاد بحرب الفُوقيين[1] فوصفها بـ«الحرب المقدسة»، كما لو أن فتيل تلك الحرب قد أُشعل بسبب دين، أو عقيدة، أو حجج لاهوتية؛ والحال أن الحرب كانت نشبت بسبب الخلاف على مُلكية حقل: وذلك هو موضوع الحروب قاطبة. وحُزَم القمح ليست رمزاً لعقيدة من العقائد. والحق أن ما من مدينة إغريقية حاربت قط في سبيل آراء. ماذا ينشد ذلك الرجل المتواضع واللطيف في آخر الأمر؟ هل يريد أن نشن حرباً مقدسة؟

١- نسبة إلى فوقيا، وهي مدينة قديمة في آسيا الصغرى لعبت دوراً تجارياً عظيماً في القرن السابع قبل الميلاد؛ وقد مارس الفوقيون - وهناك مِن المؤرخين من يصنفهم في عداد الفينيقيين - التجارة على امتداد البحر الأبيض المتوسط، وأقاموا عدداً من المراكز التجارية لهم على الشواطئ، فأسسوا مدناً ساحلية عديدة، منها مدينة مرسيليا الفرنسية. (م)

الفصل الثامن

ماذا لو كان الرومان متسامحين؟

عند الرومان القدامى، منذ رومولوس[١] وحتى عهد دخول المسيحيين في نزاع مع كهنة الإمبراطورية، لم يتفق قط أن اُضطهد إنسان واحد بسبب آرائه. فقد شكّ شيشرون[٢]، مثلاً، في كل شيء، ولم يتردد لوقراسيوس[٣] في أن ينفي كل شيء أيضاً، ومع ذلك لم يوجه إليهما أبسط لوم. بل تمادى بلينوس الطبيعي[٤] في الجرأة فاستهل كتابه بنفي وجود الله، وبالتأكيد على وجود إله غيره هو الشمس. ويقول شيشرون في معرض كلامه عن مملكة العالم السفلي: «لن تجد غبياً واحداً يؤمن بوجودها». ويزيد

١- رومولوس: المؤسس الأسطوري لمدينة روما (٧٥٣ ق. م) وملكها الأول؛ تَعبَّد له الرومان بصفته الإله الذي يحمي مدينتهم. (م)

٢- مرقس توليوس شيشرون (١٠٦-٤٣ ق. م): سياسي وخطيب لاتيني كان من أنصار المذهب الشكّي. ولد من أسرة شعبية وارتقى بسرعة السلّم الاجتماعي؛ دخل المعترك السياسي بمهاجمة القائد ورجل الدولة الروماني سولاّ؛ أصبح بعد ذلك قنصلاً، ثم مِن مؤيدي القائد بومبيوس، قبل أن يعلن ولاءه ليوليوس قيصر. بعد اغتيال هذا الأخير أيّد أوكتافيوس في صراعه ضد مرقس أنطونيوس. نفي عن روما في ظل «الحكومة الثلاثية» الثانية ومات اغتيالاً. لم يكن سياسياً لامعاً لكنه كان خطيباً مفوّهاً، وقد سخر في كتابه «**في العرافة**» من اعتقادات الرومان الخرافية. (م)

٣- تيتوس لوقراسيوس كاروس: شاعر لاتيني ولد في روما (٩٨-٥٥ ق. م)؛ كان مقرَّباً من أبيقور، وقد اعتبر أن الخوف من الموت، الذي لا يولّد إلا الهواجس والأوهام السياسية والدينية، هو العقبة الكَؤود أمام سعادة الإنسان. (م)

٤- بلينوس الأب: طبيعي وكاتب لاتيني ولد في كومو عام ٢٣ بعد الميلاد. كان أميراً في البحرية وقضى في انفجار بركان الفيزوف في عام ٧٩. وقد صنّف «**التاريخ الطبيعي**»، وهو كتاب علمي ضخم يقع في ٣٧ مجلداً. (م)

لؤيناليس[1]: «حتى الأطفال لا ينطلي عليهم هذا المعتقد». وكانت الجوقة تنشد على مسرح روما:

«لا شيء بعد الموت
والموت، بالذات، لا شيء»[2].

لنستفظع هذه الأقوال أو لنغفرها لشعب لم تكن الأناجيل قد أنارت عقله بعد؛ ولنسلّم بأنها غالطة، ناطقة بالكفر؛ ولكن لنخلص إلى الاستنتاج بأن الرومان كانوا متسامحين إلى أبعد الحدود ما دامت تلك الأقوال لم تقابَل بأي نفور أو تذمر.

كان المبدأ الأسمى لدى مجلس الشيوخ ولدى الشعب الروماني يتلخّص كالآتي: «وحدها الآلهة معنيّة بالإهانات الموجهة إلى الآلهة». فهذا الشعب الفذّ ما كان يفكر إلا في أن يغزو العالم، ويحكمه، ويأخذ بيده إلى الحضارة. لقد كان الرومان غُزاتنا ومشرّعينا في آن معاً؛ ولم يَسْعَ قيصر[3]، الذي أعطانا القيود والقوانين والألعاب، إلى إرغامنا على التخلي عن كهنتنا[4] لصالحه رغم كونه الحبر الأعظم لأمة سيّدة علينا.

ما كان الرومان يتعبّدون بالديانات كافة، وما كانوا يخلعون الصفة الشرعية الرسمية عليها جميعها؛ بيد أنهم كانوا يسمحون بها بغير ما استثناء. وفي عهد نوما[5] لم يكن لديهم أي موضوع مادي للتعبد؛ فلا نُصُب ولا تماثيل. غير أنهم رفعوها، لاحقاً، للآلهة الكبرى الاثني عشر التي جاءهم بها الإغريق. صحيح أن قانون الألواح الاثني عشر، الذي نص على أنه لا تجوز أن تؤدّى العبادة لآلهة أجنبية، قد حصر صفة الديانة العامة بالآلهة الكبرى المعتَرف بها من قِبل مجلس الشيوخ. ولكن ذلك لم

١- لؤيناليس: شاعر لاتيني (نحو ٦٠-١٤٠م) مؤلف «**الهجائيات**»، وهو كتاب هاجم فيه عيوب عصره. (م)

٢- سينيكا: «**طروادة**»، من نشيد الجوقة في نهاية الفصل الثاني.

٣- إشارة إلى غزو يوليوس قيصر لفرنسا التي كانت تُعرف وقتئذ ببلاد الغاليين. (م)

٤- كلمة «الكهنة» في النص تشير إلى «الدرويديين» أي الكهنة الكلتيين. (م)

٥ نوما بومبيليوس (نحو ٧١٥-٦٧٢ ق. م): الملك الأسطوري الثاني لروما، يعزو إليه المأثور ت-نظيم المؤسسات الدينية في روما. (م)

يحل دون أن تحظى إيزيس بمعبد في روما، وهذا إلى عهد تيباريوس[1] الذي دمّره إثر عملية احتيال دبّرها كهنة هذا المعبد: فقد رشاهم موندوس[2] بماله فمكّنوه من أن يضاجع داخل المعبد امرأة تدعى باولينا بصفته الإله أنوبيس. صحيح أن يوسيفوس[3] قد انفرد، دون غيره، برواية هذه الحادثة؛ والحال أنه لم يكن معاصراً لها، كما أنه كان سريع التصديق لكل ما يروى له، وكان ينزع إلى المبالغة. والحق أنه يصعب علينا أن نتخيل أن سيدة من عليّة القوم في عهد تيباريوس المستنير تدلل عن مثل ذلك القدر من الغباوة بحيث تصدّق أنها تضاجع الإله أنوبيس.

ولكن سواء أكانت هذه القصة حقيقية أم ملفّقة، يبقى ثابتاً أن معبداً قد شُيّد في روما لإله مصري، وبموافقة الجميع. وفي روما، أيضاً، مارس اليهود التجارة منذ زمن الحروب البونية[4]؛ وفي عهد أوغسطس وُجدت لهم فيها كُنُس حافظو عليها، بلا انقطاع تقريباً، وهذا حتى في روما الحديثة. فهل من مثال أسطع من هذا على أن الرومان كانوا يعتبرون التسامح البند الأكثر قدسية في القانون الناظم لشؤون الأمم؟

لقد قيل لنا إن المسيحيين قد اُضطهِدوا، من اليوم الأول لظهورهم، مِن قِبل أولئك

١- تيباريوس يوليوس قيصر: إمبراطور روماني (٤٢ ق. م - ٣٧ م) خَلَف أوغسطس الذي كان قد تبنّاه. كان سياسياً بارعاً وإدارياً حكيماً؛ تخلى لمجلس الشيوخ عن بعض صلاحياته واهتم بتعزيز حدود إمبراطوريته وبتنظيم شؤون ماليتها. (م)

٢- داقيوس موندوس: فارس روماني وقع في غرام امرأة من عليّة القوم تدعى باولينا معروفة بفضيلتها ووفائها لزوجها، فاستعان بخادمتها التي كانت من عُبّاد إيزيس ورشا عن طريقها كهنة هذه الديانة لكي يجامعها في المعبد متنكراً في إهاب الإله أنوبيس. ولما اُفتضح الأمر، أمر ثيباريوس بصلب كهنة إيزيس وبهدم معبدها، واكتفى بنفي موندوس. (م)

٣- فلاڤيوس يوسيفوس (٣٧-١٠٠م): مؤرخ يهودي كتب باليونانية، وأشهر مؤلفاته **العصور القديمة اليهودية**. (م)

٤- البونيون أو الفونيقيون: هو الاسم الذي أطلقه الإغريق على أهل قرطاجة، والمقصود الفينيقيون. والحروب البونية هي تلك التي دارت بين الرومان والقرطاجيين وانتهت بهزيمة هؤلاء الأخيرين سنة ١٤٦ ق. م. (م)

الرومان الذين لم يَضطهِدوا أحداً قط. ومن الواضح، بالنسبة إلي، أن هذه دعوى عارية تماماً من الصحة؛ ودليلي على ذلك القديس بولس نفسه. إن «**أعمال الرسل**» تفيدنا[١] أن القديس يعقوب اقترح على القديس بولس، الذي اتهمه اليهود بالسعي إلى القضاء على الشريعة الموسوية باسم يسوع المسيح، أن يحلق رأسه ويعّمد إلى التَّطهر في المعبد بصحبة يهود أربعة «كي يدرك العالم بأسره أن ما يقال عنك غير صحيح وأنك لا تزال تحافظ على الشريعة الموسوية».

وهكذا عمد بولس، المسيحي، إلى أداء كافة الطقوس اليهودية على مدى أيام سبعة؛ ولكن قبل أن تنقضي تلك الأيام السبعة تعرّف عليه يهود من آسيا؛ وإذ أبصروا به يدخل إلى المعبد لا بصحبة يهود فقط بل بصحبة «أغيار»[٢] أيضاً، اعتبروا أنه انتهك قدسية المكان: فألقوا القبض عليه واقتادوه أمام الحاكم فليكس؛ ومن ثم مَثُلَ أمام محكمة فستوس[٣]. وقد أجمع اليهود على المطالبة بموته؛ فأجابهم فستوس: «ليس من عادة الرومان أن يصدروا حكماً بحق إنسان قبل أن يواجِه المتهَم متهمِيه ويُعطى حرية الدفاع عن نفسه».

إن هذه العبارة تكتسب المزيد من الأهمية بحكم كونها قد صدرت عن قاضٍ روماني لا يكنّ أي اعتبار لبولس، بل لا يشعر حياله إلا بالازدراء: فقد غررت به أنوار عقله الكاذبة فاعتبره مجنونا، بل قال عنه بالحرف الواحد إنه في حالة خبل[٤]. عندما بسط فستوس، إذاً، حمايته على مجهول ما كان يكِنّ له أي تقدير، فإنه لم يفعل سوى الامتثال لعدالة الشريعة الرومانية.

ها هو الروح القدس نفسه يعلن أن الرومان ما كانوا مضطهِدين، بل كانوا منصفين. فاليهود، لا الرومان، هم الذين تألبوا على القديس بولس. وبأمر من يهودي صدوقي[٥]، لا من روماني، رُجم القديس يعقوب، شقيق يسوع. كما أن اليهود هم

١- انظر **أعمال الرسل**، الفصلان ٢١ و٢٤.

٢- «الأغيار» أو «الغوييم» في العبرية: اسم يطلق في اليهودية على كل من ليس يهودياً، وفي المسيحية صار يطلق على الوثنين. (م)

٣- فستوس: حاكم بلاد اليهودية الروماني. (م)

٤- **أعمال الرسل**، الفصل ٢٥، الآية ١٦.

٥- أعمال الرسل، الفصل ٢٦، الآية ٢٤.

وحدهم الذين رجموا القديس إصطفان[١]؛ ولئن تولى القديس بولس الحفاظ على معاطف المنفِّذين فإنه، بكل تأكيد، ما تصرّف كمواطن روماني.

لم يكن المسيحيون الأوائل، في أغلب الظن، على خصام مع الرومان؛ ولم يكن لهم من أعداء سوى اليهود الذين بدؤوا ينفصلون عنهم. فما من حقد يضاهي ذاك الذي يكنّه المتشيّعون للذين يتخلّون عن شيعتهم. لا ريب في أن البلبلة عمّت في كُنُس روما؛ وعن ذلك تحدث سويتونيوس[٢] في كتابه «**حياة كلاوديوس**» (الفصل الخامس والعشرون)، فقال إنه «قد طُرد من روما اليهود الذين كانوا يشقّون عصا الطاعة باستمرار بتحريض من شخص يدعى المسيح»[٣].

والحال أنه أخطأ عندما عزا تلك البلبلة إلى تحريض من المسيح: والحق أنه كان يتعذر عليه أن يطلّع على دقائق حياة شعب تحتقره روما كالشعب اليهودي؛ بيد أنه لم يخطئ، بالمقابل، بصدد سبب ذلك الشجار. فسويتونيوس كتب في عهد هدريانوس[٤]، في القرن الثاني للميلاد، أي في زمن لم يكن الرومان يميزون فيه

١- مع أن اليهود كانوا حُرموا من حق تحكيم السيف منذ أن أُبعد أرخيلاوس* إلى بلاد الألوبروجيين**، ومنذ أن باتت بلاد اليهودية تُحكم كولاية من ولايات الإمبراطورية، فإن الرومان كثيراً ما كانوا يغضّون الطرف عندما يطبّق اليهود حكم التجديف؛ أي عندما كانوا يبادرون، في الفتن المباغتة، ومن باب الحَمِيّة للدين، إلى رجم من يعتقدون أنه قد جدّف.

* أرخيلاوس: حاكم اليهودية والسامرة من ٤ ق. م إلى ٦ ب. م. حكم عليه أوغسطس بالنفي بسبب سوء إدارته. (م)

** الألوبروجيون: قوم من بلاد الغال كانوا يقطنون في المقاطعتين الفرنسيتين الحاليتين: الدوفينيه والسافوا (م).

٢- سويتونيوس: مؤرخ لاتيني ولد في أوستيا أو في هيبونا في الجزائر (نحو ٦٩-١٢٥ م) ومؤلف «**سِيَر القياصرة الاثني عشر**». (م)

٣- باللاتينية في النص. (م)

٤- هدريانوس (٧٦-١٣٨م): إمبراطور روماني عظيم شجع الآداب والفلسفة والفنون، وأصلح إدارة الإمبراطورية، وعمل على توحيد تشريعاتها وتعزيز حدودها ضد هجمات القبائل الهمجية عن طريق بناء تحصينات. هادن الفرس وقمع بشدة الثورة اليهودية التي

المسيحيين من اليهود. والمقطع الذي استشهدنا به من كتاب سويتونيوس يُظهر بوضوح أن الرومان لم يضطهدوا المسيحيين الأوائل، بل على العكس، قمعوا اليهود الذين كانوا يضطهدونهم. وقد أرادوا أن يدلّل كنيس روما، إزاء الأشقاء المنشقّين، عن التسامح عينه الذي دلّل عليه مجلس الشيوخ إزاءهم. وبالفعل، سرعان ما عاد اليهود المطرودون إلى روما، بل ارتقوا إلى أعلى المناصب، رغم القوانين التي كانت تحظّرها عليهم: إن ديون كاسيوس وأولبيانوس هما اللذان يفيداننا بذلك[1]. فهل من المعقول أن يكون أباطرة روما، الذين أغدقوا على اليهود بالمناصب والرتب بعد دمار القدس، قد اضطهَدوا المسيحيين الذين كانوا يعتبرونهم نحلة يهودية، وألقوا بهم للجلادين وللوحوش الكاسرة؟

قد يقال إن نيرون اضطهدهم؛ وبالفعل يفيدنا تاقيطوس[2] أنهم أُتهموا بحريق روما وأُسلِموا إلى الشعب الحانق. هل كانت عقيدتهم هي المقصودة في هذا الاتهام؟ لا، في أغلب الظن. فهل نقول عن الصينيين، الذين نحرهم الهولنديون في ضواحي باتاڤيا[3] قبل بضعة أعوام، إنهم ذهبوا ضحية دينهم؟ مهما رغبنا في الوقوع في الخطأ فسيكون مستحيلاً علينا أن نعزو إلى التعصب الديني الكارثة التي حلّت ببعض أنصاف اليهود وأنصاف المسيحيين في عهد نيرون[4].

قادها بركوكبا (١٣٢–١٣٥م) احتجاجاً على بناء مدينة آيليا كابيتولينا مكان أورشليم، ثم حظر الختان. (م)

١- ديون كاسيوس (نحو ١٥٥–٢٣٥م): مؤرخ روماني كتب باليونانية. ودوميتيوس أولبيانوس (ت ٢٢٨م): فقيه قانوني روماني شهير، من سلالة صيداوية لبنانية، له شرح على القانون المدني الروماني في أكثر من خمسين مجلداً. (م)

٢- بوبليوس تاقيطوس (٥٥–١٢٠م): مؤرخ وفيلسوف روماني، عمل في خدمة الأباطرة وانتقدهم في آن معاً. (م)

٣- باتاڤيا: الاسم الذي كان يطلق على جاكرتا في زمن الاستعمار الهولندي. (م)

٤- يقول تاقيطوس (**الحوليات**، الفصل ١٥، ص٤٤): «من الصعب أن يكون اسم «المسيحي» معروفاً في روما حينذاك». وبما أن تاقيطوس كتب في عهد فسباسيانوس ودوميتيانوس [حَكَما بين ٦٩ و٩٦م. (م)]، لذلك تكلم عن المسيحيين كما كان الناس يتكلمون عنهم في عصره. وقد أتجرأ على القول إن العبارة التي استخدمها Odio humani generis ←

convicti قد تعني، بحسب أسلوب تاقيطوس، «كانوا على اقتناع بأن الجنس البشري يكرههم»، كما قد تعني «كانوا على اقتناع بأنهم يكرهون الجنس البشري».

فماذا كان يفعل أولئك المبشرون الأوائل في روما؟ كانوا يسعون إلى كسب بعض النفوس، إلى تعليمها الأخلاق الأكثر نقاوة؛ وما كانوا يعارضون أي سلطة، بل كانوا متواضعين أشد التواضع في قلوبهم، كما في أوضاعهم وأقوالهم. ما كان يعرفهم أحد تقريباً ولا كانوا يتميّزون عن بقية اليهود: فكيف كان يتأتى للجنس البشري أن يكرههم وهو يجهلهم؟ وكيف كان يتأتى لهم، بدورهم، أن يداخلهم الاقتناع بأنهم يكرهون الجنس البشري؟

عندما احترقت لندن، وُجّه أصبع الاتهام إلى الكاثوليكيين؛ بيد أن ذلك كان بعد الحروب الدينية، بعد مؤامرة البارود التي تورّط فيها العديد من الكاثوليكيين غير الجديرين بمذهبهم.

لم يكن المسيحيون الأوائل في وضع مماثل في عهد نيرون. ومن الصعوبة بمكان، في الواقع، سبر ظلمات التاريخ؛ وتاقيطوس لا يقدم لنا أي سبب للاشتباه بأن نيرون هو من شاء أن يحوّل روما إلى رماد. والحال أن الاشتباه بدور محتمل اضطلع به الملك شارل الثاني في حريق لندن يبقى وارداً أكثر: فدماء والده الملك، الذي أُعدم في الساحة العامة على مرأى من أعين الشعب المطالِب بموته، كانت قمينة بأن تمنحه عذراً؛ أما نيرون فلم يكن له عذر، ولا حجة، ولا مصلحة. إن مثل تلك الإشاعات اللامعقولة قد تجد من يروّج لها في أوساط الشعب في أي قطر من الأقطار: وقد بلغَنا، في أيامنا هذه، إشاعات لا تقل عبثية وبعداً عن الحقيقة.

إن تاقيطوس، الذي كان خبيراً بطبائع الملوك، كان مطّلعاً ولا بد على طبائع الشعب، المعتدّ بنفسه دوماً، والمُبالِغ دوماً في آرائه الحادّة والمتقلبة، والعاجز عن رؤية أي شيء، والقادر على قول كل شيء، وعلى الإيمان بأي شيء، ونسيان كل شيء.

يقول فيلون [الإسكندري (م)] في **رسالة في الفضائل والتشريع إلى كايوس**: «كان سيانوس قد اضطهدهم في عهد تيباريوس، ولكن بعد وفاة سيانوس أعاد الإمبراطور إليهم جميع حقوقهم». لقد كان لهم، إذاً، حقوق المواطنين الرومان، رغم ازدراء هؤلاء المواطنين بهم؛ كانوا يستفيدون من توزيع القمح، وعندما كان يصادف هذا التوزيع يوم سبت كانوا يتسلمون حصتهم في يوم آخر. ربما حظوا بهذه المعاملة لقاء مبالغ المال التي سددوها للدولة، إذ أنهم عمدوا في سائر الأقطار إلى شراء التسامح، ثم عوّضوا أنفسهم، بسرعة، عما كلّفهم ذلك.

إن هذا المقطع من رسالة فيلون يفسّر تماماً مقطع تاقيطوس الذي جاء فيه أن أربعة آلاف يهودي أو مصري أُرسلوا إلى سردينيا، وأن الخسارة لن تكون فادحة فيما لو هلكوا بسبب سوء المناخ (**الحوليات**، الفصل الثاني، ص٨٥).

سأضيف إلى هذه الملاحظة أن فيلون كان يعتبر تيباريوس عاهلاً حكيماً وعادلاً. أما أنا فاعتقد أنه ما كان عادلاً إلا بقدر ما كان هذا العدل يتمشّى مع مصالحه؛ مع ذلك، إن كلام فيلون الإيجابي عنه يجعلني أشك بعض الشك في صحة الفظاعات التي أخذها عليه تاقيطوس وسويتونيوس. وفي الواقع يصعب عليّ أن أتصور أن شيخاً عاجزاً في السبعين من العمر اختلى في جزيرة كابري بهدف ممارسة وجوه من الفسق بالغة الشذوذ، بله شبه مخالفة للطبيعة، ومجهولة حتى من قبل شبيبة روما المنفلتة من كل قيد في طلبها للملذّات الجنسية. لا تاقيطوس ولا سويتونيوس عرفا هذا الإمبراطور؛ كل ما هنالك أنه طاب لهما أن يسجلا كتابة شائعات شفهية شعبية. لقد مُقت أوكتاڤيوس وتيباريوس وخلفاؤهما لأنهم بسطوا سلطانهم على شعب يُفترض فيه أن يكون حراً؛ وقد وجد المؤرخون متعة في النيل منهم؛ وكان الناس يصدّقون المؤرخين مهما قالوا لانعدام وجود مذكرات، وصحف، ووثائق. لم يكن المؤرخون يستشهدون بأحد، لذلك كان من المتعذر أن يعارضهم أحد. كانوا يتهجمون على من شاؤوا، ويتحكّمون، وفق أهوائهم، بأحكام الأجيال اللاحقة. وللقارئ الحكيم يعود الحكم في مدى الاحتراز الذي ينبغي أن تُقابل به مصداقية المؤرخين، ومدى الرصيد الذي ينبغي أن يعطى لوقائع عامة مشهود عليها من قِبل مؤلفين رصينين نشؤوا في أمة مستنيرة، ومدى الحدود التي ينبغي أن يضعها لتصديقه لحكايات يوردها هؤلاء المؤلفون أنفسهم من دون أي دليل أو إثبات.

الفصل التاسع

عن الشهداء

لقد سقط شهداء مسيحيون في وقت لاحق. من الصعب جداً أن نعرف بالتحديد أسباب إدانتهم؛ ولكني أُمنّي نفسي بالاعتقاد بأن ما من واحد من أولئك الشهداء قد قضى بسبب دينه حصراً في عهد القياصرة الأوائل: فالديانات كلها كانت مباحة؛ فلماذا، والحال هذه، يُلاحَق أناس مغمورون ويُقدَّمون إلى المحاكمة بحجة أن لهم دينهم الخاص، في حين أن بقية الأديان مسموح بها؟

إن أباطرة من أمثال تيطوس، وترايانوس، وأنطونينوس، وداقيوس، لم يكونوا همجاً: فكيف نتصور أن يكونوا حرموا المسيحيين وحدهم من حريةٍ نَعِمتْ بها المعمورة كلها؟ وهل من المعقول أن توجّه إلى أولئك المسيحيين تهمة ممارسة طقوس دينية سرية في وقت كانت مباحة فيه، بلا معارضة، طقوس إيزيس وميترا[1]، وإلهة سوريا[2]، مع أنها غريبة كلياً عن الدين الروماني؟ ثمة اعتبارات أخرى تقف، ولا بد، وراء حملات الاضطهاد؛ كما لا بد أن تكون أحقاد خاصة، مدعومة بمصلحة الدولة العليا، قد تسببت في سفك دماء المسيحيين.

فعندما رفض القديس لورنسيوس، على سبيل المثال، أن يسلّم والي روما، كورنيليوس سكولاريس، مالَ المسيحيين المؤتَمن عليه، كان من الطبيعي أن يثير رفضه غضب الوالي والقيصر: فكلاهما كان يجهل أن القديس لورانسيوس قد وزّع ذلك المال على الفقراء، مؤدياً بذلك عملاً خيرياً وفاضلاً. وقد اعتبراه، بالتالي، متمرداً وأمرا بقتله[3].

١- ميترا: إله إيراني عُبد في الهند أيضاً. انتشرت ديانته في آسيا الصغرى في العصر الهلنستي، ثم في روما في القرن الأول قبل الميلاد. (م)

٢- إشارة إلى عشتار. (م)

٣- نحن نحترم بكل تأكيد كل ما تجعله الكنيسة جديراً بالاحترام؛ ومن ثم نحن نتضرع إلى ←

لنتأمل الآن في استشهاد القديس بولياكتوس. فهل أدين بسبب دينه وحده؟ لقد قصد معبداً كانت تُرفَع فيه القرابين للآلهة لشكرها على الانتصار الذي حققه الإمبراطور داقيوس، فإذا به يقدم على شتم المضحِّين، وعلى تقويض المذابح والتماثيل وتحطيمها: أيّ بلد في العالم كان سيغفر مثل هذا الاعتداء؟ فالمسيحي الذي مزّق علناً المرسوم الصادر عن الإمبراطور ديوقليسيانوس[1]، والذي تسبب لأبناء ملّته بحملة اضطهاد واسعة خلال العامين الأخيرين من حكم هذا القيصر، لم يدلل عن تعقل في حميّته؛ وكان ينبغي أن يكون حزنه كبيراً لأنه هو من تسبب في الكارثة التي حلّت بملّته. هذه الحميّة غير المتروّية، التي تكررت أمثلتها وأدانها عدد من آباء الكنيسة بالذات، هي التي كانت، في أغلب الظن، وراء حملات الاضطهاد قاطبة.

بديهي أني لا أقارن البروتستانتيين الأوائل بالمسيحيين الأوائل: فأنا لا أضع الخطأ

الشهداء القديسين؛ ولكن ألا يحق لنا أن نشك، مع احترامنا للقديس لورانسيوس، في أن يكون القديس سيستوس قال له: **سوف تتبعني بعد أيام ثلاثة**؛ وأن يكون والي روما طلب منه، خلال هذه الفترة الزمنية الوجيزة، أن يسلّمه أموال المسيحيين؛ وأن يكون الشماس لورانسيوس قد تمكّن خلال تلك الفترة القصيرة من جمع فقراء المدينة قاطبة؛ وأن يكون قد مشى أمام الوالي ليقوده إلى حيث تَجمّع أولئك الفقراء؛ وأن يكون قد حوكم وأُخضع للتعذيب؛ وأن يكون الوالي قد طلب من أحد الحدّادين أن يصنع له مشواة كبيرة بما يكفي لشواء إنسان عليها؛ وأن كبير قضاة روما كان شاهداً على هذا الضرب الغريب من التعذيب؛ وأن القديس لورانسيوس قال وهو على المشواة: «لقد نضجت من جانب، أدرني إلى الجانب الآخر إن شئت أكلي»؟

لم يكن الرومان، في الواقع، يعتمدون المشواة وسيلةً للتعذيب، ثم كيف نفسّر ألا يكون أي مؤلف وثني قد أتى بذكر تلك الوقائع؟

١- كايوس ديوقليسيانوس (نحو ٢٤٥-٣١٣): إمبراطور روماني أشرك ماكسيميانوس في حكم الإمبراطورية الرومانية وأسند إليه الشطر الغربي منها، محتفظاً لنفسه بشطرها الشرقي. وبعدئذ، كيما يكفل للإمبراطورية سبل دفاع أفضل، أرسى أسس حكم رباعي، فجعل للإمبراطورية أربعة قياصرة. قام بحملة إصلاح واسعة شملت الإدارة والجيش والقضاء والمالية، واضطهد المسيحيين خلال عامي ٣٠٣-٣٠٤. تنازل عن الحكم في العام ٣٠٥. (م)

إلى جانب الصواب؛ لكن فاريل[1]، سلف جان كالفن، قد ارتكب في شوارع مدينة آرل الفرنسية ما كان قد صنعه بولياكتوس في أرمينيا. ففيما كان يجتاز شوارع المدينة موكبٌ يَرفع تمثالاً للقديس أنطونيوس الناسك، انقضّ فارِيل مع صَحبه على الرهبان الذين يحملون التمثال، وانهالوا عليهم ضرباً، وشتتوا صفوفهم. ثم رمى فاريل تمثال القديس أنطونيوس في النهر. وقد استأهل فاريل عقوبة الموت؛ لكنها لم تُنزل به لأنه تمكن من الهرب. ولو أنه اكتفى بأن يصيح في وجه أولئك الرهبان بأنه لا يؤمن بأن غراباً قد أتى بنصف رغيف من الخبز للقديس أنطونيوس الناسك، ولا يؤمن بأن القديس قد حاور فعلاً وحقاً سنتوراً أو ساتوراً[2]، لاستأهل تقريعاً شديداً لأنه أخلّ بالأمن؛ أما لو عمد عند المساء، وبعد ارفضاض الموكب، إلى تحليل قصة الغراب والسنتور والساتور على نحو هادئ ومتزن، لما استحقّ ملامة.

أيعقل أن يكون الرومان، الذين تقبلوا بأن يُرفع أنطونيوس السافل[3] إلى مرتبة الآلهة الصغرى، قد مزّقوا إرباً إرباً ورموا إلى الوحوش الكاسرة بكل أولئك الذين يقال لنا إنه ما كان عليهم من مأخذ سوى تعبّدهم المسالمِ لرجل صدّيق! أيعقل أن يكونوا قد طاردوا عَبَدة الإله الواحد وهم الذين اعترفوا بوجود إله أسمى[4]، إله

١- غيوم فاريل (١٤٨٩-١٥٦٥): قس فرنسي من رواد حركة الإصلاح البروتستانتي. ترأس كنيسة نوشاتل في سويسرا بدءاً من العام ١٥٣٨. (م)

٢- السنتور: في الميتولوجيا الإغريقية كائن خرافي نصفه إنسان ونصفه حصان؛ والساتور جنّي اقترنت به عبادة ديونيسيوس في الميتولوجيا الإغريقية أيضاً. (م)

٣- أنطونيوس: شاب إغريقي بالغ الجمال كانت له حظوة كبيرة عند الإمبراطور هدريانوس. (م)

٤- حسبنا أن نعود إلى فرجيليوس لنرى أن الرومان كانوا يعترفون بالإله الأسمى، سيد الكائنات السماوية قاطبة:

«يا أنت، يا من مشيئتك
الأزلية تحكم البشر والآلهة
يا أنت، يا من صواعقك ترعب الكون»

(**الإنياذة**، النشيد العاشر، البيت ١٨)

ويفصح هوراسيوس بمزيد من الجلاء:

ضابط الكلّ، سيد الآلهة الثانوية كافة، تشهد لوجوده هذه العبارة: Deus Optimus Maximus، أي «الإله الأسمى الأعظم»؟

إنه لما يعزّ التصديق به أن يكون المسيحيون في عهد الأباطرة قد أُخضعوا لما سيسمى لاحقاً باسم محاكم التفتيش، أي أن يكونوا قد استجوبوا حول معتقدهم الديني في عقر ديارهم. ذلك أن ما من جماعة قد تعرضت لشيء من هذا القبيل، لا اليهود، ولا السوريون، ولا المصريون، ولا الدرويديون[1]، ولا الشعراء، ولا الفلاسفة. الشهداء هم إذاً أولئك الذين ثاروا على الآلهة الكاذبة. أما وأنهم امتنعوا عن الإيمان بتلك الآلهة، فهذا كان مسلكاً في منتهى الحكمة والتقوى من جانبهم؛ ولكن عندما

«ليس يمكن أن يخرج منك من هو أعظم منك
ليس لشيء أن يشبهك وليس لشيء أن يكون كفؤاً لك»

(الكتاب الأول. النشيد ١٢. البيتان ١٧-١٨)

وخلال الطقوس الدينية التي كانت تتشارك فيها غالبية الرومان ما كانت التسابيح تتكلم إلا عن وحدة الله. لنعد إلى نشيد أورفيوس الرائع؛ لنقرأ رسالة ماكسيموس المادوري إلى القديس أوغسطينوس والتي يقول فيها:

«إن الأغبياء هم وحدهم مَن لا يعترفون بإله أعظم».

وقد كتب لونجينيانوس، الوثني، إلى القديس أوغسطينوس عينه يقول: «إن الله واحد، لا يقع تحت الإدراك، ولا يقبل الوصف»؛ بل حتى لاقتانسيوس، الذي لم يكن متساهلاً على الإطلاق، يعترف في الجزء الخامس من كتابه **التعاليم الإلهية** بأن «الرومان يُخضِعون الآلهة جميعاً لإله أسمى». كذلك يعترف ترتوليانوس ذاته في **دفاعه** (الفصل ٢٤) بأن الإمبراطورية برمّتها كانت تعترف بإله سيد العالم، مطلق القوة والعظمة. لنعد، بوجه الخصوص، إلى أفلاطون، أستاذ شيشرون في الفلسفة، ولنقرأ: «ليس هنالك سوى إله واحد، إياه ينبغي أن نعبد ونحب ونعمل على التشبه به بالقداسة والعدل والإنصاف». وقد ردد إبقتاتوس في قيوده ومرقس أنطونيوس على عرشه القول عينه في مواضع لا تقع تحت حصر.

١- الدرويديون: اللقب الذي كان يطلق في الحضارة الكلتية على أعضاء النخبة الدينية والاجتماعية التي كانت تجمع بين العلم والدين وتتوسط للبشر عند الآلهة. وفضلاً عن أداء الطقوس وتقديم الأضاحي، كان الدرويديون يؤدون دور المستشارين للملوك ولقادة الحرب. وقد كان لهم دور كبير في مقاومة الاحتلال الروماني والتصدي للمد المسيحي. (م)

لم يقتصروا على عبادة الله بالعقل وبالحق، وعندما أطلقوا العنان لأنفسهم ليثوروا بمنتهى العنف على الدين الموروث - أيّاً ما تكن درجته من العبث - فإننا لا نعود نجد مناصاً من الإقرار بأنهم هم المتعصبون وهم اللامتسامحون.

يعترف ترتوليانوس[1] في كتابه «**الدفاع**» (الفصل ٣٩) بأن النظرة التي كانت سائدة عن المسيحيين هي أنهم مشاغبون: وهذا اتهام مجحف بحقّهم. بيد أنه يقطع الدليل على أن تشدد القضاة ضدّهم لم يكن بسبب دينهم وحده. وهو يعترف أيضاً (الفصل ٣٥) بأن المسيحيين كانوا يرفضون تزيين أبوابهم بأغصان الغار إبان الاحتفالات التي كانت تقام ابتهاجاً بانتصارات الأباطرة؛ ولم يكن من الصعب أن يُفسَّر سلوكهم هذا، المتعمَّد والقمين باللوم، على أنه جريمة قدح بحق الذات الملكية.

إن أول حكم قضائي قاسٍ صدر بحق المسيحيين جاء في عهد دوميتيانوس؛ بيد أنه اقتصر على «عقوبة نفي لم تدم أكثر من عام واحد»: هذا ما ذكره ترتوليانوس (**الدفاع**، الفصل الخامس). أما لاقتانسيوس[2]، الذي تميز أسلوبه بالاندفاع، فقد أقرّ بأن الكنيسة نعمت بالأمن والازدهار ابتداء من عهد دوميتيانوس وحتى عهد داقيوس (الفصل الثالث). وقد انتهى عصر السلام الطويل هذا «مع إقدام داقيوس، ذلك الحيوان البغيض، على اضطهاد الكنيسة» (**الدفاع**، الفصل الرابع)[3].

١- كوانتوس ترتوليانوس: لاهوتي ومنافح لاتيني عن العقيدة المسيحية، ولد بين ١٥٥ و١٦٠م في قرطاجة ومات نحو عام ٢٣٠. كان إفريقياً من أسرة وثنية، وتلقى في قرطاجة تأهيلاً أدبياً وقانونياً معاً، واجتماع هذين العنصرين فيه هو الذي أتاح له أن يصيب الشهرة التي أصابها في ممارسة المنافحة عن العقيدة المسيحية. من أشهر مؤلفاته «**الدفاع**». (م)

٢- لوقيوس لاقتانسيوس: فيلسوف ومنافح مسيحي ولد في نوميديا، في أفريقيا الشمالية، نحو ٢٥٠م، وتوفي في تريفن بألمانيا عام ٣٣٠، في عهد قسطنطين الأول. درس البيان وأصاب شهرة حملت الإمبراطور ديوقليسيانوس على دعوته نحو عام ٢٩٠ لشغل كرسي الفصاحة اللاتينية في نيقوميديا في آسيا الصغرى، وربما اعتنق هناك النصرانية. طاولته حملة الاضطهادات التي شنّها ديوقليسيانوس، فاضطر إلى مغادرة نيقوميديا. ثم عهد إليه قسطنطين بتربية ابنه خريزيبوس. من أشهر مؤلفاته «**في صنيع الله**»، «**التعاليم الإلهية**»، «**في غضب الله**». (م)

٣- سهو من ڤولتير أو من ناشره: فهذا الشاهد عن داقيوس مأخوذ، لا من كتاب **الدفاع**

لسنا هنا في صدد مناقشة رأي العالم دودويل[1] حول ضآلة عدد الشهداء، ولكن يبقى السؤال التالي مطروحاً: لو صحّ أن الرومان اضطهدوا الدين المسيحي، ولو صحّ أن مجلس الشيوخ الروماني قد دفع بطوابير من الأبرياء إلى الموت بعد تعذيبهم على نحو غير مألوف، ولو صحّ أن الرومان رموا بالمسيحيين في الزيت المغليّ وأسلموا العذارى عاريات إلى الوحوش المفترسة في حلبات الملاعب، فكيف نفسّر أن يكونوا تركوا أساقفة روما الأوائل ينعمون بالسلم والأمان؟ إن القديس إرانيوس لا يشير إلا إلى شهيد واحد بين هؤلاء الأساقفة، هو البابا تلسفوروس الذي قضى في العام ١٣٦؛ بيد أن ما من دليل على أن تلسفوروس ذاك قد مات إعداماً. أما البابا زفيرينوس فقد تولى شؤون رعية روما على مدى ثمانية عشر عاماً، وأسلم روحه بأمان في العام ٢١٩. ولئن مثُلت أسماء البابوات قاطبة في جداول الشهداء القديمة، فذلك لأن كلمة «شهيد» ما كانت قد أخذت بعد معناها اللاحق: كانت تطلق على من **يدلي بشهادة** لا على من **يعذَّب حتى الموت**.

يصعب في الواقع التوفيق بين سعار الاضطهاد المزعوم ذاك وبين الحرية المتاحة للمسيحيين لعقد مجامع كنسية قَدّر الكتّاب الكنسيون عددها بستة وخمسين مجمعاً خلال القرون الثلاثة الأولى.

لقد وقعت حوادث اضطهاد بلا ريب؛ ولكن لو كانت بالعنف الذي وصفت به لما أسلم ترتوليانوس روحه في فراشه، وهو الذي هاجم، بحدّة ما بعدها حدّة، الديانة الموروثة. نحن نعلم تمام العلم أن الأباطرة لم يطالعوا كتابه **الدفاع**، وأن نصاً مغموراً جرى تأليفه في إفريقيا[2] ما كان له أن يصل إلى أيدي الذين تقع على عاتقهم مسؤولية حكم العالم؛ ولكن من المؤكد أن هذا النص كان معروفاً من المقرّبين من والي إفريقيا الروماني؛ ولا بد أن يكون جلب الكثير من الحقد على كاتبه الذي لم يلقَ، مع ذلك، نهايته شهيداً. كما أن أوريجانوس[3]، الذي كان يمارس تعليمه علناً

لترتوليانس، بل من كتاب لاقتانسيوس المعَنْوَن: **عن موت مضطهدي الكنيسة**. (م)

١- هنري دودويل: لاهوتي ومؤرخ إرلندي (١٦٦١-١٧١١)، أستاذ التاريخ في جامعة أوكسفورد، له عدة مؤلفات عن العصر الروماني وعن بعض القديسين. (م)

٢- إشارة إلى تونس التي كان الرومان يسمونها إفريقيا. (م)

٣- أوريجانوس: لاهوتي يوناني ولد سنة ١٨٥م في الإسكندرية وتوفي سنة ٢٥٢ أو ٢٥٣، ربما

في إسكندرية مصر، ما طالب أحد برأسه. وأوريجانوس هذا، الذي كان يخاطب بملء الحرية الوثنيين والمسيحيين معاً، مبشّراً الأوائل بالمسيح، ونافياً برسم الثانين أن يكون لله أقانيم ثلاثة، هو عينه من يعترف بصريح العبارة في كتابه الثالث ضد قلسوس[1] بأن «عدد الشهداء كان ضئيلاً للغاية في الماضي، ثم ما فتئ يتناقص»، قبل أن يضيف قوله: «إن المسيحيين، مع ذلك، لا يوفّرون وسيلة للتبشير بدينهم في شتى أرجاء العالم، لذا تراهم يطوفون بالمدن والبلدات والقرى».

من المؤكد أن هذا الحراك الدائب كان خليقاً، بمنتهى السهولة، بأن يوصف من قِبل الكهنة الأعداء بأنه ضرب من العصيان والحضّ على الفتنة. مع ذلك غُض النظر عن هذا النشاط التبشيري، وإن يكن الشعب المصري قد عُرف، على الدوام، بأنه شعب مشاغب، محب للفتن، وجبان: شعبٌ أقدم على تمزيق مواطن روماني إرباً إرباً لأنه قتل هراً؛ شعب لا يستأهل سوى الاحتقار مهما قال عنه المعجبون بالأهرامات[2].

في مدينة صُور. أنشأ في الإسكندرية مركزاً للتعليم الديني العالي، هو «الديداسكاليون» الذي كان، إن جاز التعبير، المسوّدة الأولى لما ستكونه الجامعة في القرون الوسطى. اعتُقل في عهد داقيوس وعُذّب، ولكنه لم يُقتل. وهو يُعتَبر أعظم عبقرية أنتجتها الكنيسة المسيحية باللغة اليونانية. من مؤلفاته رسالته «في المبادئ» و«السداسيات». (م)

١- قلسوس: فيلسوف أبيقوري يوناني عاش في القرن الثاني بعد الميلاد في عهد الإمبراطور ترايانوس وخلفائه، وربما كانت وفاته حوالي ١٧٨م. لا نعرف من كتاباته سوى الخطاب الحقيقي الذي تصدّى فيه، باسم العقل، لمكافحة النصرانية الوليدة. دحضه أوريجانوس في الرد على قلسوس. (م)

٢- هذا المزعم يحتاج إلى إثبات، إذ يتعين علينا أن نسلّم بأنه منذ أن ناب التاريخ مناب الخرافة والأسطورة بات يُنظر إلى المصريين على أنهم شعب لا يضاهي جبنَه سوى تطيّره. فقد استولى قمبيز على مصر بمعركة واحدة؛ وفرض الإسكندر إرادته عليها من دون أن يخوض حرباً واحدة، ومن دون أن تتجرأ مدينة واحدة على تعريض نفسها للحصار؛ واستولى عليها البطالمة بمنتهى اليسر؛ وأخضعها قيصر وأوغسطس بالسهولة عينها؛ واحتل عُمَر [عمرو بن العاص (م)] مصر برمتها في حملة واحدة؛ وبعد عُمَر أصبح المماليك، القادمون من كولخيديا [جورجيا حالياً (م)] وجوار القفقاز، سادتها؛ والمماليك، لا المصريون، هم الذين هزموا جيش القديس لويس واستاقوا هذا الملك أسيراً. ولكن عندما تَمصَّر المماليك، أي أصبحوا رخوين، جبناء، كسالى، متقلبي النزوات، على

لئن استحق أحد أن يثير ضده حقد الكهنة والحكام فهو القديس غريغوريوس صانع العجائب، تلميذ أوريجانوس. فقد شاهد غريغوريوس أثناء الليل شيخاً مُرسَلاً

غرار السكان الأصليين لتلك المنطقة، تمكّن سليم الأول من إخضاعهم في ثلاثة أشهر، ومن احتلال سودانهم، ومن ضم هذه الولاية إلى الإمبراطورية التركية ريثما يستولي عليها برابرة آخرون ذات يوم.

يروي هيرودوتس أنه في العهود الغابرة المجيدة خرج ملك مصري يدعى سيزوستريس من بلاده بهدف غزو العالم: من الواضح أن مشروعاً كهذا لا يليق إلا بأمثال بيكروكول [شخصية خيالية من أبطال رواية **غرغنتوا** للكاتب الفرنسي فرنسوا رابليه. (م)] أو دون كيشوت؛ ولمّا كان اسم سيزوستريس، علاوة على ذلك، غير مصري، حقّ لنا أن نصنّف هذا الحدث، وما سبقه من أحداث، في إطار مغامرات **ألف ليلة وليلة**. فالقاسم المشترك لدى الشعوب الخاضعة للاحتلال هو تلفيق الخرافات حول عظمتها الماضية، تماماً كما تدّعي بعض الأسر البائسة أنها تتحدّر من أصول ملكية. لقد روى كهنة مصر لهيرودوتس أن ذلك الملك، الذي سمّوه سيزوستريس، قصد كولخيديا ليستلحقها بمملكته، فما أشبه مدّعاهم بمدّعى مَن قد يروي أن ملك فرنسا غادر مقاطعة التورين ليستولي على النرويج!

حتى لو أعيدت وكُرِّرت هذه الحكايات في ألف وألف مجلد، فإنها لن تكتسب قدراً أكبر من المصداقية؛ والأقرب إلى المعقول أن يكون الكولخيديون، سكان القفقاز الأشداء والشرسون، وسواهم من السقيتيين الذين طالما غزوا وأعملوا يد الدمار في آسيا، هم الذين وصلوا حتى مصر؛ ولئن يكن كهنة كولخيديا قد حملوا إلى بلادهم بعد ذلك عادة الختان، فهذا لا ينهض دليلاً على أنهم قد أُخضعوا من قِبل المصريين. يروي ديودورس الصقلي أن جميع الملوك الذين هزمهم سيزوستريس كانوا يأتون إليه سنوياً، من أقصى ممالكهم، ليؤدوا له الجزية، وأن سيزوستريس كان يكدنهم إلى مركبته ويستخدمهم كأحصنة جرّ ليذهب إلى المعبد. إن حكايات **غرغنتوا** هذه ما فتئ الكاتبون ينسخونها بكل أمان يوماً بعد يوم. ولا ريب في أن أولئك الملوك كانوا حقاً صالحين كي يجيئوا من أقاصي الأرض ليؤدوا دور الأحصنة.

أما الأهرامات وسواها من الآثار فهي لا تقطع الدليل إلا على كبرياء ملوك مصر وفساد ذوقهم، كما على عبودية شعب غبي سخّر أذرعه، وهي كل ما كان يملك، ليرضي حب سادته للفخفخة. إن النظام الذي كان يُحكَم بموجبه هذا الشعب يبقى نظاماً غبيّاً ومُسرِفاً في الطغيان، حتى في تلك الأزمنة التي كان يكال له فيها أعظم الثناء. وقد زعم

الزاعمون أن سائر أرجاء المعمورة قد خضعت لملوك المصريين؛ فهل كان لأولئك العبيد أن يغزوا العالم!

أمّا ما يعزى إلى الكهنة المصريين من التضلع في العلم فهو، بدوره، من أسخف الخرافات المتداولة عن تاريخ العهود القديمة. فأولئك الذين كانوا يدّعون أنه خلال أحد عشر ألف سنة أشرقت الشمس مرتين من المغرب، وغربت مرتين من المشرق، وهي تعيد دورتها، هم، في أغلب الظن، أدنى مستوى بكثير في العِلم من مؤلف **التقويم الفلكي لمدينة لييج** [تقويم مشهور كان متداولاً في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان موضع إقبال العامة والنبلاء على حد سواء، وكان تنجيمياً يخلط اللغة الفلكية بالرموز الهيروغليفية ليعطي تنبؤاته ظاهراً من مصداقية (م)].

كذلك، إن دين أولئك الكهنة، الذين كانوا يحكمون الدولة، لا يحتمل المقارنة حتى بدين أكثر شعوب أميركا توحشاً: فنحن نعلم أنهم كانوا يعبدون التماسيح، والقرود، والهررة، والبصل؛ وربما لا نجد اليوم، في أنحاء الأرض كافة، ما يضاهيه بُعداً عن العقل باستثناء دين الدالاي لاما.

ولم تكن فنونهم أفضل حالاً من دينهم؛ فليس ثمة تمثال مصري قديم واحد مقبول للنظر؛ وكل ما هو جيّد عندهم صُنع في الإسكندرية، في عهد البطالمة والقياصرة، من قبل فنانين إغريقيين. ولقد احتاجوا إلى إغريقي كي يتعلموا الهندسة.

إن بوسويه الشهير يبدي عن عظيم إعجابه بالمأثرة المصرية في كتابه **خطاب حول التاريخ الكوني** الموجَّه إلى ابن الملك لويس الرابع عشر. وقد يبهر كلامه أميراً شاباً، غير أنه لن يرضي العلماء؛ فهو كخطاب في منتهى البلاغة، ولكن المؤرخ مُطالَب بأن يكون فيلسوفاً أكثر منه خطيباً. وعلى أي حال، تبقى تأملاتنا هذه حول المصريين ضرباً من التخمين: وهل من اسم آخر يمكننا إطلاقه على كل ما يقال عن العصور القديمة*؟

* قد يكون واجباً أن ننتهز هنا سانحة هذا الإقرار من جانب ڤولتير بأنه لا يتكلم عن تاريخ مصر إلا بالتخمين لنلاحظ أن تاريخ مصر والحضارة المصرية لم يكن قد عُرف بعد جيداً في عصره، بالنظر إلى أن رموز الكتابة الهيروغليفية لم تكن قد فُكَّت. ولسنا ندري على وجه التحقيق ما كانت دوافع ڤولتير إلى مثل ذلك التحامل – الذي يتنافى وشعاره في التسامح – على مصر والمصريين. وقد لا يكون شاء سوى أن يردّ على بوسويه في مديحه للحضارة المصرية، بالنظر إلى أن بوسويه كان رمزاً للكنيسة الكاثوليكية الفرنسية وللحرب الإيديولوجية واللاهوتية ضد البروتستانتيين. وأياً ما يكن من أمر،

العذراء، ولم يكن الشيخ أحداً سوى القديس يوحنا الإنجيلي. وقد أملى عليه القديس يوحنا عقيدة إيمانية فراحَ يبشّر بها. ومرّ، وهو في طريقه إلى القيصرية الجديدة، بجوار معبد تقام فيه طقوس العرافة واستشارة الآلهة، فاضطره المطر إلى أن يمضي ليلته فيه؛ وقد عمد إلى رسم علامة الصليب في عدد من المواضع منه. وفي اليوم التالي ذُهل كبير كهنة المعبد إزاء رفض الجنّ أن يتنزلوا بالوحي إليه، مع أنهم كانوا يستجيبون دوماً له في الماضي. أرسل في طلبهم فحضروا، ولكن ليبلّغوه بأن تلك هي المرّة الأخيرة التي يجيئون فيها؛ وأفادوه بأن إقامتهم في ذلك المعبد قد غدت مستحيلة بعد أن أمضى غريغوريوس ليلة فيه ورسم فيه علامات الصليب.

أمَر كبير الكهنة بالقبض على غريغوريوس الذي أجابه قائلاً: «في وسعي أن أطرد الشياطين من حيث أشاء، وأن أدخلهم إلى حيث يحلو لي». «دعهم يدخلون إلى معبدي إذاً»، أجابه العرّاف. فانتزع غريغوريوس عندها قصاصة ورق صغيرة من كتاب كان في يده وكتب عليها الكلمات التالية: «من غريغوريوس إلى الشيطان: آمرك بالدخول إلى هذا المعبد». وما إن وضعت قصاصة الورق تلك على المذبح حتى انصاع الشياطين للأمر ونطقوا بعرافاتهم في ذلك اليوم على غرار ما كانوا يفعلون في الماضي؛ ثم كفّوا عن ذلك كما هو معلوم.

إن القديس غريغوريوس النوسوي هو الذي يروي هذه الواقعة في سيرة القديس غريغوريوس صانع العجائب. وقد اغتاظ، ولا بد، كهنة الأصنام من هذا الأخير، وكان حنقهم خليقاً بدفعهم إلى المطالبة بمحاكمته: مع ذلك لم يكابد العدوّ الأول لهؤلاء الكهنة من أي ضرب من الاضطهاد.

تفيدنا قصة حياة القديس كبريانوس أنه أول أسقف من أساقفة قرطاجة حُكم عليه بالموت. وقد استشهد هذا القديس في العام ٢٥٨ للميلاد؛ وهذا يعني أن ما من أسقف في قرطاجة قد تعرّض للقتل بسبب دينه خلال ردح طويل من الزمن. والحال أن سيرة كبريانوس لا تفيدنا بطبيعة الافتراءات التي أثيرت ضده، ولا بهويّة أعدائه،

فإنه يقدّم لنا بنفسه نموذجاً من فساد الاستدلال: فهو يقول إن عُمر «احتل مصر برمتها في حملة واحدة». والحال أن جيش المسلمين بقيادة عمرو بن العاص لم يواجه في هذه الحملة المصريين، بل جيش البيزنطيين. والحال أيضاً أن البيزنطيين هم أحفاد اليونان والرومان الذين كان ڤولتير يكنّ لهم أعظم التقدير. (م)

ولا بالأسباب التي جعلت الوالي الروماني في إفريقيا يسخط عليه. كان القديس كبريانوس قد كتب إلى كورناليوس، أسقف روما، يقول: «لقد حصل مؤخراً شغب شعبي في قرطاجة وارتفعت الأصوات، لمرتين على التوالي، تطالب برميي إلى الأُسود». من غير المستبعد، إذاً، أن تكون سورة غضب القرطاجيين الشرسين هي وراء مصرع كبريانوس؛ ومن المؤكد أن ليس الإمبراطور غالوس هو من حَكم عليه من مسافة بعيدة بسبب دينه، وهو الذي لم يتعرضّ بالأذى لكورناليوس الذي كان يعيش تحت ناظريه.

لمّا كانت الأسباب الخفية تتداخل في كثير من الأحيان مع السبب المعلن، ولمّا كان العديد من الدوافع الغامضة يلعب دوره في اضطهاد إنسان من الناس، لذا يستحيل الكشف، بعد مضيّ قرون، عن المصدر الخفي للمصائب التي ألمّت بأعظم الناس شأناً، وكم بالأحرى عن السبب المجهول للتنكيل بفرد ما كان يعرفه أحد سوى أبناء طائفته.

لاحظوا معي أن القديس غريغوريوس صانع العجائب، والقديس دونيسيوس، أسقف الإسكندرية، لم يتعرضا للتعذيب وللقتل، مع أنهما كانا معاصرين للقديس كبريانوس. فلماذا نَعِما بالأمن مع أنهما لا يقلاّن شهرة عن أسقف قرطاجة؟ ولماذا جرى التنكيل بالقديس كبريانوس؟ أفليس من المحتمل أن يكون هذا الأخير قد ذهب ضحية أعداء شخصيين عظيمي الشأن، ضحية النميمة والتذرع بمصلحة الدولة العليا التي كثيراً ما تتداخل مع الدين، في حين شاء حُسن حظ الاثنين الآخرين أن يبقيا في منأى عن أذية البشر وسوء طويتهم؟

ويصعب علينا كذلك الاعتقاد بأن تهمة الانتماء إلى الدين المسيحي كانت وحدها وراء مصرع القديس أغناثيوس في عهد الإمبراطور ترايانوس الحليم والمُنصِف؛ ولاسيما أنه سمح للمسيحيين بمرافقته ومؤاساته عندما اقتيد إلى روما[1]. كان

١- نحن لا نضع البتة موضع الشك موت القديس إغناثيوس؛ ولكن ألن تثير قراءة قصة شهادته بعض التساؤلات في ذهن إنسان عاقل؟ فراوي هذه الشهادة المجهول يقول: «لقد اعتقد ترايانوس أن مجده لن يكتمل ما لم يُخضِع لسلطانه إله المسيحيين». يا لها من فكرة! فهل كان ترايانوس يطمح في الانتصار على الآلهة؟ وعندما مثل إغناثيوس أمام الإمبراطور سأله هذا الأخير: «من أنت، يا أيها الروح الدنس؟». والحال أنه من غير المحتمل أن يكون إمبراطور قد توجه بالكلام إلى سجين، وأن يكون قد حكم عليه بنفسه؛

فلم تكن تلك عادة الملوك. ولكن حتى لو افترضنا أن ترايانوس قد أرسل وراء إغناثيوس فإنه ما كان له أن يسأله: «من أنت؟»، لأنه كان يعرف من هو. ثم هل كان شخص مثل ترايانوس سيلفظ عبارة «يا أيها الروح الدنس؟». أفليس من الواضح أنها عبارة تعويذية وضعها مسيحي على لسان إمبراطور؟ فهل هذا، بحق الله، أسلوب ترايانوس؟

وهل لنا أن نتصور أن إغناثيوس أجابه بأنه يدعى تيوفوروس [حرفياً باليونانية: حامل الله، وهو اسم كان يُطلق على نوع من التماثيل يمثل رجلاً يحمل تمثال إله، وهي تماثيل كانت لها شعبية كبيرة في المعابد الرومانية. (م)]، لأنه يحمل المسيح في قلبه، وأن ترايانوس تحاور وإياه مطوّلاً حول يسوع المسيح؟ لقد وُضع على لسان ترايانوس في ختام ذلك الحوار المسهب قوله: «نأمر بأن يكون مصير إغناثيوس، الذي يتباهى بحمل المصلوب في قلبه، السجن... الخ». قد نفهم أن يلجأ سفسطائي، عدو للمسيحيين، إلى استخدام كلمة **المصلوب** في حديثه عن يسوع المسيح؛ ولكن مِن غير المحتمل أن تكون هذه الكلمة قد وردت في قرار أبرمه إمبراطور. فالإعدام صلباً كان من الشيوع عند الرومان بحيث يستحيل، نظراً إلى الأسلوب اللغوي الذي كانت تصاغ به القوانين، أن يشار بكلمة مصلوب إلى موضوع تَعبُّد المسيحيين؛ فلا القوانين كانت تنص على الحكم بمثل هذا اللفظ، ولا الأباطرة كانوا يصدِرون أحكامهم على هذا النحو.

وقد زُعم، كذلك، أن إغناثيوس وجّه، بعد صدور الحكم بحقه، رسالة مطولة إلى مسيحيي روما يقول فيها: «أكتب إليكم رغم القيود التي تأسرني». فإن يكن قد سُمح له بأن يكتب رسالة إلى مسيحيي روما فهذا يدل، بكل تأكيد، على أن أولئك المسيحيين ما كانوا ملاحقين؛ وبالتالي، لم يكن في نية ترايانوس أن يُخضِع إلههم لسلطانه. ولكن لو افترضنا مع ذلك أن المسيحيين كانوا يعانون فعلاً من آفة الاضطهاد، أفلا يكون إغناثيوس قد دلّل عن عدم تبصُّر بالغ عندما كتب إليهم؟ فهو، برسالته، يعرّضهم للخطر، يفضح هويتهم، ويكون بمثابة من يشي بهم.

كان حرياً، إذاً، بمحرري **الأعمال** أن يكونوا أكثر مراعاة لواقع الأمور ولأصول المعاملات المتواضع عليها. وقصة استشهاد القديس بوليكاربوس تثير قدراً أكبر من الشكوك بعد. فقد ورد فيها أن صوتاً صرخ من أعلى السماء: «تشجع يا بوليكاربوس»، وأن المسيحيين سمعوا هذا الصوت في حين لم يسمعه الآخرون. وقد ورد فيها، أيضاً، أنه عندما أُوثق قيد

للاضطرابات وأعمال الشغب: فربما يكون هذا الشغب قد عُزي عن سوء نية إلى المسيحيين الأبرياء فصاروا موضع شبهة في نظر السلطات بعد أن خُدعت وضُلل بها، كما يحصل في كثير من الأحيان.

فالقديس سمعان، مثلاً، اُتهم أمام شاهبور[1] بأنه جاسوس للرومان. وقد ورد في قصة استشهاده أن الإمبراطور شاهبور عرض عليه أن يعبد الشمس؛ بيد أننا نعلم تمام العلم أن الفرس ما كانوا يعبدون الشمس: فقد كانت في نظرهم رمزاً لمبدأ الخير، المتمثل بأهورامزدا الإله الخالق الذي يعترفون به.

مهما تحلى المرء بالتسامح فإنه يشقّ عليه ألا يتملّكه الغيظ وهو يسمع أولئك المبهرجِين لألفاظهم يتّهمون ديوقليسيانوس باضطهاد المسيحيين منذ اعتلائه العرش؛ ليكن مرجعنا هنا إلى أوسابيوس القيصري[2]: فشهادته غير قابلة للطعن فيها. فهذا الذي كان يحظى برعاية قسطنطين ويكتب فيه المدائح، ويضمر ألدّ العداء للأباطرة السابقين، خليق بأن يُصدَّق عندما يبرئ صفحتهم. هاكم ما قاله أوسابيوس[3]: «لقد شمل الأباطرة برعايتهم المسيحيين لفترة طويلة من الزمن،

بوليكاربوس إلى عمود، وأُوقدت نار محرقته، ابتعدت ألسنة اللهب عن جسده وشكّلت قوساً فوق رأسه ما لبث أن خرجت منها حمامة؛ وقد ورد فيها، كذلك، أن القديس، الذي لم تمّسه النار، نشر رائحة زكية عطّرت الجمع المحتشد كله. مع ذلك، فإن ذاك الذي لم تجرؤ النار على الاقتراب منه لم يقوَ على مقاومة حد السيف.

فلنقّر، إذاً، بأننا نجد أنفسنا ملزَمين بأن نغفر لأولئك الذين يتحرّون في أشباه هذه الحكايات عن التقوى أكثر منهم عن الحقيقة.

١- المقصود في النص شاهبور الثاني (٣١٠-٣٧٩)، وهو ملك ساساني لبلاد فارس، حارب الرومان واستولى على أرمينيا. بسط حمايته على المزدكية واضطهد المسيحيين. (م)

٢- أوسابيوس (حوشب) القيصري: كاتب ومنافح عن العقيدة المسيحية، وأبو «**التاريخ الكنسي**»؛ ولد بين ٢٦٠ و٢٦٥ في فلسطين، وفي الأرجح في القيصرية، ومات بين ٣٣٧ و٣٤١. ترأس أساقفة فلسطين وعُدَّ نموذجاً للأسقف المحابي للسلطان؛ ولكنه كان حُجّة كمؤرخ. من كتاباته الشرحية: «**القوانين الإنجيلية**» و«**رسائل إنجيلية وحلولها**». وله في المنافحة عن النصرانية كتاب **الرد على هياروقليس**. (م)

٣- **التاريخ الكنسي**، الجزء الثامن.

فأسندوا إليهم حكم ولايات، وسمحوا للعديد منهم بالإقامة في قصورهم؛ بل عقد بعضهم على مسيحيات. فديوقليسيانوس تزوج من بريسكا التي أصبحت ابنتها زوجة ماكسميانوس غاليريوس[1]، الخ».

لنتعلم، إذاً، من هذه الشهادة القاطعة أن نكفّ عن الافتراء والقذف اغتياباً؛ ولِنسْعَ إلى معرفة ما إذا كانت حملة الاضطهاد التي أمر بها غاليريوس، بعد تسعة عشر عاماً من حكم تميّز بالحِلْم والإحسان، لم تأت نتيجة مؤامرة أو مكيدة لا علم لنا لها؟

لنتأمل الآن في قصة فيلق طيبة، الذي أبيد عن بِكرة أبيه بسبب الدين على ما قيل، ولنبّين مدى بُعد هذه القصة عن الصحة. فمن السذاجة بمكان الافتراض بأن الفيلق الآسيوي قد استُقدِم عبر ممر القديس برنار الكبير في جبال الألب. (م)!؛ ومن غير المعقول أن يكون قد جيء به من آسيا لإخماد نار فتنة في بلاد الغاليين، بعد انقضاء عام بأكمله على قمع تلك الفتنة. ومن المستحيل أن يكون ذُبح ستة آلاف جندي من المشاة وسبعمئة فارس داخل ممر يستطيع مئتا رجل فيه أن يوقفوا تقدم جيش بكامله. إن رواية تلك المجزرة المزعومة تُستهلّ بهذه الكذبة الصارخة: «عندما كانت الأرض تئن تحت طغيان ديوقليسيانوس، كانت السماء تعمر بالشهداء». والحال أن هذه الواقعة حصلت، على ما يُزعم، في العام ٢٨٦، أي في زمن كان ديوقليسيانوس يراعي فيه المسيحيين إلى أبعد الحدود. وكانت الإمبراطورية الرومانية تنعم بالسعادة. وحسماً لكل جدل ومماحكة فلنوضح أن ذلك الفيلق لم يكن له من وجود أصلاً: فالرومان كانوا أشد اعتزازاً بأنفسهم وأكثر تعقلاً من أن يجيّشوا فيلقاً من أولئك المصريين الذين ما كانوا أكثر من عبيد في روما. فهل كان الرومان ليجيّشوا فيلقاً من اليهود؟ إننا نحوز أسماء الفيالق الاثنين والثلاثين التي كانت تتألف منها الجيوش الرسمية للإمبراطورية الرومانية؛ واسم فيلق طيبة لا يمثّل، بكل تأكيد، في عدادها. لنصنّف

١- ماكسميانوس غاليريوس (ت٣٧١م): إمبراطور روماني، صهر الإمبراطور ديوقليسيانوس. كان هو الذي خطط لهذا الأخير سياسة اضطهاد المسيحيين، ولكنه عدل عن ذلك في آخر سنيّ عهده، فأصدر مرسوم التسامح المعروف باسم مرسوم نيقوميديا. (م)

إذاً هذه الحكاية في باب تلك المنمّقات الشعرية الموضوعة على لسان العرّافات المتنبئات بمعجزات المسيح، وهذا جنباً إلى جنب مع سائر تلك الأدلة المزعومة التي أسرفت في اختلاقها الحميّة الدينية.

الفصل العاشر

عن الاضطهاد وخطر الأساطير الكاذبة

لطالما ضلّل الكذب عقول البشر؛ وقد آن الأوان لكي يماط اللثام عن ذلك القدر الضئيل من الحقائق التي يمكن الاهتداء إليها من خلال غمامات الخرافات التي تلف التاريخ الروماني منذ تاقيطوس وسويتونيوس، والتي تلقي بكثيف ظلّها على تواريخ بقية الأمم القديمة.

كيف نصدّق، على سبيل المثال، أن يكون الرومان، ذلك الشعب الرزين والمتشدد الذي ورثنا عنه تشريعاتنا، قد حَكم على عذارى مسيحيات، على سليلات أسر كريمة، بممارسة الدعارة؛ لو فعلنا نكون قد تجاهلنا الوقار والتزمّت اللذين كان يَصْدُر عنهما مشرعّونا عند معاقبتهم بمنتهى الصرامة زلّات الفستاليات[1].

إن روينار[2] هو من يأتي في كتابه «الأعمال الصادقة» بذكر تلك الأفعال الدنيئة؛ ولكن هل نعطي كتاب روينار المصداقية التي نعطيها **لأعمال الرسل**؟ تقول «**الأعمال الصادقة**» *هذه*، نقلاً عن بولاندوس[3]، إنه كان ثمة سبع عذارى مسيحيات في مدينة أنقورة[4]، كل منهن في العقد السابع من العمر، قد حَكم عليهن الوالي تيودكتوس بافتضاض بكارتهن من قِبل شبان المدينة. ولمّا تأبى الشبان عن تنفيذ هذا الحكم أجبر الوالي العذارى على أن يخدمن، وهنّ عاريات، الطقوس التي تؤدى للإلهة ديانا،

١- الفستاية: كاهنة الإلهة فستا في روما القديمة وكان عليها أن تنذر العفة ما دامت تخدم في المعبد. (م)

٢- دوم تيبري روينار: راهب بندكتي فرنسي (١٦٥٧-١٧٠٩)، له باللاتينية **الأعمال الصادقة والمنتخبة للشهداء الأوائل**. وكان أيضاً من السباقين إلى اختراع الشمبانيا. (م)

٣- يوحنا بولاندوس: راهب يسوعي بلجيكي (١٥٩٦-١٦٠٥) مصنِّف وشارح **الأعمال المقدسة** في خمسة مجلدات عن حياة القديسين. (م)

٤- أنقورة: الاسم القديم لأنقرة الحالية. (م)

علماً بأنه ما كانت تجوز المشاركة للنساء في تلك الطقوس إلا وهنّ يضعن حجاباً. وقد تضرّع القديس تيودوتس، وهو صاحب حميّة دينية رغم كونه صاحب حانة، إلى الله كي يأخذ إلى جواره أولئك العذارى القديسات خوفاً عليهن من أن يسقطن في التجربة. وقد استجاب الله لتضرعه، إذ أمر الوالي برميهن في بحيرةٍ بعد تعليق أحجار ثقيلة في أعناقهن. وقد ظهرن عقب ذلك حالاً لتيودوتس ورجونه ألا يسمح للأسماك بافتراس أجسادهن. تلك كانت كلماتهن بالحرف الواحد.

مع هبوط الليل توجّه صاحب الحانة البارّ مع صحبه إلى شاطئ البحيرة حيث كان هناك جنود يتولون الحراسة. كانت شعلة سماوية مضيئة تتقدمهم في مسيرتهم؛ وعندما بلغوا نقطة تجمّع الحراس تدخّل فارس سماوي، مدجج بالسلاح، ليطرد هؤلاء الأخيرين، رافعاً حربته في وجوههم. وتمكّن عندئذ القديس تيودوتس من سحب جثث العذارى من البحيرة. ولمّا أمر الوالي، عندما اقتيد أمامه، بقطع رأسه، لم يتدخل الفارس السماوي هذه المرة للحؤول دون احتزازها. نعيد ونكرر بأننا نجلّ الشهداء الحقيقيين؛ ولكن يصعب علينا تصديق قصة بولاندوس وروينار تلك.

أنروي هنا قصة القديس رومانوس الشاب؟ فقد رمي به في النار، يقول أوسابيوس، وبادر يهود حضروا المشهد إلى توجيه الشتائم إلى يسوع المسيح لأنه سمح بإحراق أحد أتباعه، في حين أن الله كان أخرج سيدراخ وميزاخ وأديناغو من الأتون المتّقد[1]. ولكن ما إن تفوّه اليهود بتلك الشتائم حتى خرج القديس رومانوس مظفّراً من المحرقة. وللحال أمر الإمبراطور بالعفو عنه، وقال للقاضي إنه لا يرغب في الدخول في خصومة مع الله: كلام عجيب في فم ديوقليسيانوس! ولكن بالرغم من حِلْم الإمبراطور وتسامحه أمر القاضي بقطع لسان القديس رومانوس؛ ومع أنه كان هنالك جلاّدون تحت تصرفه، فقد لجأ إلى طبيب لإجراء تلك العملية. والحال أن القديس رومانوس، الذي خلق بالولادة متلعثماً، راح يتكلم بطلاقة بعد أن بُتر لسانه. ولما وجّه اللوم إلى الطبيب وأراد أن يثبت أن العملية قد أجريت وفق الأصول المتبعة، أوقف أحد المارة وقطع له من لسانه القدر عينه الذي كان استأصله من لسان القديس رومانوس؛

١- ثلاثة من الشبان اليهود أسرهم نبوخذنصّر وعرض عليهم أرفع المناصب، فلما رفضوا أمر بإحراقهم بالنار، ولكنهم لم يحترقوا. وردت قصتهم في سفر دانييل. (م)

وللحال توفي عابر السبيل، إذ، كما يضيف المؤلف بكثير من العلم والحكمة: «يفيدنا تشريح الجسم البشري أن الإنسان لا يستطيع العيش بدون لسان». والحق أنه إن يكن أوسابيوس قد كتب فعلاً مثل هذه السخافات - إن لم تكن قد أُقحمت على كتاباته - فكيف يسعنا أن نمحض تاريخه الكنسي ثقتنا؟

وعندما تروى لنا قصة القديسة فليستيا وأولادها السبعة، الذين قضوا بأمر من أنطونيوس العاقل الورع، فإنه لا يُكشف لنا عن اسم كاتب هذه الرواية.

من الأرجح أن مؤلفاً، أكثر حميّة دينية منه صدقاً، أراد أن يحاكي قصة المكّابيين[1]. وقد استهل روايته على النحو التالي: «كانت القديسة فليستيا رومانية، وكانت تعيش في عهد أنطونينوس». ويتضح من هذا الكلام أن المؤلف لم يكن معاصراً للقديسة، وهو يقول إن والي روما قاضاها وأولادها في محكمته الكائنة في ساحة كامبوس مارسيوس؛ والحال أن الوالي كان يعقد محكمته في مبنى الكابيتول، وليس في تلك الساحة التي كان يلتئم فيها شمل جمعيات الناخبين في الماضي، والتي غدت، في عهد أنطونينوس، تستقبل استعراضات الجيش والسباقات والألعاب العسكرية. هذا ما يؤكد أن راوينا لم يعاصر تلك الفترة.

وقد أُورِد أيضاً على لسانه أن الإمبراطور عهد إلى عدد من القضاة بمهمة تنفيذ الحكم بعد صدوره: وهذا ما يتنافى تماماً مع الأصول المتّبعة آنذاك، كما في كل الأزمان.

هنالك أيضاً قديس يدعى هيبوليتوس يُقال إن الأحصنة جرّته، على غرار هيبوليتوس ابن الملك الإغريقي تازيوس. والواقع أن هذا الضرب من التعذيب كان

١- المكّابيون: اسم أطلقه الكتّاب الكنسيون على أبناء الكاهن اليهودي متتيا المكّابي، وقد توالى ثلاثة منهم على قيادة اليهود أمة وجيشاً خلال ثورة عام ١٦٧ ق. م. ضد ملك سوريا السلوقي. وبعد أن كانوا قواداً عسكريين أصبح المكّابيون رؤساء كهنة وأسسوا، من ثم، السلالة الأشمونية التي حصلت لاحقاً على اللقب الملكي. وقد تحدث سفر المكّابيين الثاني عن استشهاد سبعة أخوة كان الملك أنطيوخوس الرابع إيبفانوس قد أراد إرغامهم على أكل لحم الخنزير الذي تُحرِّم الشريعة الموسوية أكله. ولكنهم امتنعوا، وجرى تعذيبهم أمام والدتهم التي كانت تحضّهم على الاستشهاد وماتت بعدهم. (م)

مجهولاً عند الرومان القدامى، ولا ريب في أن تماثل الاسمين هو وراء ابتداع هذه الخرافة.

ولاحظوا معي أيضاً أن قصص الشهداء، المروية من قبل المسيحيين أنفسهم، تطالعنا على الدوام بمشهد حشد من المسيحيين يؤمون، بمطلق الحرية، سجن المحكوم عليه، ويرافقونه إلى ساحة الإعدام، ويلتقطون بعضاً من دمائه، ويوارون جثمانه التراب، ويصنعون المعجزات برفاته. فلو كان الدين، بحد ذاته، هدف الاضطهاد، أفما كان سيساق إلى الهلاك أيضاً هؤلاء المسيحيون المُظهِرون لمسيحيتهم والمتآزرون مع إخوانهم المحكوم عليهم، والمتّهمون بإتيان أعمال سحرية بواسطة أشلاء أجسام عُذِّبت حتى الموت؟ أما كانوا سيعامَلون كما عاملنا نحن الفالديين، والكاتاريين، والهوسيين[1]، ومختلف الفرق البروتستانتية؟ لقد ذبحناهم وحرّقناهم بالجملة، دون تمييز لا في السن ولا في الجنس. هل في الروايات الثابتة عن أحداث الاضطهاد التي حصلت في الماضي ما يحتمل المقارنة مع ما حصل إبّان مجزرة القديس بارتليمي أو أثناء مذابح إرلندا؟ هل بينها حدث واحد يحتمل المقارنة مع الاحتفال السنوي الذي لا يزال يقام في مدينة تولوز، ذلك الاحتفال البالغ القسوة والبشاعة، والخليق بأن يُلغى إلى الأبد، حيث يخرج سكان المدينة برمتهم في موكب مهيب، فيشكرون الرب ويهنئون أنفسهم لأنهم ذَبحوا أربعة آلاف من أبناء بلدتهم قبل مئتي عام؟

أقولها مستفظعاً، وإنما بصدق: نحن، المسيحيين، مَن مارسنا الاضطهاد؛ نحن كنا الجلاّدين والقتلى! ومَن قتلْنا؟ إخواننا. نحن الذين دمّرنا مئة مدينة، رافعين في أيدينا الصليب أو **الكتاب المقدس**؛ نحن الذين لم نكفّ عن سفك الدماء وعن إشعال نار المحارق، منذ عهد قسطنطين وحتى نوبات جنون آكلي لحوم البشر المقيمين في جبال السيفين[2] التي ما عادت تتكرر اليوم والحمد لله.

لا زلنا، مع الأسف، نعلّق بين الحين والآخر مشنقة مساكين من بواتو، من فيفاريه، من فالانس، من مونتوبان[3]. فقد أعدَمنا شنقاً، منذ العام ١٧٤٥، ثمانية أشخاص

١- الهوسيون: أنصار المصلح التشيكي يان هوس الذي أدان مجمع كونستانس طروحاتِه، وأُعدم حرقاً بتهمة الهرطقة. (م)

٢- السيفين: سلسلة جبال فرنسية تقع في وسط البلاد. (م)

٣- أسماء مدن فرنسية تقع في النصف الجنوبي للبلاد. (م)

من أولئك الذين يسمّون بـ«المبشّرين» أو «كهنة الإنجيل»، والذين لم يقترفوا من ذنب سوى تضرّعهم لله، بلهجتهم المحلية، أن يحفظ الملك، ومناولتهم قطرة من الخمر وكسرة من الخبز المختمر لبعض الفلاحين الأغبياء. لا شيء من هذا القبيل يحصل في باريس حيث لا يتقدم على متعة الحياة شيء، وحيث يجهل الناس كل ما يحصل في المقاطعات ولدى الأجانب. إن تلك الدعاوى يُبرَم الحكم فيها في أقل من ساعة من الزمن، وبأسرع مما يُقاضى فارّ من الجندية. فلو علم الملك بها لأصدر أمره بالعفو.

إن الكهنة الكثالكة لا يلاقون مثل هذه المعاملة في أي بلد بروتستانتي. فعدد الكهنة الكثالكة ينوف عن المئة في إنكلترا وإرلندا؛ ومع أن هويتهم معروفة فقد ظلوا يعيشون بأمان إبّان الحرب الأخيرة[1].

وهل نكون دوماً آخر من يعتنق الآراء السليمة التي تبنتها بقية الأمم؟ فقد صححت هذه الأمم أخطاءها: فمتى نصحح أخطاءنا بدورنا؟ لقد احتجنا إلى ستين سنة لنتبنى ما كان نيوتن أقام عليه البرهان بالتجربة؛ وبدأنا بالكاد نتجرأ على إنقاذ حياة أولادنا بواسطة التطعيم؛ ولم نلجأ، إلا مؤخراً، إلى تطبيق مبادئ الزراعة السليمة؛ فمتى نباشر بتطبيق مبادئ الإنسانية الصحيحة؟ وبأي صفاقة نلوم الوثنيين على قتلهم الشهداء وقد دللنا عن القسوة عينها في ظروف مماثلة؟

لنسلّم بأن الرومان حكموا بالموت على أعداد كبيرة من المسيحيين بسبب دينهم وحده: فالرومان مدانون حتماً في هذه الحال. فهل نريد اقتراف هذا الجور بدورنا؟ هل نريد أن نصبح من المضطهِدين في الوقت الذي ننهال فيه باللوم عليهم لأنهم مارسوا الاضطهاد؟

لو ارتفع هنا صوت إنسان متعصب وسيء النية ليخاطبني قائلاً: ما بالك تصرّ على استعراض أخطائنا وذنوبنا؟ ولماذا تقوّض معجزاتنا الكاذبة وأساطيرنا الزائفة؟ فهي بمثابة غذاء للورع والتقوى لدى الكثيرين من الناس؛ أتنسى أن مِن الأخطاء ما هو ضروري؟ أوَلا تعلم أنك إن استأصلت من الجسم قرحة متأصلة فيه تسببت في هلاكه برمّته؟ لو ارتفع صوت كهذا لأجبت قائلاً:

١- الإشارة هنا إلى حرب السنوات السبع بين فرنسا والنمسا، من جهة، وبين إنكلترا وبروسيا من جهة أخرى. وقد منيت فرنسا فيها بالهزيمة في كندا والهند ولويزيانا. (م)

إن جميع تلك المعجزات الكاذبة التي تقوّضون بها الإيمان الذي تقتضيه منا المعجزات الحقيقية، وجميع تلك الأساطير اللامعقولة التي تضيفونها إلى حقائق الإنجيل، تطفئ شعلة الدين في القلوب. فكثيرون هم الأشخاص الذين يرغبون في التعلم والذين لا يجدون متسعاً من الوقت لتثقيف أنفسهم بما فيه الكفاية، فينتهون إلى القول: لقد خدَعنا أساتذة ديننا، ليس هنالك دين إذاً؛ وخير لنا أن نرتمي في أحضان الطبيعة من أن نقع في أحضان الخطأ، وأن نخضع لقانون الطبيعة من أن ننصاع لمخترعات البشر. وثمة فريق آخر يذهب إلى أبعد من ذلك، مع الأسف: فلأن الخداع كان هو الوسيلة التي اعتُمِدت لكبحهم نراهم يرفضون حتى كابح الحقيقة وينزعون إلى الإلحاد. وهكذا يغدو بعضهم سافلاً، منحطاً، لأن بعضهم الآخر كان ماكراً، غاشماً.

تلك هي النتائج المترتبة على الخداع المتستر بستار التقوى وعلى شتى ضروب المعتقدات الباطلة. فالناس العاديون لا يذهبون في محاكمة الأمور إلى النهاية. وما أبطلها من حجّةٍ حجةُ من يقول: ما دام ڤوراجين[١]، مؤلف «**الأسطورة الذهبية**»، والراهب اليسوعي ريبادنيرا[٢]، جامع نصوص «زهرة القديسين»، لم يتفوّها إلا بسخافات، فهذا يعني أن الله غير موجود؛ أو حجة من يقول: لأن الكثالكة ذبحوا عدداً من الهوغونوتيين، ولأن الهوغونوتيين نكلّوا، بدورهم، بعدد من الكثالكة، فهذا يعني أن الله غير موجود؛ أو حجة من يقول: لأن سرّ المناولة، وسر الاعتراف، والأسرار المقدسة قاطبة قد سُخّرت لاقتراف أبشع الجرائم، فهذا يعني أن الله غير موجود. أما أنا فأخلص إلى استنتاج العكس تماماً، وأقول: هنالك إذاً إله سيرأف لحالنا ويواسينا عن تلك المصائب والفواجع، بعد حياة زائلة تنكّرنا له خلالها واقترفنا، باسمه، ما اقترفنا من الجرائم: ذلك أننا لو تأملنا في الحروب الدينية، وفي انشقاقات البابوات وانقساماتهم التي نافت عن الأربعين عدداً، والتي اقترنت جميعها تقريباً بأحداث

١- يعقوب دار ڤوراجين: كاتب حوليات إيطالي (١٢٢٨-١٢٩٨)، شغل منصب أسقف جنوى وألّف **الأسطورة الذهبية**، التي روى فيها حياة عدد كبير من القديسين والقديسات وشهداء المسيحية في العصر الروماني. (م)

٢- بدرو ريبادنيرا: أسقف يسوعي إسباني (١٥٢٦-١٦١١) من مؤلفاته: **زهرة القديسين**. (م)

دموية؛ وفي جميع ضروب الدجل والخداع الوخيمة العواقب؛ وفي الأحقاد المؤرّثة التي فجّرتها الاعتقادات المتباينة؛ ولو استعرضنا جميع الشرور التي تسببت فيها الحميّة الدينية الكاذبة، لأدركنا أن البشر عاشوا طويلاً جحيمهم في هذه الدنيا.

الفصل الحادي عشر

الغلو في التعصب

قد يقول قائل: أتزعم أنه من حق كل مواطن ألا يصدّق إلا عقله، وألا يعتقد إلا بما يمليه عليه هذا العقل المستنير أو الضال؟ بلى، ذلك هو المطلوب[1]، بشرط عدم الإخلال بالنظام: فلئن لم يكن أمر الإيمان أو عدمه بيد الإنسان، فإنه ملزَم، بالمقابل، بأن يَحترم أعراف وطنه؛ وإذا ادعيتم أن عدم الإيمان بالدين السائد جريمة، تكونون قد أدنتم بأنفسكم المسيحيين الأوائل، آباءكم، وبررتم موقف الذين تتهمونهم بأنهم نكّلوا بهم وأعملوا فيهم يد القتل.

قد تجيبون أن الفارق كبير، وأن جميع الديانات الأخرى هي من صنع البشر، بينما الكنيسة الكاثوليكية، الرسولية والرومانية، وحدها من صنع الله. ولكن عجباً: ألأن ديانتنا إلهية يتعين عليها أن تسود بالحقد، والعنف، والنفي، ومصادرة الممتلكات، والسجون، والتعذيب، والاغتيالات، وبالحمد المرفوع إلى الله على هذه الجرائم؟ والحق أنه بقدر ما يكون الدين المسيحي إلهياً، يتعين أن تكفّ يد الإنسان عن التحكم به. فما دام الله هو من صَنعَه، فالله هو من سيثبِّته ويصونه من دون عون أحد. أنتم تعلمون جيداً أن التعصب لا يولِّد إلا المنافقين أو المتمردين: فيا له من خيار وخيم! وهل تبغون، في النهاية، اللجوء إلى جلاّدين لدعم ديانة إله فتك به الجلاّدون، إله لم يدعُ إلا إلى الرفق والصبر؟

تأملوا، أرجوكم، في النتائج الرهيبة المترتبة على قانون التعصب. فلو جاز أن يُجرَّد مواطن من كل ممتلكاته، وأن يُزجّ به في أقبية السجون، بله أن يُقتل لأنه لم يعتنق في منطقة جغرافية بعينها الدين السائد في تلك المنطقة، فأي استثناء سيحول دون تطبيق العقوبات نفسها على كبار المسؤولين في الدولة؟ فالدين يُلزِم الملوك والمتسولين على حد سواء: لذلك أجمعَ ما يقارب من خمسين فقيهاً في اللاهوت على اتخاذ قرار

١- راجع رسالة لوك الممتازة عن التسامح.

فظيع يبيح خلع وتصفية الملوك الذين لا يشاركون الكنيسة السائدة معتقدها. وهذا بالضبط ما حمل محاكم المملكة على إصدار أحكام متوالية تقضي ببطلان ذلك القرار الكريه الذي اتخذه لاهوتيون بغيضون[1].

١- يقول اليسوعي بوزامباوم، بحسب شرح اليسوعي لاكروا: «يجوز قتل أي عاهل أنزَل البابا بحقه الحِرْم الكنسي، وفي أي بلد وجد فيه هذا العاهل، لأن الكون بأسره مُلك للبابا؛ ومن ينهض بهذه المهمة فإنما يأتي بفعل خير». لقد كان لهذه الدعوى، التي ابتُدعت في بيوت الجحيم الصغيرة، الدور الأكبر في تأليب فرنسا برمتها على اليسوعيين. فهذه العقيدة، التي طالما نادوا بها وطالما تبرأوا منها أيضاً، قد أوخِذوا عليها أكثر من أي وقت سبق. وقد تصوروا أنهم يستطيعون تبرير موقفهم بتبيانهم وجود أحكام مماثلة عند القديس توما الأكويني وعند العديد من الآباء الدومينيكانيين (انظر، إذا استطعت، **رسالة من رجل دنيا إلى رجل لاهوت حول القديس توما**، وهو كراس لأب يسوعي صدر في العام ١٧٦٢). وبالفعل، إن القديس توما الأكويني، الفقيه الملائكي ومؤوِّل المشيئة الإلهية (ذلك هو لقبه)، يدّعي أن العاهل المرتد عن دينه يفقد حقه في العرش، ولا تعود تجِب له الطاعة؛ وأنه يجوز للكنيسة أن تصدر بحقّه عقوبة إعدام (الكتاب الثاني، الجزء الثاني، المسألة ١٢) [**الخلاصة اللاهوتية** (م)]؛ وأنها لم تغض النظر عن الإمبراطور يوليانوس إلا لأنها لم تكن هي الأقوى (الكتاب الثاني، الجزء الثاني، المسألة ١٢)؛ وأنه يتوجب، شرعاً، قتل كل هرطوقي (الكتاب الثاني، الجزء الثاني، المسألة ١١ و١٢)؛ وأن الذين يحرِّرون شعباً من عاهل مستبد يستحقون كل التقدير، الخ، الخ. نحن نكنّ كل الاحترام **للفقيه الملائكي**؛ ولكن لو جاء يدافع عن مثل هذه الطروحات في فرنسا في زمن جاك كليمان، زميله، وفي زمن الراهب راڤاياك، فكيف كان سيعامل؟

علينا أن نعترف بأن جان جرسون، عميد الجامعة، قد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه القديس توما الأكويني، وبأن الراهب الفرنسيسكاني جان بوتي قد ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه جرسون. وقد أيّد العديد من الفرنسيسكانيين طروحات جان بوتي الرهيبة. والواقع أن هذه النظرية الجهنمية عن جواز قتل العاهل تنبع من الفكرة الجنونية التي كانت شائعة لدى جميع الرهبان تقريباً، أعني الفكرة القائلة إن البابا هو الإله على الأرض، وإن له مطلق الحق في التصرف بعروش الملوك وحياتهم. لقد كنا، على هذا الصعيد، أدنى مستوى بكثير من أولئك التتار الذين يؤمنون بخلود الدالاي لاما الذي يوزّع عليهم مقعده المثقوب [يقصد مرحاضه (م)] فيبادرون إلى تجفيف تلك البقايا وإلى ترصيعها وتقبيلها بمنتهى الورع. وفيما يتعلق بي شخصياً فإني أقرّ بأني أؤثر، من أجل ←

لم يكن دم الملك هنري الأكبر[١] قد جف بعد عندما أصدرت محكمة باريس العليا مرسوماً يجعل من استقلالية العرش قانوناً أساسياً من قوانين الدولة. لكن الكاردينال دوبرّون[٢]، الذي يدين بمنصبه للملك المغدور، عارض هذا المرسوم إبّان انعقاد جمعية الطبقات الثلاث[٣] في عام ١٦١٤ وتوصل إلى إلغائه. وقد نقلت صحف ذلك العصر ما قاله الكاردينال في خطبته: «لو شاء ملك من الملوك اعتناق الأريوسية فلن نتوانى عن خلعه».

لا، بكل تأكيد، يا حضرة الكاردينال. فحتى لو أخذنا بفرضيتك الخيالية، وسلّمنا بأن ملكاً من ملوكنا اطّلع على تاريخ آباء الكنيسة ومجامعها، وتأثر على الأخص بعبارة: «إن أبي أعظم مني»، وفهمها فهماً حرفياً، وتأرجح بين مجمعي نيقيا والقسطنطينية، ثم عمد بعد هذا إلى الانحياز إلى جانب أوسابيوس النيقوميدي[٤]، لبقيتُ مؤتَمِراً

السلام، أن أضع مثل تلك البقايا حول عنقي على أن أؤمن بأن للبابا أدنى حق على شؤون الملوك الدنيوية، ولا حتى على شؤوني أنا في أي حال من الأحوال.

١- المقصود بالملك هنري الأكبر الملك الفرنسي هنري الرابع الذي أباح حرية العبادة ووضع حداً للفتن الداخلية الدينية. جحد بالبروتستانتية كي يصبح ملكاً، غير أنه أصدر مرسوم نانت (١٥٩٨) الذي منح البروتستانتيين حقوقاً، منها حرية العبادة. (م)

٢- الكاردينال دوبرّون: شاعر ورجل دين فرنسي (١٥٥٦-١٦١٨)، سليل أسرة بروتستانتية، اعتنق الكاثوليكية وحاز رضى الملك هنري الثالث الذي أُعجب بتبحّره فاتخذه قارئاً له وأجرى له مرتباً. وبعد أن أصاب بعض الشهرة كشاعر وخطيب ارتأى دخول سلك الكهنوت وتعاون مع رئيس الرابطة الكاثوليكية التي كانت تعادي هنري الرابع. ولكنه ما لبث أن انقلب على الرابطة وانحاز إلى جانب الملك وحمل هذا الأخير على اعتناق الكاثوليكية وأصلح بينه وبين الكرسي البابوي. وقد بقيت الشكوك، بعد وفاته، تحيط بحقيقة إيمانه. (م)

٣- هيئة الطبقات الثلاث: جمعية تضم ممثلين عن رجال الدين وعن النبلاء وما كان يسمى بالطبقة الثالثة، أي تلك الشرائح من المجتمع الفرنسي التي لا تنتمي إلى نبالة الثوب ولا إلى نبالة السيف. (م)

٤- أوسابيوس النيقوميدي (٢٨٠-٣٤١): أحد كبار صانعي الخصومة الدينية حول العلاقة بين الإله الأب والإله الابن في القرن الرابع الميلادي. ومع أنه كان من أنصار أريوس إلا إنه انتصر للعقيدة القويمة كما أقرّها مجمع نيقيا. ولكن تأييده مع ذلك للأريوسية

بأمر عاهلي، مرتبطاً بعهد الوفاء الذي قطعته له. ولو تجرأتم على شق عصا الطاعة والتمرد عليه، وكنت أنا واحداً من قضاتكم، لاعتبرتكم مجرمين بحق الذات الملكية.

لقد ذهب الكاردينال دوبرّون إلى أبعد من ذلك في مناظرته التي تعمدتُ اختصارها. فليس يتسع المجال هنا للتعمق بصدد ما أثاره من آراء مغلوطة تدعو إلى الاشمئزاز؛ سأكتفي بالقول، ولسان حالي هنا لسان حال سائر المواطنين، بأننا لم نلتزم بطاعة هنري الرابع لأنه كُرِّس ملكاً في كاتدرائية مدينة شارتر، بل لأن حق الولادة الذي لا نزاع عليه قد أعطى التاج لهذا العاهل الذي استحقّه بشجاعته وبطيبته.

ليُسمَح لنا إذاً بأن نقول: إن كل مواطن حقيقٌ، بفضل حق الولادة عينه، بأن يرث ما يملكه والده، وإننا لا نفهم لماذا يصار إلى حرمانه من هذا الإرث وإلى سوقه إلى منصّات الإعدام لأنه تعاطف مع راتراموس[1] ضد رادبرتوس باشياسوس، ومع بيرانجيه[2] ضد سكوت.

نحن نعلم أن عقائدنا لم تُشرح بما فيه الكفاية من الوضوح، ولم تكن موضع إجماع الكنيسة على الدوام. فلأن يسوع المسيح لم يخبرنا عمّن ينبثق روح القدس، فقد اعتقدت الكنيسة اللاتينية لفترة طويلة من الزمن، أسوة بالكنيسة اليونانية، أنه لا ينبثق إلا عن الأب؛ بيد أنها أضافت لاحقاً إلى هذه العقيدة أنه ينبثق أيضاً عن الابن. وإني لأتساءل: هل من العدل أن تُنزَل، غداة اتخاذ هذا القرار، عقوبة الموت

حمل الإمبراطور قسطنطين على نفيه. وفي ختام حياته عاد فاحتل كرسياً أسقفياً في القسطنطينية. (م)

١- راتراموس (توفي عام ٨٦٨): لاهوتي فرنسي حاول التوفيق بين الدين والعلم، واشتهر بكتاب له عن سر القربان المقدس نقض فيه مذهب التحول في الجوهر كما كان يقول به معاصره رادبرتوس باشياسوس. (م)

٢- بيرانجيه التوري (نحو ٩٩٨-١٠٨٨): لاهوتي فرنسي لقّب كذلك لأنه تولى إدارة مدرسة سان-مارتان في مدينة تور. شارك في المناظرة المشهورة التي دارت في أواسط القرن الحادي عشر حول الحضور الواقعي للمسيح في القربان المقدس. تأثر بأفكار سكوت إريجينا (٨٠٠-٨٧٢) ومال في أول الأمر إلى القول برمزية حضور المسيح في القربان، ولكن مجمع روما أدانه، فاضطر إلى أن يحرق بيده كتاب سكوت إريجينا ويقول بالحضور الفعلي، لا الرمزي، للمسيح في القربان. (م)

بحق مواطن بقي متمسكاً بعقيدة الأمس؟ وهل نكون أقل قسوة وظلماً إذا ما عاقبنا اليوم شخصاً يفكر كما كان يفكر الناس بالأمس؟ وهل أذنب من اعتقد في عصر هونوريوس الأول[١] بأن المسيح يملك إرادة واحدة لا اثنتين؟

لم يمض زمن طويل على إقرار عقيدة الحَبَل بلا دنس[٢]، التي ما تبناها الآباء الدومينيكانيون بعد. فمتى سيصار إلى إنزال العقوبات بحقهم، سواء في هذه الدنيا أو في الآخرة؟ بَعدَ أي حقبة من الزمن؟

إن كان علينا أن نتمثل بأحد في مشاحناتنا التي لا نهاية لها فإنما بالرسل وبكَتَبة الإنجيل. فالخلاف الذي نشب بين القديسين بولس وبطرس كان خليقاً بإحداث انشقاق حاد. ففي رسالة إلى أهالي غلاطية يقول بولس بصراحة تامة إنه عارض بطرس لأن موقف هذا الأخير جدير بالإدانة، وذلك لأنه لجأ إلى المراءاة على غرار برنابا[٣]، ولأن الاثنين كانا يأكلان مع الوثنين قبل وصول يعقوب[٤]، ثم ما عتما أن انسحبا سراً وافترقا عن الوثنين خوفاً من المسّ بمشاعر المختونين[٥]. «لقد اتضح لي، يضيف بولس، أنهما لم يتبعا باستقامة تعاليم الإنجيل؛ وقلت لبطرس إذا كنت، وأنت اليهودي، تعيش مثل الوثنين، لا مثل اليهود، فلماذا تلزم الوثنيين بأن يتهودوا؟».

كانت هذه نقطة خلاف حاد: معرفة ما إذا كان على المسيحيين الجدد أن يتهودوا أم لا. وقد ذهب القديس بولس وقتذاك إلى حد تقديم الأضاحي في هيكل القدس. ومِن المعلوم أن أساقفة القدس الخمسة عشر الأوائل كانوا يهوداً مختونين، وأنهم وفّوا بواجبات يوم السبت وامتنعوا عن أكل اللحوم المحرّمة. والحال أنه لو عمد أسقف إسباني أو برتغالي اليوم إلى ختن نفسه وتقيّد بواجبات يوم السبت، لأُعدم حرقاً. مع

١- هونوريوس الأول: بابا روما من سنة ٦٢٥ إلى سنة ٦٣٨، حاول التوفيق بين «القويمي العقيدة» واليعاقبة المونوفيزيقيين، فوافق على حل وسط اقترحه سرجيوس الأول، بطريرك القسطنطينية، مؤداه أن للمسيح طبيعتين ولكن ليس له إلا إرادة واحدة. (م)

٢- عقيدة الحَبَل بلا دنس عقيدة كاثوليكية تقول إن السيدة العذراء وُلِدت، بخلاف باقي البشر، بلا خطيئة أصلية. (م)

٣- برنابا: من حواريي المسيح. (م)

٤- يعقوب: من حواريي المسيح. (م)

٥- يقصد بالمختونين اليهود. (م)

ذلك لم تتوتر الأجواء في صفوف الرسل ولا في صفوف المسيحيين الأوائل بسبب هذه المسألة الجوهرية.

لو كان كتبة الإنجيل على شاكلة الكتّاب المعاصرين لوجدوا حقل خلاف أوسع بكثير. فالقديس متّى الإنجيلي يعدّد ثمانية وعشرين جيلاً بين داود والمسيح، في حين يعدّد القديس لوقا الإنجيلي واحداً وأربعين جيلاً، وأسماء الأجيال عنده تختلف تماماً عن أسمائها لدى الأول. ومع ذلك لم ينشب خلاف بين تلامذة المسيح بصدد هذه التناقضات الظاهرة التي عمد عدد من آباء الكنيسة إلى التوفيق بينها على أحسن وجه. وهكذا بقيت المحبة سائدة ولم يتهدد السلام. فهل من درس أعظم من هذا كي نتسامح في خلافاتنا ونتواضع إزاء كل ما لا نتفاهم حوله!

في رسالته إلى بعض يهود روما ممن اعتنقوا المسيحية يخصّص القديس بولس كل خاتمة الفصل الثالث للتأكيد على أن الإيمان وحده يعود بالمجد على المرء، وأن الأفعال وحدها لا ترفع أحداً إلى مقام الصدّيقين. وعلى النقيض من ذلك، نرى القديس يعقوب، في الفصل الثاني من رسالته إلى أسباط بني إسرائيل الاثني عشر المشتتة في سائر أرجاء المعمورة، لا يكفّ عن التكرار بأن الأفعال وحدها هي الطريق إلى الخلاص. هذا ما فرّق بين طائفتين كبيرتين من طوائفنا مع أنه لم يحدث انقساماً بين الرسل.

لو كان اضطهاد من نختلف في الرأي معهم واجباً دينياً حقاً، لتعيّن علينا أن نسلّم بأن من يتسبب في قتل أكبر عدد من الهراطقة سيكون أعظم قديس في الجنّة؛ فما المرتبة التي سيشغلها فيها شخص ما زادت جريمته على سلب أشقائه والزّج بهم في أقبية السجون، بالمقارنة مع ذلك المهووس الديني الذي قتل المئات يوم عيد القديس بارتليمي؟ وهاكم الدليل على ذلك.

إن خليفة القديس بطرس ومجمع كرادلته معصومان عن الضلال على ما يقال لنا؛ وقد أيّدا، وأشادا، وكرّسا أحداث عيد القديس بارتليمي: فلهذه الأحداث، إذاً، طابع من القدسية. وهذا يعني أنه حتى ولو تساوى اثنان من القتلة في التقوى، فإن من بَقَرَ منهما بطون أربع وعشرين بروتستانتية حبلى سينعم بضعف المجد الذي سوف ينعم به من لم يَبْقر إلا اثنتي عشر بطناً. وللاعتبار عينه، فإن متعصبي جبال

السيڤين كان من حقهم أن يعتقدوا بأن مجدهم سيتعاظم طرداً مع ارتفاع عدد من ذَبحوا من الكهنة ورجال الدين والنساء الكاثوليكيات. فيا لها من صكوك عجيبة لنيل المجد في الأبدية!

الفصل الثاني عشر

هل كان التعصب شرعا إلهيا في الدين اليهودي، وهل كان معمولا به على الدوام؟

يُطلَق اسم **الشرع الإلهي**، على ما أعتقد، على التعاليم التي صدرت عن الله بذاته. فقد شاء أن يأكل اليهود حَمَلاً مطبوخاً مع الخسّ وأن يأكله المدعوون وهم واقفون وفي يد كل واحد منهم عصا، احتفالاً بذكرى الخروج من مصر؛ كما أمِر بأن تتم سيامة الكاهن الأكبر بمسح أذنه اليمنى ويده اليمنى وقدمه اليمنى بالدم؛ عادات تبدو خارجة عن المألوف بالنسبة إلينا، غير أنها كانت دارجة في العصور القديمة؛ وقد شاء أيضاً أن يُحمَّل كبشُ الفداء أوزارَ الناس، كما حرّم أكل[١] الأسماك التي لا حراشف لها، والخنازير، والأرانب البرّية، والقنافذ، والبومة، والعنقاء، الخ.

وكان هو من حدّد الأعياد، ومراسم الاحتفالات. كل هذه الأشياء التي كانت تُعتَبر جزافية في نظر بقية الأمم، وخاضعة بالتالي للقانون الوضعي وللتقاليد المتَّبعة، غدت في نظر اليهود شرعاً إلهياً لأن الله هو من أمر بها، تماماً كما أن كل ما أمرنا به يسوع المسيح، ابن مريم، ابن الله، هو شرع إلهي بالنسبة إلينا نحن المسيحيين.

حذار أن نتحرى هنا عن الأسباب التي جعلت الرب يستبدل الناموس الذي أعطاه لموسى بناموس آخر، ولماذا أمر موسى بأكثر مما أمر به إبراهيم، وإبراهيم بأكثر من نوح[٢]. فقد شاء، على ما يبدو، أن تأتي وصاياه متناسبة مع الأزمان ومع الشعوب، في

١- **تثنية الاشتراع**، الإصحاح ١٤.

٢- إذا كان لنا أن نبدي بعض الملاحظات المفيدة بصدد التوراة فلنا أن نلفت الانتباه إلى ما جاء فيها من أن الله أبرم عهداً مع نوح ومع الحيوانات قاطبة؛ بيد أنه سمح لنوح، مع ذلك، بأن **يأكل كل ما هو حي ومتحرّك**؛ لم يستثنِ سوى الدم الذي حَرّم تناوله. ويضيف الله (**سفر التكوين**، الإصحاح التاسع، ٥): «إنه سوف يثأر من سائر الحيوانات التي سفكت دم الإنسان».

ضرب من تدرّج أبوي؛ غير أن هذه الأسرار أعمق من أن تكتنهها بصيرتنا الواهنة.

نستطيع أن نستنتج من هذه المقاطع، ومن العديد من المقاطع الأخرى، ما استقرّ عليه اعتقاد البشرية منذ العصور القديمة وحتى أيامنا هذه، وما خلص إليه سائر العقلاء من البشر مِن أن الحيوانات تتمتع بقدرٍ من المعرفة. فالله لم يبرم عهداً مع الأشجار والأحجار، المجرّدة من المشاعر؛ لكنه أبرم عهداً، بالمقابل، مع الحيوانات التي شاء أن يمنحها مشاعر أكثر إرهافاً من مشاعرنا في كثير من الأحيان، وبعض الأفكار المرتبطة بالضرورة بهذه المشاعر. لذلك حَرّم علينا همجية التغذي بدمائها، لأن الدم هو مصدر الحياة، وبالتالي، مصدر المشاعر. فلو فُصِد حيوان من دمه كله لشُلَّت أعضاؤه وفقدت كل قدرة على الحركة. لذلك ورد في الكتاب المقدس، في نحو من مئة موضع، أن النفْس، أي ما كان يسّمى **بالنفس الحساسة**، إنما مركزها في الدم؛ وهذه الفكرة الطبيعية للغاية هي التي تبنّتها الشعوب قاطبة.

هذه الفكرة هي الأساس الذي قامت عليه الشفقة التي يتعين علينا إبداؤها تجاه الحيوانات. فمن جملة المبادئ السبعة التي يلتزم بها النوحيّون، والتي تلقّاها اليهود بالقبول، مبدأ يحرّم أكل عضو حيوان لا يزال على قيد الحياة. هذا المبدأ يقطع الدليل على أن البشر كانوا من القسوة بحيث كانوا يبترون الحيوان ليأكلوا أعضاءه المقطوعة، ويتركونه على قيد الحياة حتى يقتاتوا بكل جزء من أجزاء جسده. وقد بقيت هذه العادة دارجة لدى بعض الشعوب الهمجية، كما هي الحال في جزيرة خيوس حيث كانت تُقدَّم الأضاحي لباخوس أو ماديوس آكل اللحم النيئ. إن الله، الذي سمح لنا بأكل الحيوانات، قد أوصانا بالتحلّي بقدر من الإنسانية تجاهها. ولا بد من التسليم بأن تعذيب الحيوانات ينمّ عن همجية أكيدة؛ والعادة وحدها هي التي تخفف من استفظاعنا الطبيعي لإقدامنا على ذبح حيوانٍ نكون قد أطعمناه بأيدينا. ولقد وُجدت على الدوام شعوب تتأثم من ذبح الحيوان؛ وهذا التأثم لا يزال شائعاً في شبه الجزيرة الهندية؛ كما أن أتباع فيثاغورس، في إيطاليا وفي اليونان، امتنعوا على الدوام عن أكل اللحوم. وفي رسالته: **القطاعة عن اللحم** ينحي فورفوريوس باللائمة على تلميذه لأنه لم يهجر صفوف شيعته إلا ليُشبِع نهمه الهمجي.

وفي رأيي أنه لن يجرؤ أحد على القول إن الحيوانات ليست أكثر من آلات إلا أن يكون تخلى عن نور العقل الطبيعي. فهنالك تناقض بين التسليم بأن الله وهب الحيوانات أعضاء الشعور كافة والادعاء بأنه قد حرَمها من الشعور.

لنبقى إذاً في حدود موضوعنا ولننظر، بادئ ذي بدء، في ما كان عليه التعصب لدى اليهود.

في **سفر الخروج** و**سفر اللاويين** و**سفر الأعداد** و**تثنية الاشتراع** هنالك، بلا شك، قوانين صارمة للغاية بخصوص العبادة، وعقوبات أشد صرامة بعد. وقد صعب على الكثير من الشارحين أن يوّفقوا بين حكايات موسى وبين مقاطع بعينها من سفر إرميا و**سفر عاموص**، وكذلك بينها وبين خطاب القديس إصطفان الشهير كما ورد في «**أعمال الرسل**». فعاموص يقول[1]: إن اليهود لبثوا يعبدون في الصحراء مولوخ ورمّانو وقيّوم. ويقول إرميا بعبارة لا تحتمل لبسا[2] إن الله لم يطلب أي تضحية من آبائهم عندما خرجوا من مصر. أما القديس إصطفان فيقول في خطابه إلى اليهود: «لقد عبدوا الجيش السماوي[3]؛ لم يقدّموا الأضاحي ولا القرابين في الصحراء على مدى أربعين عاماً؛ لقد حملوا مظلة الإله مولوخ، ونجم إلههم رمّانو».

ويستنتج نقاد آخرون من عبادة هذا القدر من الآلهة الأجنبية أن هذه الآلهة كانت

كما يبدو لي، أيضاً، أن الذين لم يعاينوا قط عن كثب الحيوانات هم وحدهم الذين يعجزون عن تمييز أصواتها المختلفة: الأصوات التي تعبّر بها عن حاجتها، عن ألمها، عن فرحها، عن خوفها، عن حبّها، عن غضبها، وعن سائر مشاعرها الأخرى؛ ومن المستغرَب جداً، في هذه الحال، أن تُحسِن الحيوانات التعبير إلى هذا الحد عما يقال لنا من أنها لا تشعر به.

إن هذه الملاحظة خليقة بفتح باب التأمل أمام العقول المتمرسة بمعرفة قدرة وطيبة الخالق الذي شاء أن يمنح الحياة، والشعور، والأفكار، والذاكرة لكائنات رتّب أعضاءها بيده الكلية القدرة. فنحن لا نعلم كيف تكوّنت هذه الأعضاء، ولا كيف تطورت، ولا كيف تُعطى لنا الحياة، وما القوانين التي ترتبط بموجبها المشاعر والأفكار والذاكرة والإرادة بهذه الحياة. وبحكم هذا الجهل المطبق والدائم، الملازم لطبيعتنا، ترانا نتخاصم باستمرار، ونتصارع، ونضطهد بعضنا بعضاً، على غرار الثيران التي تتصارع بقرونها من دون أن تدري لماذا وكيف أُعطيت هذه القرون.

١- **سفر عاموص** (الإصحاح الخامس، ٢٦٢).

٢- **سفر إرميا** (الإصحاح السابع، ٢٢).

٣- **أعمال الرسل** (الفصل السابع، ٤٢-٤٣).

مباحة من قبل موسى؛ وهم يستشهدون، كدليل على ما يذهبون إليه، بهذه العبارات المأخوذة من سفر **تثنية الاشتراع**[1]: «عندما ستصبحون في أرض كنعان، لن تفعلوا ما نفعله اليوم، حيث كلّ يتصرّف حسب هواه»[2].

١- **تثنية الاشتراع** (الإصحاح الثاني عشر، ٨٢).

٢- لقد جازف العديد من الكتّاب بالاستنتاج من هذا المقطع بأن الإصحاح المتعلق بالعجل الذهبي (الذي ما هو إلا الإله أبيس) قد أضيف إلى أسفار موسى، أسوة بعدد من الإصحاحات الأخرى.

كان آبن-هزرا أول من تراءى له أنه يستطيع أن يثبت أن **أسفار موسى** \الخمسة إنما كُتبت في عهد الملوك. وقد ذهب ، وكولنز ، وتِندال، وشافتسبوري، وبولنغبردك وكثيرون غيرهم، إلى أن فن نقش الأفكار على الحجر المصقول، أو القرميد، أو الرصاص، أو الخشب كان يمثّل، يومذاك، طريقة الكتابة الوحيدة؛ وأن الكلدانيين والمصريين ما كانوا يكتبون بطريقة أخرى في عهد موسى؛ وأنه ما كان في المقدور يومذاك إلا توخي الاقتضاب الشديد واعتماد الأحرف الهيروغليفية لنقش جوهر الأفكار المزمع نقلها إلى الأجيال اللاحقة، وليس حكايات مفصّلة؛ وأنه كان من المستحيل نقش كُتب ضخمة في الصحراء التي تتطلب الحياة فيها تنقلاً مستمراً من مقام إلى آخر، والتي لم يكن فيها وجود لمن يمكن أن يُكلَّف بتوفير الثياب، أو بتفصيلها وخياطتها، أو بتصليح النعال، مما اضطر الله إلى أن يصنع معجزة على مدى أربعين عاماً (**تثنية الاشتراع**، الإصحاح الثامن، ٥) ليحافظ على ملابس شعبه ونعاله. وهم يؤكدون أنه من غير المحتمل أن يكون وُجد مثل ذلك العدد الكبير من نقّاشي الحروف في وقت انعدمت فيه الفنون الأكثر ضرورة، بل تعذّر فيه حتى صنع الخبز؛ ولو قلنا لهم إن حمائم المظالّ كانت من النحاس والقصدير، وتيجان الأعمدة من الفضة الخالصة، لأجابوا بأن الأمر بصنعها ربما أُعطي في الصحراء، غير أنه لم يُنفَّذ إلا في زمن أكثر رخاء.

ثم يصعب عليهم أن يتصوروا أن ذلك الشعب الفقير قد أوصى على عجل من الذهب الخالص (**سفر الخروج**، الإصحاح الثاني والثلاثون) كي يتعبّد له عند سفح الجبل عينه الذي كلّم الله فيه موسى، فيما السماء تبرق وترعد على مرأى من ذلك الشعب (**سفر الخروج**، الإصحاح التاسع عشر، ١٨-١٩)، وفيما يعلو صوت البوق السماوي على مسمع منه. وهم يستغربون أن يكون هذا الشعب قد اختار عشية اليوم الذي سينزل فيه موسى من الجبل ليطلب من أخيه أن يصنع له ذلك العجل الذي من الذهب الخالص. فكيف

تمكّن هارون من سبكه في يوم واحد (**سفر الخروج**، الإصحاح الثاني والثلاثون، ٤)؟ وكيف تمكن موسى، لاحقاً، من تحطيمه وسحقه سحقاً (**سفر الخروج**، الإصحاح الثاني والثلاثون، ٢٠)؟ وهم يؤكدون أنه يستحيل على أي فنان صِنع تمثال من الذهب في أقل من أشهرٍ ثلاثة، وأن فن الكيمياء الأكثر تطوراً والأطول باعاً يعجز عن تحويل هذا التمثال إلى مسحوق يمكن بلعه: وهكذا فإن إخلال هارون بواجبه وعملية التحطيم التي نفّذها موسى لا بد أن يوصفا بأنهما معجزتان.

إن الإنسانية وطيبة القلب، اللتين قد توردان أولئك النقاد موارد الخطأ، هما عينهما اللتان تحولان دون تصديقهم بأن موسى قد أمر بذبح ثلاثة وعشرين ألف نسمة (**سفر الخروج**، الإصحاح الثاني والثلاثون، ٢٨) للتكفير عن تلك الخطيئة؛ إنهم لا يتصورون أن يكون أولئك الرجال الثلاثة والعشرون ألفاً تركوا اللاويين يفتكون بهم ذلك الفتك الذريع، اللهم إلا أن تكون حصلت معجزة ثالثة. كما أنهم يستغربون، أخيراً، أن يكون هارون، الأعظم ذنباً من الجميع، قد كوفئ على جريمة عوقب عليها الآخرون أنكى عقاب (**سفر الخروج**، الإصحاح الثالث والثلاثون، ١٩؛ **وسفر اللاويين**، الإصحاح الثامن، ٢)، فنُصِّب حبراً أعظم فيما تكدست الجثث الدامية لثلاثة وعشرين ألفاً من أشقائه عند المذبح الذي سيضحي عليه.

وهم يعربون عن شكوك مماثلة فيما يتعلق باليهود الأربعة والعشرين ألفاً الذين ذُبحوا بأمر من موسى (**سفر العدد**، الإصحاح الخامس والعشرون، ٦٢) تكفيراً عن غلطة واحد من بينهم ضُبط بصحبة امرأة مديانية. فلمّا كان العديد من ملوك اليهود، وعلى رأسهم سليمان، قد عقدوا على أجنبيات من دون أن يُنزل بهم عقاب، فقد عزَّ على أولئك النقاد الإقرار بأن القران من مديانية يشكّل جريمة فادحة: فقد كانت راعوث مؤابية وإن كانت أسرتها من بيت لحم؛ و**الكتاب المقدس** يطلق عليها على الدوام اسم راعوث المؤابية: مع ذلك فقد اندسّت في سرير بوعز، نزولاً عند نصيحة أمها، فحصلت منه على ستة صاعات من الشعير، ثم تزوجته وغدت الجدة الكبرى للملك داود. ولم تكن راحاب أجنبية فحسب، بل مومساً أيضاً؛ والوصف الوحيد الذي تطلقه عليها التوراة، طبقاً للترجمة اللاتينية، هو MERETRIX [أي «امرأة عمومية» (م)] (**سفر يوشع**، الإصحاح السابع، ١٧)؛ ومع ذلك تزوجت من سلمون، ملك يهوذا؛ ومن سلمون هذا يتحدّر، أيضاً، الملك داود. بل هناك من ينظر إلى راحاب على أنها رمز للكنيسة المسيحية؛ ذلك هو رأي العديد من آباء الكنيسة، وبخاصة أوريجانوس في عظته الثالثة عن يوشع.

أمّا بِتْشَبَع، زوجة أوريا، التي تزوجت من داود لاحقاً وأنجبت منه سليمان، فقد كانت حيثية. ولو رجعنا القَهْقَرى أكثر في الزمن لرأينا أن يهوذا، وهو مِن أجداد شعب إسرائيل، قد تزوج من امرأة كنعانية؛ أما ثامار، زوجة ابنيه [تزوجت من ابنه أونان بعد وفاة أخيه عير (م)] فكانت من أصل آرامي: وهذه المرأة، التي ارتكب يهوذا معها زنى المحارم من غير علمه، لم تكن من بني إسرائيل.

وهكذا يكون سيدنا يسوع المسيح قد تنازل فتجسّد عند اليهود لدى أسرة تضم في جذعها خمس أجنبيات ليبيّن أن الأمم الأجنبية سيكون لها نصيبها في ميراثه.

لقد كان الحاخام آبن-هزرا، كما أسلفنا القول، أول من تجرأ على الادعاء بأن **الأسفار الخمسة** قد كُتبت بعد وفاة موسى بزمن طويل؛ وهو يعتمد على عدد من المقاطع، منها: «كان الكنعاني (**سفر التكوين**، الإصحاح التاسع، ٦) موجوداً حينذاك في هذا البلد. كذلك فإن جبل المُريّا (**أخبار الأيام الثانية**، الإصحاح الثالث ١٢) كان يدعى **جبل الرب**. أما سرير عوج، ملك باشان، فكان موجوداً في مدينة ربة مؤاب، وقد أُطلق على كل بلاد باشان تلك اسم قرى يائر، وذلك اسمها إلى اليوم. ولم يسبق قط أن ظهر في إسرائيل نبي مثل موسى. والملوك هنا هم الذين سادوا على أدوم (**سفر التكوين**، الإصحاح السادس والثلاثون، ٣١) قبل أن يملّك أي ملك على إسرائيل». ويزعم آبن -هزرا أيضاً أن هذه المقاطع التي يدور فيها الكلام عن أحداث وقعت بعد موسى لا يمكن أن يكون موسى هو من كتبها. ونستطيع أن نردّ على هذه الاعتراضات بأن تلك المقاطع هي محض حواشٍ أضافها الناسخون بعد مرور زمن طويل.

إن نيوتن، الذي ينبغي أن نلفظ اسمه بكثير من الاحترام، والذي كان خليقاً، مع ذلك، بأن يقع في الخطأ لكونه إنساناً، أسند، في مقدمة شروحه على دانييل والقديس يوحنا، **أسفار موسى الخمسة** وسِفري **يوشع** و**القضاة** إلى كتّاب من الأحبار متأخرين زمنياً؛ وهو يستند، في أطروحته هذه، إلى الإصحاح ٣٦ من **سفر التكوين** وإلى أربعة إصحاحات من **سفر القضاة** (١٧، ١٨، ١٩، ٢٠)؛ وكذلك إلى صموئيل، (الإصحاح ٨)، و**أخبار الأيام** (الإصحاح ٢) وإلى **سفر راعوث** (الإصحاح الرابع). وبالفعل، ما دام ذِكر الملوك قد ورد في الإصحاح ٣٦ من **سفر التكوين**، كما دار الكلام عنهم في عدد من إصحاحات **سفر القضاة**، وما دام ذِكر داود قد ورد في **سفر راعوث**، فمِن المحتمل أن تكون هذه الأسفار قد كُتبت في عهد الملوك. ذلك هو أيضاً رأي بعض اللاهوتيين، وعلى رأسهم لوكلير الشهير. رأيٌ لا يتشيّع له إلا عدد محدود من الأشخاص، مدفوعين بفضولهم إلى

سبر الأعماق. ومثل هذا الفضول لا يندرج، في أغلب الظن، في عِداد واجبات الإنسان. فعندما سيمثُل العلماء والجهلة، الملوك والرعاة، أمام سيد الأبدية، بعد هذه الحياة العابرة، فسوف يعمد الكل إلى التأكيد على صدقه، وإنسانيته، وشفقته وسخائه؛ ولن يتباهى أحد بمعرفته بتاريخ كتابة **أسفار موسى الخمسة**، أو بتمييزه بين المتن والحواشي التي كان من عادة الكتبة إضافتها. ولن يسألنا الله إن كنا قد أنحزنا إلى جانب **المأثورات** Massorettes ضداً على **التلمود**، أو إن كنّا لم نفرّق بين الكاف والباء، أو بين الياء والفاء، أو بين الدال والراء. سوف يحاكمنا على أفعالنا، لا على فهمنا للغة العبرية. نحن نلتزم كلياً، إذاً، بقرار الكنيسة كما يقتضي الواجب الطبيعي للمؤمن.

وختاماً لهذه الحاشية سنتوقف عند مقطع هام من **سفر اللاويين** الذي كُتب بعد عبادة العجل الذهبي. فهو يَنهى اليهود عن عبادة ذوات الوبر: «التيوس الذين اقترفوا معهم، كذلك، دناسات سافلة». ولسنا نعلم إن كان هذا الضرب من العبادة قد جاء من مصر، وطن الخرافة والسحر؛ ولكن يبدو أن التقليد الذي يتّبعه أدعياء السحر عندنا بأدائهم فروض يوم السبت، وبتعبّدهم لتيس، وباقترافهم معه أفعالاً شائنة يقشعر البدن لمجرد ذكرها، إنما يعود إلى اليهود القدامى: فهم الذين تولّوا، في الواقع، تعليم السحر في بعض أرجاء أوروبا. فيا له من شعب! إن دناءة عجيبة كهذه ما كانت إلا لتستأهل عقاباً مماثلاً لذاك الذي جلبته عليها عبادة العجل الذهبي، ومع ذلك اكتفى المشرِّع بنهيهم عنها. ولم نورد هذه الواقعة هنا إلا على سبيل التعريف بالأمة اليهودية: فلا بد أن مجامعة الحيوانات كانت شائعة بين ظهرانيها ما دامت هي الأمة الوحيدة المعروفة التي اضطرت شرائعها إلى النهي عن جريمة لم يَشتبه بوجودها أي مشرّع من الأمم الأخرى.

يبدو أن التعب الشديد وسوء التغذية، الذين عانى منهما اليهود في صحارى فاران وعوريب وقادش-برنيع، قد أوديا بحياة أعداد كبيرة من النساء اللاتي هنّ دون الذكور قدرة على الاحتمال. ولقد كان اليهود يفتقرون إلى البنات، ولا بد، لأنهم كانوا يؤمرون دوماً، لدى استيلائهم على بلدة أو قرية تقع إلى يسار البحر الميت أو إلى يمينه، بأن يقتلوا جميع سكانها عدا الإناث البالغات.

إن العرب، الذين لا يزالون يعيشون في بعض من هذه الصحاري، يشترطون دوماً في العقود التي يبرمونها مع القوافل الحصول على فتيات بالغات. ويبدو أن الشبان، في هذا البلد الكريه، قد غلوا في الشذوذ عن الطبيعة البشرية إلى حد مضاجعة الماعز، على غرار ما يقال عن رعاة مقاطعة كالابريا [في إيطاليا (م)].

لواجبات دينية أثناء وجودهم في الصحراء: فلم يجرِ الاحتفال بأي عيد فصح[1]، ولا عيد الخماسين[2]، ولم يأت أي ذكر للاحتفال بعيد المظالّ[3] أو لعقد حلقة صلاة عامة. وأخيراً، إن الختان، خاتم عهد الله مع إبراهيم، لم يكن مُتّبعاً.

وهم يستشهدون، كذلك، بقصة يوشع[4]؛ فقد خاطب هذا الفاتح اليهود قائلاً[5]: «لقد تُرك لكم الخيار، فلكم أن تختاروا ما تشاؤون: إما أن تعبدوا الآلهة الذين خدمتم في بلاد الأموريين وإما أن تعبدوا الآلهة الذين اعترفتم بهم في بلاد ما بين النهرين». وقد أجابه الشعب: «لن يكون كذلك، سوف نعبد أدوناي»[6]. فردّ يوشع قائلاً: «لقد اخترتم بأنفسكم؛ ارفعوا إذن من بينكم الآلهة الأغراب». وهذا ما يقطع الدليل على أن اليهود عبدوا آلهة أخرى، غير أدوناي، في عهد موسى.

من غير المجدي أن ندحض هنا آراء النقاد الذين ينزعون إلى الاعتقاد بأن التوراة لم تُكتب من قِبل موسى؛ فقد استوفى هذا الموضوع حقّه من الأخذ والرد منذ زمن؛ فحتى لو كُتبت شذرات صغيرة منها في عهد القضاة أو الأحبار، فإنها تبقى رغم ذلك مُلهَمة وإلهية.

يبقى أن نعرف ما إذا كانت تلك المضاجعات قد أسفرت عن ولادة مسوخ، أو ما إذا كان ثمة أساس من الصحة للحكايات القديمة عن الساتورات، والفاونوسات، والسنتورات، والمينوتورات؛ إن التاريخ يؤكد ذلك، ولكن علم الطبيعة لم يُنرْنا بعد حول هذا الموضوع البالغ الشناعة.

١- الفصح عند اليهود عيد يُحتفل فيه بذكرى الخروج من مصر. (م)

٢- الخماسين: عيد يُحتفل به بعد الفصح بخمسين يوماً إحياء لذكرى نزول ألواح الشريعة على موسى. (م)

٣- عيد المظالّ: عيد يُحتفل به في اليوم الخامس بعد عيد يوم الغفران، ويرمز إلى عبور شعب إسرائيل للصحراء تحت المظالّ التي كانت تقيهم من قيظ الشمس. (م)

٤- يوشع: خليفة موسى الذي قاد العبرانيين في فتحهم لبلاد كنعان واستقرارهم في أرض الميعاد، كما جاء في **سفر العدد**. (م)

٥- **سفر يوشع**، الإصحاح الرابع والعشرون، الآية ١٥ وما يليها.

٦- أدوناي: كلمة عبرية معناها السيد، تُطلق، في كتاب **العهد القديم**، على اسم الجلالة؛ واليهود يكتبون اسم يَهْوَه ويقرؤونه أدوناي حرصاً على تجنب لفظ اسم الله. (م)

يكفي، في نظري، أن يكون **الكتاب المقدس** قد قَطع لنا الدليل على أن اليهود بقوا، لحقبة مديدة من الزمن، ينعمون بحرية تامة رغم العقاب الشديد الذي أُنزل بهم بسبب عبادتهم الإله أبيس[1]؛ فلربما أدرك موسى، بعد المجزرة التي اقترفها بحق ثلاثة وعشرين ألف إنسان بسبب العجل الذهبي الذي نصب أخوه تمثاله، أن التشدد لا يأتي بنتيجة، فاضطر إلى أن يغمض عينيه عن ولع شعبه بالآلهة الأغراب.

ولن يتوانى موسى نفسه[2] على ما يبدو عن انتهاك الشريعة التي أعطى. فمع أنه حرّم التماثيل على أنواعها، فقد نصب تمثال ثعبان من النحاس والقصدير. ونلمس خروجاً مماثلاً عن الشريعة في هيكل سليمان: فقد شاء هذا الملك أن يُرفع حوض الهيكل الكبير فوق اثنتي عشرة منحوتة تمثل ثيراناً، وأن توضع تماثيل ملائكة فوق تابوت العهد[3]؛ ملائكة لها رأس نسر ورأس عجل. ويبدو أن رأس العجل هذه، المنحوتة بغير ما إتقان، هي التي دفعت إلى الاعتقاد، بعد أن عثر عليها جنود رومان في الهيكل، بأن اليهود كانوا يعبدون حماراً.

وعبثاً جرى تحريم عبادة الآلهة الأغراب. فسليمان كان يتعبّد بكل طمأنينة للأصنام؛ ويروبعام[4]، الذي وهبه الله عشر حصص من الملكوت، نصب عجلين ذهبيين وحكم على مدى اثني وعشرين عاماً، جامعاً في شخصه بين رتبتي العاهل والحبر الأعظم؛ وفي عهد ربعام[5] شُيِّدت في مملكة يهوذا الصغيرة معابد لآلهة أغراب

١- أبيس: إله من آلهة مصر القديمة له شكل ثور. (م)

٢- **سفر العدد**، الإصحاح الحادي والعشرون، ٩.

٣- تابوت العهد: صندوق من خشب يقال إن موسى أودع فيه ألواح الشريعة التي أُنزلت عليه في جبل سيناء. يرمز تابوت العهد إلى وجود يَهْوَه بين شعبه. بنى له سليمان هيكلاً وحفظه في قدس الأقداس؛ وقد زال أثناء حريق الهيكل (عام ٥٨٧ أو ٥٨٦ ق. م) على يد نبوخذنصّر. (م)

٤- يروبعام: مؤسِّس مملكة إسرائيل وأول ملوكها (٩٣-٩١ ق. م)، أحدث انقساماً دينياً وأنشأ مركزين للعبادة في «دان» و«بيت إيل»، ونصب في كل منهما عجلاً ذهبياً استقطاباً للشعب. (م)

٥- ربعام: ابن سليمان ملك يهوذا (٩١١-٨٧١ ق. م).

ونُصبت تماثيل؛ ولم يعمد الملك القديس آسا[1] إلى تدمير بيوت العبادة تلك[2]؛ أما كبير الكهنة أورياس فقد شيّد في الهيكل مذبحاً لملك سوريا مكان مذبح الأضاحي[3].

لسنا نلمس، خلاصة القول، أي أثر للإكراه على الدين. إني أعلم أن معظم ملوك اليهود قد أفنوا بعضهم بعضاً، ولقوا مَصارعهم على أيدي بعضهم بعضاً، غير أنهم ما تحاربوا إلا دفاعاً عن مصالحهم، لا عن معتقداتهم.

يقيناً، هناك من الأنبياء من أَشرَك السماء في الانتقام من خصومه[4]. فالنبي إلياس استنزل من السماء ناراً ليحرق كهنة بعل؛ وأليشع[5] جاء بدببة كي تفترس الأطفال الاثني والأربعين الذين نعتوه بـ«الرأس الأقرع». ولكن هذه معجزات نادرة، ووقائع تصعب محاكاتها.

هنالك مَن قد يعارضنا فيقول: إن الشعب اليهودي كان شديد الجهل وعلى درجة كبيرة من الهمجية. فقد ورد[6] أن موسى، إبان حربه على المديانيين[7]، أمر بقتل جميع الأطفال من الذكور، وجميع الأمهات، وبتقاسيم الغنائم. وقد عثر المنتصرون في معسكر أعدائهم على ٦٧٥٠٠٠ غنمة، و٧٢٠٠٠ بقرة، و٦١٠٠٠ حمار، و٣٢٠٠٠

١- آسا: ثالث ملوك مملكة يهوذا (١٩١١-٨٧١ ق. م). (م)

٢- **سفر الملوك** الكتاب الثالث، الإصحاح الخامس عشر، ١٤؛ المصدر نفسه، الإصحاح الثاني والعشرون، ٤٤.

٣- **سفر الملوك**، الكتاب الرابع، الإصحاح السادس عشر.

٤- المصدر نفسه، الكتاب الرابع، الإصحاح الثامن عشر، ٣٨ و٤٠؛ المصدر نفسه، الكتاب الرابع، الإصحاح الثاني، ٢٤.

٥- أليشع: من أنبياء اليهود، تلميذ النبي إيليا (إلياس) وخليفته، قام بدور مهم في تنصيب الملك يهوا (٨٤٢-٨١٣ ق. م) على عرش إسرائيل وحرّضه على إبادة ذرية آحاب الذي أدخل عبادة بعل إلى المملكة. (م)

٦- **سفر العدد**، الإصحاح الحادي والثلاثون.

٧- لم تكن مديان تُعتبر جزءاً من أرض الميعاد، وإنما هي ناحية صغيرة من بلاد الأدوميين في العربية البتراء؛ تمتد شمالاً من نهر أرنون وتنتهي عند نهر زرد وسط الصخور، عند الشاطئ الشرقي للبحر الميت؛ تسكنها اليوم عشيرة عربية. يبلغ طولها ما يقارب من ثمانية فراسخ، وعرضها دون ذلك بقليل.

عذراء. وقد تقاسموا هذه الغنائم وقتلوا الباقي. بل زعم عدة مفسرين أنه ضُحّي لله باثنتين وثلاثين عذراء[1].

ذلك أن اليهود كانوا يقدّمون للإله ضحايا بشرية؛ تشهد على ذلك تضحية يفتاح بابنته[2]، ويشهد على ذلك مصرع الملك أجاج[3] الذي قطّعه الكاهن صموئيل إرباً إرباً. بل إن حزقيال وعدهم، ليشّد من عزيمتهم، بأكل اللحم البشري: «سوف

---

١ من المؤكد بحسب النص (**سفر القضاة**، الإصحاح الحادي عشر، ٣٩) أن يفتاح قد ضحى بابنته. وبهذا الصدد يقول دوم كالمت في «مقالة حول نَذْر يفتاح»: «إن الله لا يرحب بمثل هذه النذور؛ لكنه يرغب في أن يتم الوفاء بها متى ما التزم بها الناذر، ولو بهدف معاقبة مَن ينذر مثل تلك النذور، أو ردع مَن كان سيستخف بنذرها لولا خوفه من تنفيذها». وقد أدان القديس أوغسطينوس ومعظم آباء الكنيسة فعلة يفتاح، وإن يكن قد ورد في النص المقدس (**سفر القضاة**، الإصحاح الحادي والعشرون، ٢٩) أنه «كان **ممتلئاً** بروح الله». كذلك، يكيل بولس في **رسالته إلى العبرانيين** (الفصل الحادي عشر، ٣٢) المديح ليفتاح ويضعه على قدم من المساواة مع صموئيل وداود.

أما القديس بيرونميوس فيقول في **رسالته إلى يوليانوس**: «لقد ضحّى يفتاح بابنته في سبيل الله، ولهذا السبب رفعه بولس الرسول إلى مرتبة القديسين».

وكلها آراء متضاربة لا يجوز لنا أن نبدي رأينا فيها، بل خير لنا ألا يكون لنا فيها رأي.

٢- جاء في **سفر العدد** أن الله أمر موسى بالتضحية باثنتين وثلاثين نفساً. وقد ذهب المفسِّرون إلى أن المقصود اثنتان وثلاثون عذراء. (م)

٣- يمكننا اعتبار مصرع الملك أجاج تضحية حقيقية. فقد كان شاؤل جعل من ملك العماليق هذا أسير حرب، وشاء العفو عنه؛ لكن الكاهن صموئيل أمره بألا يوفِّر أحداً، قائلاً له بالحرف الواحد (**سفر الملوك**، الإصحاح الخامس عشر ٣٢): «افتك بالجميع، من الرجال، إلى النساء، إلى الأطفال، بل إلى الرضّع أيضاً».

«وقد مزّق صموئيل الملك أجاج إرباً إرباً، أمام الرب، في جلجل».

يقول دوم كالمت: «إن الحميّة الدينية التي كانت تعتمل في نفس هذا النبي وضعت السيف في يده، في تلك المناسبة، كي يثأر لمجد الرب ويفحم شاؤل».

لقد اجتمع في تلك المغامرة المشؤومة نَذْر، وكاهن، وضحية؛ فالمشهد، إذاً، هو مشهد تقديم أضحية.

إن جميع الشعوب التي وصَلنا تاريخها قد ضحت بالبشر في سبيل الله، فيما عدا الصينيين. ←

تأكلون، يقول، الحصان والفارس؛ سوف تشربون من دماء الأمراء». ويرى العديد من المفسّرين أن آيتين من هذه النبوءة تنطبقان على اليهود أنفسهم، وبقية الآيات على

يورد فلوطرخوس في **المسائل الرومانية** (الباب ٨٢) أن الرومان أنفسهم قدّموا أضاحي بشرية في عهد الجمهورية.

وفي تعليقات قيصر عن **عادات الجرمان وأعرافهم** (الكتاب الأول، الفصل ٢٤) جاء أن الجرمان كانوا سيضحّون بالرهائن الذين سلّمهم إياهم قيصر لولا أنه حرّرهم بانتصاره.

وقد كنتُ نوّهت، في غير هذا النص، بأن ذلك الانتهاك لشريعة الأمم بحق رهائن قيصر، وتلك الضحايا البشرية التي كانت تُذبح - وهذا ما يزيد في فظاعتها - بأيدي النساء، من شأنهما أن يكذّبا بعض الشيء ما يكيله تاقيطوس من إطراء للجرمان في كتابه **عادات الجرمان وأعرافهم**. ويبدو أن تاقيطوس كان يسعى في هذا النص إلى هجاء الرومان أكثر منه إلى مديح الجرمان الذين كان جاهلاً بهم.

لنشر هنا، بالمناسبة، إلى أن تاقيطوس كان يؤثر الهجاء على الحقيقة. فهو يسعى إلى أن يجعل كل شيء مقيتاً، بغيضاً إلى النفس، بما في ذلك الأفعال العديمة الأهمية. ولئن يكن فكره يُعجِب الناس بقدر ما يعجبهم أسلوبه تقريباً، فذلك لأنهم يحبون النميمة والتنكيت.

لنعد إلى القرابين البشرية. لقد كان آباؤنا يضحّون بها على غرار الجرمانيين، وتلك هي أعلى درجات الغباء التي جُبلت عليها طبيعتنا عندما تُتْرَك لنفسها، وإحدى ثمار ضعف بصيرتنا. لقد قلنا: إنه يتوجب أن نقدّم لله أثمن وأجمل ما عندنا؛ وبما أننا لا نملك ما هو أثمن من أولادنا، لذا يتعين علينا أن نختار أجملهم وأصغرهم سناً لنقدّمهم قرابين للرب.

يقول فيلون إن الناس في أرض كنعان كانوا يضحّون أحياناً بأولادهم، قبل أن يأمر الله إبراهيم بأن يضحي له بابنه الوحيد، إسحق، كي يختبر إيمانه.

ويقول أوسابيوس، نقلاً عن سنكن يتن [مؤرخ بيروتي عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد (م)]، إن الفينيقيين كانوا في الأوقات العصيبة يضحّون بأعز أولادهم إلى قلوبهم، وإن إيلوس ضحّى بابنه ياهود في الفترة عينها تقريباً التي اختَبر فيها الله إيمان إبراهيم. من الصعب سبر أعماق ظلمات تلك العصور القديمة؛ ولكن من المؤكد جداً، مع الأسف، أن تلك الأضاحي الرهيبة كانت شائعة في كل مكان تقريباً؛ ولم تمتنع عنها الشعوب إلا طرداً مع تمدّنها: فالتهذيب يجلب الإنسانية.

الحيوانات الآكلة للحوم. عبثاً نبحث في مجمل تاريخ هذا الشعب عن لمسة كرم، أو شهامة، أو إحسان؛ ولكن عبر غيمة الهمجية البشعة والطويلة الأمد هذه تنبثق على الدوام أشعة تَسامُح كوني.

إلى العمونيين[1] يقول يفتاح الملهَم من الله الذي ضحّى في سبيله بابنته: «أليس لكم الحق في ما منحكم إياه إلهكم شموس؟ تقبلوا إذاً استملاكنا للأرض التي وعدنا بها إلهنا». هذا تصريح واضح دقيق، ودلالاته بعيدة المدى؛ وهو يقطع الدليل على كل حال على أن الله كان يسمح بوجود الإله شموس. فالكتاب المقدّس لا يقول: «أنتم تعتقدون أن لكم الحق في الأراضي التي تزعمون أنه قد منحكم إياها الإله شموس»، بل يقول، بالحرف الواحد: «لكم الحق».

إن قصة ميخا واللاوي، الواردة في الفصلين السابع عشر والثامن عشر من **سفر القضاة**، تقدم دليلاً قاطعاً آخر على التسامح والحرية الدينية الواسعة اللذين كانا سائدين لدى اليهود آنذاك. فوالدة ميخا، زوجة إفرائيم الثرية، كانت قد ضيّعت ألف ومئة قطعة نقد من الفضة؛ ولمّا عوضّها ابنها عنها ارتأت أن تكرِّس هذا المال للربّ، فأوصت على نحت تماثيل وبَنَت معبداً صغيراً. وقد أشرف أحد اللاويين[2] على خدمة هذا المعبد مقابل طعامه وعشر قطع من الفضة سنوياً، بالإضافة إلى رداء ومعطف. وكان تعقيب ميخا[3]: «مِن الآن سيغدق الله عليّ بالخير، فقد أصبح عندي كاهن من سلالة لاوي».

بيد أن ستمئة رجل من قبيلة دان، كانوا يسعون إلى الاستيلاء على قرية من قرى المنطقة للاستقرار فيها، احتاجوا إلى كاهن لاوي في صفوفهم كيما يعضد الله مشروعهم؛ فما كان إلا أن قصدوا ميخا واستولوا على ردائه المقدس وأصنامه وكاهنه اللاوي، بالرغم من تأنيب هذا الأخير ومن عويل ميخا وأمه. وهاجموا بعد ذلك، بكثير من الوثوق والتصميم، قرية تدعى لشم وأضرموا فيها النار وقتلوا كل من فيها،

١- **سفر القضاة** (الإصحاح الحادي عشر، ٢٤).

٢- اللاويون: أحد أسباط إسرائيل الاثني عشر، كُرِّس أفراده لخدمة الشعائر الدينية. وقد اعتُرف له بهذا الحق نظراً إلى إخلاصه لله في الصحراء عند الخروج من مصر. انقرض هذا السبط بعد العودة من السبي البابلي. (م)

٣- **سفر القضاة** (الإصحاح السابع عشر، الآية الأخيرة).

وذلك على جاري عادتهم. وقد أطلقوا اسم دان على لشم تخليداً لانتصارهم، ورفعوا صنم ميخا فوق مذبح؛ والأجدر بالانتباه بعدُ أن يونان، حفيد موسى، غدا كبير كهنة ذلك المعبد حيث كانت تؤدى فيه مراسم العبادة لإله إسرائيل ولصنم ميخا معاً.

بعد موت جدعون[1]، عَبَد العبريّون بعل بيروت على مدى عشرين عاماً، وتخلوا عن دين أدوناي، ومع ذلك لم يرتفع صوت زعيم أو حاكم أو كاهن واحد يدعو إلى الثأر. لقد كانت جريمتهم عظيمة، إني أقرّ بذلك؛ ولكن لئن غُضّ النظر عن عبادة الأصنام تلك، فكم كانت الاختلافات داخل الدين الحق أَولى بأن تُعامَل بالمثل!

المثال الذي يضربه بعضهم دليلاً على وجوب التعصب وعدم التسامح هو ما فعله الربّ بالفلسطينيين[2]: فبعد أن كان سمح لهم بالاستيلاء على تابوت عهده في إحدى المعارك، عمد إلى معاقبتهم بإنزاله بهم داءً مشيناً يشبه التهاب البواسير، وبتحطيمه تمثال داجون[3]، وبإرساله أفواجاً من الجرذان إلى حقولهم. ولكن حين سعى الفلسطينيون إلى التخفيف من حدة غضبه بأن أعادوا تابوت العهد، مقطوراً ببقرتين تُرضِعان عجليهما، وقدّموا لله خمسة جرذان وخمسة شروج من الذهب، أمات الرب سبعين مِن قُدامى إسرائيل وخمسين ألفاً من أفراد الشعب لأنهم نظروا

١- جدعون: أحد قضاة إسرائيل، جمع أسباط منسى وأشير وزبولون ونفثالي لمحاربة المديانيين (القرنين الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد). انتصر في معركة ليلية على المديانيين وقتل ملكَيْهما انتقاماً لإخوته. (م)

٢- الفلسطينيون: شعب قديم أعطى اسمه لفلسطين، ولا يزال أصله مجهولاً. إلا أنه، في مطلع القرن الثاني عشر ق. م ساهم، إلى جانب «شعوب البحر»، في غزو مصر. وقد احتل هذا الشعب الساحل الجنوبي من بلاد كنعان، وشكّل من ثم اتحاداً كونفدرالياً مؤلفاً من خمس مدن هي غزة، وعسقلان، وأشدود، وعقرون وجت. وقد أخضع الملك داود الفلسطينيين في القرن العاشر ق. م، وبعدئذ خضعوا لإمبراطوريات بلاد ما بين النهرين ودفعوا لها الجزية. ومع مرور الزمن اتّسم الفلسطينيون بالطابع السامي وفقدوا طابعهم الخاص. (م)

٣- داجون: إله العموريين. كان يكرَّم في المنطقة الوسطى للفرات تحت اسم داجان؛ انتشرت عبادته فتجاوزت منطقة الفرات السفلي وبلغت موطن الفلسطينيين فأصبح الإله الأعظم لديهم. وكان هذا الإله يكرَّم كذلك لدى الفينيقيين. (م)

إلى تابوت العهد. رداً على هذا المدّعى نقول: إن عقاب الله لم ينزل بحق عقيدة، أو مسألة خلافية في الدين، أو أي عبادة للأصنام.

لو شاء الله أن يعاقب عبادة الأصنام لكان قضى على جميع الفلسطينيين الذين تجرؤوا على الاستيلاء على تابوت عهده، والذين كانوا يعبدون داجون؛ لكنه، بالمقابل، أمات خمسين ألف وسبعين نفراً من شعبه لا لشيء إلا لأنهم نظروا إلى تابوت العهد الذي حَرّم عليهم النظر إليه. فبقدر ما كانت قوانين ذلك الزمن وأعرافه وقواعد الحياة اليهودية تختلف عما نعرفه الآن، كذلك تبقى دروب الله، التي لا يُسبر لها غور، مغايرة لدروبنا. يقول دُوم كالمِتّ الحصيف[1]: «إن القسوة الممَارسة بحق ذلك العدد الهائل من البشر لن تبدو مبالَغاً فيها إلا في نظر أولئك الذين لم يدركوا إلى أي حد كان الرب يرغب في أن يكون موضع خشية وتوقير لدى شعبه، والذين لا يحاكِمون رؤى الله ومقاصده إلا على الضوء الخافت لعقلهم».

إن الله لا يعاقِب إذاً على التعبّد بعبادة أجنبية، بل يعاقب على انتهاك وتدنيس عبادته هو، أو على الفضول المسرف، أو المعصية، أو ربما النزوع إلى التمرد. ومن الواضح أن مثل هذه العقوبات حكر على الله في النظام الديني اليهودي. وعليه، نعود فنكرر أن تلك الأزمان والأعراف لا تمتّ بصلة إلى أزماننا وأعرافنا.

وفي قرون لاحقة، أخيراً، عندما قصد نعمان، عابد الأصنام، أليشع ليسأله عمَّ إذا كان مباحاً له أن يلحق بملكه[2] في معبد رمنون[3]، و« يتعبد معه» فيه، أفما أجابه أليشع الذي كان رمى بالأطفال فريسة للدببة: «اِذهب بأمان»؟

بل أكثر من ذلك بعد: فقد أمر الرب إرميا بأن يلفّ حول عنقه حبالاً، وأطواقاً،

١- دوم أنطوان كالمت: راهب وشارح بندكتي (١٦٧٢-١٧٥٧)، كان واحداً من مراجع ڤولتير في **قاموسه الفلسفي**، وإن يكن قد سخر منه لتأليفه كتاباً عن «**رؤى الأرواح ومصّاصي الدماء**». (م)

٢- **سفر الملوك** (الكتاب الرابع، الإصحاح الخامس، ١٨ و١٩).

٣- رمنون أو رمّانو: إله سوري كان يُعبد أيام برحدد الثاني (القرن التاسع ق. م). معنى اسمه «المُرعِد»، فهو بالتالي شبيه الإله حدد، ومنه اسم مدينة برمانا في لبنان، أي بيت رمّانو. وتوجد بلدة سورية في محافظة طرطوس تحمل نفس الاسم. (م)

وأنياراً[1]، وأن يرسلها من ثم إلى ملوك موآب، وعمون، وأدوم، وصور، وصيدون،

١- إن الذين يجهلون العادات السائدة في العصور القديمة، ولا يحاكِمون الأمور إلا بالإحالة إلى ما يشاهِدون من حولهم، قد يستغربون هذه التصرفات الغريبة؛ ولكن يجب أن نتذكر أنه في مصر، وفي أجزاء واسعة من آسيا، كان يصار، آنذاك، إلى التعبير عن الأمور بالصور، والحروف الهيروغليفية، وبالرموز.

إن الأنبياء، الذين كانوا يُسمّون عرّافين عند المصريين وعند اليهود، ما كانوا يلجؤون للتعبير عن أفكارهم إلى الاستعارات والكنايات فحسب، بل كانوا يصوّرون، أيضاً، بالرموز الأحداث التي يتنبؤون بها. وهكذا فإن إشعيا، أول الأنبياء اليهود الكبار الأربعة، أخذ لوحاً كبيراً (الإصحاح الثامن) وكتب عليه «حاش بز» - أي تموَّني بسرعة - وبعد ذلك اقترب إلى النبيّة فحبلت وأنجبت صبيّاً دعاه مهير - شلال - حاش - بز: وهذه كنايات عن الآفات التي ستحل باليهود على أيدي المصريين والآشوريين.

يقول هذا النبي (الإصحاح السابع، الآيات ١٥، ١٦، ١٨، ٢٠): «قبل أن يبلغ الطفل السن التي يأكل فيها الزبد والعسل ويعرف كيف يرفض الشر ويختار الخير، فإن الأرض التي أنتم لها مبغضون تُحرَّر من أيدي ملكيها الاثنين. وفي ذلك اليوم يُصَفِّر الرب للذباب الذي في أقصى ترع مصر وللنحل الذي في أرض أشور، فتأتي وتحل جميعها في الأودية الخربة وفي شقوق الصخور وفي كل غاب الشوك وفي كل المراعي. وفي ذلك اليوم يمسك الربّ بموسى مستأجرة ويحلق كل لحية ملك أشور وشعر رجليه».

هذه النبوءة عن النحل واللحية وشعر الرجلين المحلوقتين، لا يمكن أن تُفهم إلا من قِبل الذين يعرفون أنه كان من دارج العادة أن تُستدعى أسراب النحل على صوت مزمار، أو أي آلة ريفية أخرى، وأن أعظم عار يمكن إلحاقه برَجل هو حلق لحيته، وأن ما كان يسمّى بـ«شعر الرجلين» إنما هو شعر العانة، وأن هذا الشعر ما كان يُحلَق إلا في حال الإصابة بأمراض نجسة، كالجذام. وجميع هذه الصور، الغريبة كليا عن أسلوبنا، لا تعني شيئا آخر سوى أن الربّ سيخلّص شعبه من الاضطهاد خلال سنوات معدودات.

وإشعيا نفسه (الإصحاح العشرون) هو مَن يسير عارياً تماماً ليشير إلى أن ملك أشور سيستاق من مصر ومن الحبشة جمهرة كبيرة من الأسرى الذين لن يجدوا ما يسترون به عريهم.

وحزقيال (الإصلاح الرابع وما يليه) يأكل الوعاء الجلدي الذي قُدّم له: بعد ذلك يدهن خبزه بالخراء ويبقى مستلقياً على جنبه الأيسر لمدة ثلاثمائة وتسعين يوماً، وعلى جنبه الأيمن لمدة أربعين يوماً، ليُنْذِر اليهود بأنهم سيفتقدون الخبز، وليحدد عدد السنوات ↲

ويقول لهم، على لسان الرب: «لقد أعطيت أراضيكم كلها إلى نبوخذنصّر، ملك بابل

التي سيدوم خلالها أسرهم. وقد ربط نفسه بالقيود، التي ترمز إلى قيود الشعب، وقصّ شعر رأسه ولحيته وقسّمه ثلاثة أقسام: الثلث الأول يشير إلى الذين سيهلكون في المدينة، والثاني إلى الذين سيُقتَلون حول الأسوار، والثالث إلى الذين سيُساقون إلى بابل.

وقد جامع النبي عُزيّا (الإصحاح الثالث) امرأة زانية اشتراها بخمسة عشر شاقلاً من الفضة وبيحمور ونصف يحمور من الشعير، وقال لها: «تقعدين أياماً كثيرة، لا تزنين ولا تكونين لرجل: لأن بني إسرائيل سيقعدون أياماً كثيرة بلا مَلك، وبلا رئيس، وبلا ذبيحة، وبلا هيكل، وبلا رداء مقدس». وبكلمة واحدة، إن الأنبياء، والعرّافين، والراجمين بالغيب لا يتكهنون عموماً بشيء ما لم يغلّفوه برمز من الرموز.

وما زاد إرميا على أن تَقيَّد بالعادات المتبعة عندما ربط نفسه بالحبال، ووضع أطواقاً حول عنقه وأنياراً على ظهره، لينبئ عن استعباد أولئك الذين سيَرسل إليهم هذه الرموز.

ولو أمعنا النظر في الأمر لأدركنا أن تلك الأزمنة تنتمي إلى عالم قديم مغاير تماماً للعالم الجديد: فالحياة المدنية والشرائع، وأساليب الحرب، والطقوس الدينية، كلها تختلف عظيم الاختلاف. حسبنا أن نفتح ديوان هوميروس أو كتاب هيرودوتس الأول حتى ندرك أنه ليس ثمة شبه على الإطلاق بيننا وبين شعوب العصور القديمة الأولى، وأن علينا بالتالي أن نلزم الحذر في حكمنا عندما نسعى إلى أن نقارن بين أعرافها وأعرافنا.

حتى الطبيعة ما عادت اليوم كما كانت عليه في الماضي. فقد كان للسحرة عليها سلطان فقدوه اليوم. كانوا يرقون الثعابين، ويستحضرون الأموات، الخ. وكان الله يبعث بالرؤى فيتولى البشر تفسيرها. وكانت مَلَكَة التنبؤ شائعة. كما كانت تُشاهد تحولات وامسّاخات على غرار انقلاب نبوخذنصّر إلى ثور، وزوجة لوط إلى تمثال من ملح، وخَمس مدن إلى بحيرة من القار.

كما كان هنالك أنواع من البشر لم يعد لها وجود. فعِرق رفائيم، وأنيم، ونفيليم وأناسيم مِن العمالقة، قد اختفى. يقول القديس أوغسطينوس، في الكتاب الخامس من مدينة الله، إنه شاهد سِنّ عملاق قديم يبلغ حجمها مئة ضعف ضرس من أضراسنا. ويتكلم حزقيال (الإصحاح السابع والعشرون، ٢) عن أقزام جاماديين شاركوا في القتال أثناء حصار صُور ولم يكن يتجاوز طول الواحد منهم ذراعاً واحدة. وفي جميع أشباه هذه المواضيع كان المؤلفون الدينيون يتفقون مع المؤلفين الدنيويين. فالأمراض وعلاجات هذه الأمراض كانت تختلف تماماً عما هي عليه في أيامنا: فقد كان المسوسون يطبّبون بجذر نبات يعرف باسم بَرَد، كان يثبَّت على حلقة توضع تحت أنفهم.

وخادمي»[١]. ها نحن أمام ملك من عبدة الأصنام يُعرَّف بأنه خادم الله وأثير لديه.

وحتى إرميا، الذي كان الملك اليهودي صدقيا[٢] قد زج به في السجن، نصح باسم الله ذلك الملك، بعد أن نال عفوه، بتسليم نفسه إلى ملك بابل[٣]: «إن سلّمت نفسك إلى عساكره، قال، فإن روحك سوف تحيا». ثم إن الرب ينحاز أخيراً إلى جانب ملك من عَبَدة الأصنام فيسلّمه تابوت العهد، الذي هلك خمسون ألف وسبعون يهودياً لمجرد أنهم نظروا إليه، ويسلّمه قدس الأقداس وبقية الهيكل الذي كان بناؤه قد كلّف مئة ألف وثمانية آلاف مثقالاً من الذهب، ومليوناً وسبعة عشر ألف مثقال من الفضة، وعشرة آلاف درهم من الذهب تبرّع بها الملك داود وقادة جيشه من أجل بناء بيت الله؛ وهذا ما يؤلّف في مجموعه، مع عدم حساب ما أنفقه سليمان الحكيم، مبلغاً يناهز تسعة عشر ملياراً واثنين وستين مليوناً بحساب عملتنا اليوم. لم يسبق قط أن كوفئت عبادة الأصنام على هذا النحو. ولا يغيب عني أن تلك الأرقام مُبالغ فيها، وأنه لا يُستبعد أن يكون الناسخ قد أخطأ في نقلها؛ ولكن حتى لو اختصرنا إجمالي المبلغ إلى نصفه، إلى ربعه، إلى ثمنه، فإنه يبقى مذهلاً، مثله في ذلك مثل تلك الثروات الطائلة التي يقول هيرودوتس إنه رآها رؤية العين في معبد إفسوس. على أي حال، تبقى الكنوز المادية عديمة الأهمية في نظر الله؛ أما الكنز الذي لا يقدّر بثمن فهو لقب «خادمي» الذي أعطاه لنبوخذنصّر.

أخيراً، إن كل ذلك العالَم القديم كان مختلفاً عن عالمنا إلى حد يتعذر معه علينا أن نستخلص منه أي قاعدة للسلوك. ولئن يكن البشر، في تلك العصور القديمة البعيدة، اضطهدوا بعضهم بعضاً وعانوا من الاضطهاد بدورهم بسبب دينهم، فإنه لا يتعيّن علينا أن نحاكي قساوتهم في ظل شريعة العفو والنعمة.

١- إرميا: (الإصحاح السابع والعشرون، ٦)

٢- صدقيا: آخر ملوك يهوذا (٥٩٧-٥٨٦ ق. م)؛ اسمه الحقيقي متّنيا، إلا أن نبوخذنصّر بدّله إلى صدقيا حين نصّبه على العرش مكان ابن أخيه يهوياكين. وقد أقسم يمين الولاء لنبوخذنصّر الثاني، إلا أنه انساق لتحريض حكّام مصر والبلدان المجاورة، فشقّ عصا الطاعة - على الكلدانيين - مما دعا نبوخذنصّر إلى ضرب الحصار على أورشليم وإعادة احتلالها؛ فأُسر صدقيا وسُمِلت عيناه واقتيد إلى بابل ليسجن فيها. (م)

٣- إرميا (الإصحاح الثامن والعشرون، ١٧)

لم يكن الله[1] أقل محاباة لقورش أو كسرى أو من نسميه نحن سيروس؛ فقد أسماه «مسيحه»، «ممشوحه»، مع أنه لم يمشح[2]، بحسب المعنى الشائع لهذه الكلمة، بل كان من أتباع دين زرادشت؛ لقد أسماه «راعيه» مع أنه كان مغتصِباً في نظر البشر. وعبثاً نبحث في **الكتاب المقدس** عن مثال للاصطفاء أعظم من هذا.

وقد جاء في سفر ملاخي: «إن اسم الله عظيم لدى جميع الأمم من المشرق إلى المغرب؛ وفي كل مكان تقدّم له القرابين الطاهرة». إن الله يخص بعنايته أهالي نينوى، عَبَدة الأصنام، على غرار ما يفعل مع اليهود؛ إنه يهددهم تارة ويغفر لهم تارة أخرى. ومع أن «ملكي صادق»[3] لم يكن يهودياً، فقد كان يقدم الذبائح لله؛ وبلعام[4]، عابد الأوثان، كان نبياً. إذاً، فالكتاب **المقدس** لا يفيدنا بأن الله كان متسامحاً مع سائر شعوب الأرض قاطبة فحسب، بل بأنه كان يخصّها أيضاً برعاية أبوية: فكيف نتجرأ على التعصب وعدم التسامح!

١- أشعيا (الإصحاحان الرابع والستون والخامس والستون)

٢- المشح: طقس ديني يهودي ومسيحي يُمسح بموجبه الإنسان بالزيت لتكريسه أو تقديسه، ومنه جاء اسم المسيح. (م)

٣- تجعل الأعراف السائدة من ملكي صادق (ملك العدالة) ملكاً على شاليم (أورشليم) في بلاد كنعان زمن إبرام (إبراهيم). وعند عودة هذا الأخير منتصراً من حرب مع الميلاميين، بارك ملكي صادق أبرام الذي حيّاه مُطلِقاً عليه لقب «كاهن إيل عليون» وأعطاه عُشر غنيمته. (م)

٤- بلعام: نبي نهراني. جاء في كتاب **العهد القديم** أن بلك، ملك مؤاب، أرسله ليلعن العبرانيين القادمين لاجتياح أرض المؤابيين. ولكن بلعام، لما رأى خيام الإسرائيليين، لم يستطع إلا أن يبارك شعب يَهَوَه. (م)

الفصل الثالث عشر

تسامح اليهود اللامحدود

كثيرة هي إذاً الأمثلة عن التسامح سواء في عهد موسى، أو في عهد القضاة والملوك. أكثر من ذلك[1]: فموسى يكرر لمرات عدة: «إن الرب يعاقب الآباء في أبنائهم إلى رابع أجيالهم». وقد كان هذا التهديد ضرورياً بالنسبة إلى شعب لم يكشف له الله عن خلود النفس، ولا عن العذابات والمكافآت في الآخرة. فهذه الحقائق لم يأت لها ذكر في «الوصايا العشر»، ولا في شرائع «**سفر اللاويين**» أو «**سفر التثنية**». فتلك عقائد كانت سائدة عند الفرس، والبابليين، والمصريين، والإغريق، وأهل جزيرة كريت، ولكنها لم تكن تؤلف البتة جزءاً من عقائد الدين اليهودي. فموسى لا يقول: «أكرم أباك وأمك، إن أردت أن تصعد إلى السماء»، وإنما «أكرم أباك وأمك كي تعيش طويلاً على الأرض». وهو لا يهدد اليهود إلا بالآلام الجسدية[2]، من جَرَبٍ متقيّح، إلى قروح خبيثة في الركب وبطّات الأرجل، أو بالمعاناة من خيانات زوجاتهم، أو بالاقتراض بالربا من الأغراب مع عدم الإقراض بالربا، وبالموت جوعاً، وبالاضطرار إلى افتراس أبنائهم؛ ولكنه لم يقل لهم مرة واحدة، بالمقابل، إن نفوسهم الخالدة وإنها سوف تعاني من العذابات بعد الموت، أو سوف تنعم، على العكس، بالغبطة والسعادة. وبما أن الله كان هو مَن يقود بنفسه شعبه، فقد كان يكافئه أو يعاقبه، على الفور، على ما يأتيه من أعمال صالحة أو سيئة. كل شيء كان دنيوياً. وقد تعسّف واربرتون[3] في تأويل هذه

١- **سفر الخروج** (الإصحاح العشرون، ٥)

٢- سفر **تثنية الاشتراع** (الإصحاح الثامن والعشرون)

٣- وليم واربرتون (١٦٩٨-١٧٧٩): كاتب ورجل دين إنكليزي له كتاب شهير عن «**شريعة موسى الإلهية**». وكانت له معرفة بتاريخ مصر القديمة، ويقال إنه مهّد الطريق أمام شامبوليون في فكّ الأبجدية الهيروغليفية. (م)

الحقيقة ليثبت أن شريعة اليهود كانت سماوية[1]. فما دام الله هو مليكهم وما دام يجازيهم على الفور على معصيتهم أو طاعتهم، لذا ما كان بحاجة لأن يُنزِل عليهم عقيدة احتفظ بها لزمن لن يعود فيه هو مَن يحكم شعبه. أما أولئك الذين يزعمون،

١- هنالك مقطع واحد في ناموس موسى يمكن أن يُستخلص منه أنه كان مطّلعاً على العقيدة السائدة عند المصريين والقائلة بأن النفس لا تموت مع الجسد؛ وهذا المقطع، البالغ الأهمية، يرد في الإصحاح الثامن عشر من **تثنية الاشتراع**: «لا تستشيروا العرّافين الذين يطلقون نبوءاتهم بعد التحري في الغيوم، ولا أولئك الذين يرقون الثعابين، أو يستنطقون روح فيثون، ولا قارئ الغيب، ولا العرّافين الذين يسائلون الموتى ويطلبون منهم الحقيقة».

يتضح من هذا المقطع أنه ما دام يصار إلى استحضار نفوس الموتى، فإن هذا السحر المزعوم يفترض بقاء النفوس بعد الموت. ولكن ربما لم يكن السحرة الذين تكلم عنهم موسى سوى دجّالين بدائيين، ليس لديهم فكرة واضحة عن الرقية التي كانوا يعتقدون أنهم يقومون بها. كانوا يوهمون الناس أنهم يرغمون الموتى على الكلام، وأنهم يعيدونهم، بقوة سحرهم، إلى الحالة التي كانت عليها أجسادهم عندما كانوا لا يزالون على قيد الحياة، وهذا حتى من دون أن يتساءلوا عما إذا كان يمكن، أو لا يمكن، أن يُستدل من عملياتهم المثيرة للسخرية على عقيدة خلود النفس. لم يكن السحرة فلاسفة يوماً، بل كانوا، على الدوام، مشعبذين يؤدون ألاعيبهم أمام أغبياء. وبوسعنا أيضاً أن نلاحظ أنه من المستغرب أن تكون لفظة **فيثون** قد وردت في **سفر التثنية**، وهذا قبل أن يتاح بزمن طويل للعبرانيين أن يعرفوا هذه المفردة اليونانية.

إن تلك اللغة تنطوي على إشكالات عويصة: فهي مزيج من الفينيقية، والمصرية، والسريانية، والعربية؛ وهذا المزيج القديم قد أصابه تحريف كثير اليوم. ولم تعرف العبرية قط سوى صيغتين للفعل: الحاضر والمستقبل؛ أما بقية الصيغ فينبغي حزرها عن طريق المعنى. وكثيراً ما كانت الصوائت المختلفة يعبَّر عنها بأحرف متماثلة؛ أو بالأحرى، لم تكن هذه الأحرف تعبّر عن الصوائت، ولم يفعل مبتدعو التنقيط سوى زيادة الطين بلّة. ثم إن لكل ظرف عشرين معنى مختلفاً؛ كما أن الكلمة الواحدة يمكن أن تعطي المعنى وعكسه.

أضف إلى هذا التعقيد جفاف اللغة وفقرها: فاليهود الذين حُرموا من الفنون ما كانوا بقادرين على التعبير عما يجهلونه. وخلاصة القول: إن العبرية بالمقارنة مع اليونانية أشبه ما تكون بلغة فلاّح قياساً إلى لغة الأكاديمي.

من قبيل الجهل، أن موسى قال بخلود النفس، فإنهم يجرّدون **العهد الجديد** من واحد من أهم امتيازاته على **العهد القديم**[1]. فمِن الثابت أن شريعة موسى ما كانت تنصّ إلا على عقوبات جسدية حتى الجيل الرابع. ولكن بالرغم من دقة بيان هذه الشريعة، وبالرغم من صريح قول الله بأنه سوف يعاقِب حتى الجيل الرابع، لا يتردد حزقيال في أن يعلن عكس ذلك لليهود، فيؤكد لهم[2] بأن الابن لن يتحمل وزر جور أبيه؛ بل يذهب إلى حد القول، على لسان الله[3]، إنه قد أعطاهم «تعاليم غير صالحة»[4].

مع ذلك أُدرج **سفر حزقيال** في لائحة الكتب الموحى بها من الله؛ صحيح أن الكنيس ما كان يَسمح لمن هم دون الثلاثين بالاطلاع عليه، كما يفيدنا القديس بيرونيموس،

١- **العهد الجديد**: هو القسم الثاني من **الكتاب المقدس**، يبتدئ بمجيء المسيح ويتألف من سبعة وعشرين سفراً، هي الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل ورسائلهم. أما **العهد القديم** فهو القسم الأول من **الكتاب المقدس**، ويحتوي على المعتقدات الدينية للشعب العبراني اليهودي وتاريخ هذا الشعب. ويتألف من تسعة وثلاثين سفراً؛ **الأسفار الخمسة الأولى** هي: **التكوين، الخروج، اللاويون، العدد، التثنية**؛ وهي الأسفار التي تتكلم عن تاريخ العبرانيين منذ بدء الخليقة، وتتضمن شريعة موسى. وتليها الأسفار التاريخية الستة، وأسفار النبوءات الخمسة عشر؛ والأسفار القانونية الثلاثة عشر. (م)

٢- حزقيال (الإصحاح الثامن عشر، الآية ٢٠)

٣- حزقيال (الإصحاح العشرون، ٢٥)

٤- رأي حزقيال هو الذي ساد، في النهاية، داخل الكنيس؛ ولكن بقي هنالك فريق من اليهود يعتقد، إلى جانب إيمانه بالعذابات الأبدية، بأن الله يحمّل الأبناء وزر أفعال الآباء الجائرة: وقد غدا هذا العقاب يطاول اليوم الجيل ما بعد الخمسين، علاوة على العذابات الأبدية التي تبقى غير مستبعَدة. وإننا لنتساءل كيف يمكن لأحفاد اليهود الذي لم يكن لهم ضلع في مصرع يسوع المسيح، وكيف يمكن لليهود الذين كانوا موجودين في أورشليم ولم يشاركوا في الجرم، أو سائر اليهود الذين كانوا منتشرين في بقاع أخرى من الأرض، كيف يمكن أن يعاقَبوا دنيوياً في أبنائهم، البريئين على غرار آبائهم؟ إن هذه العقوبة الدنيوية، أو بالأحرى هذه الطريقة المختلفة في العيش، التي تميّز اليهود عن الشعوب الأخرى، والتي قضت بأن يحترفوا التجارة من دون أن يكون لهم وطن، قد لا تُعتبر قصاصاً بالمقارنة مع العقوبات الأبدية التي يستنزلونها على أنفسهم إذا ما جحدوا إيمانهم، والتي يستطيعون تفاديها بارتدادهم الصادق إلى الإيمان.

وذلك خشية من أن يؤخذ الشبان بما تضمّنه من وصف فج لفسق الشقيقتين عُلّة وعُليبة[1]، في الإصحاحين السادس عشر والثالث والعشرين. خلاصة القول: كان **سفر حزقيال** مُعتمَداً على مرّ الأزمان رغم تعارضه الصريح مع تعاليم موسى.

أخيراً[2]، حين أُخذ بعقيدة خلود النفس في زمن الأسر في بابل على الأرجح، بقيت

١- علة وعليبة: شقيقتان مومسان جاء ذكرهما في **سفر حزقيال** الذي رمز بهما إلى فساد مملكة إسرائيل التي استسلمت لغزاتها الأجانب ولعبادة الأوثان. (م)

٢- إن الذين شاؤوا أن يجدوا في **أسفار موسى الخمسة** عقيدة الجحيم والفردوس، كما نتصورهما، قد اغترّوا وضلّوا؛ وقد نجم خطؤهم عن جدل باطل حول معنى الألفاظ؛ ففي النص اللاتيني للتوراة VULGATE تُرجمت كلمة «شيول» العبرية، التي تعني «الهاوية»، بـ«أنفرنوم» INFERNUM، كما ترجمت أنفرنوم اللاتينية إلى الفرنسية بـ ENFER أي «الجحيم». وقد استغل بعضهم هذا الالتباس للإيهام بأن العبرانيين عرفوا مفهومي «الترتاروس» (الجحيم) و«الهادس» (ملك الجحيم) كما قال بهما الإغريق، وبأن الأمم الأخرى عرفتهما من قبلهم ولكن تحت أسماء مختلفة.

لقد جاء في الإصحاح السادس عشر من **سفر العدد** (الآيات ٣١-٣٣) أن الأرض فغرت فاها تحت خيام قورح وداتان وأبيرام، وافترستهم مع خيامهم وكل ما كان لهم من أموال، ثم ألقت بهم، وهم أحياء، في لحدهم في الهاوية: ومن المؤكد أنه لم يرد في هذا المقطع ذِكر على الإطلاق لا لنفوس أولئك العبرانيين الثلاثة، ولا لعذابات الجحيم، ولا للقصاص الأبدي.

مِن المستغرب حقاً أن يكون **المعجم الموسوعي**، في معرض شرحه لكلمة **الجحيم**، قد ذكر أن العبرانيين القدامى **قالوا بوجوده**؛ فلو صدق هذا الادعاء لكان هنالك تناقض صارخ في **أسفار موسى الخمسة**. فكيف يمكن أن يكون موسى تكلّم في مقطع وحيد منفرد عن عذابات ما بعد الموت، وألا يكون قد تكلّم عنها في شريعته؟ إنهم يستشهدون بالإصحاح الثاني والثلاثين من **تثنية الاشتراع** (الآيات ٢١-٢٤)، ولكن مبتوراً؛ وهاكم النص بكامله: «لقد تحدّوني بما ليس إلهاً، وأغاظوني بأباطيلهم، وأنا أتحدّاهم بما ليس شعباً وأغيظهم بأمة غبيّة. لقد اشتعلت نار غضبي، ولسوف تتقد حتى أعماق الهاوية السفلى وتأكل الأرض وغلتها وتحرق أسس الجبال؛ ولسوف أجمع عليهم شروراً وآفات، وأنفِذ سهامي فيهم؛ ولسوف تراهم خاوين من الجوع؛ ولسوف تفترسهم كواسر الطير بعد أن تعمِل فيهم العضّ المرير؛ ولسوف أرسل فيهم أنياب زواحف الأرض والثعابين المسعورة». ←

هل ثمة علاقة بين هذه العبارات وبين فكرة العذابات الجهنمية كما نفهمها؟ إن هذه العبارات، إن دلت على شيء بالأحرى، فإنما على جهل اليهود القدامى بجحيمنا.

إن كاتب تلك المادة عن الجحيم يتحجّج أيضاً بمقطع من **سفر أيوب** (الإصحاح الرابع والعشرون، الآيات ١٥-١٩): «وعين الزاني ترصد العتماء، فيقول: لن تراني عين، ويضرب نقاباً على وجهه؛ ينقبون البيوت في الظلام، وفي النهار يغلقون على أنفسهم. لا يعرفون النور لأنه سواء عليهم الصباح وظِلّ الموت. خفيف هو على وجه المياه، ملعون نصيبه في الأرض؛ لن يمشي في طريق الكروم، وسيمضي من مياه الثلج إلى القيظ الحارق؛ لقد وقعوا في الخطيئة حتى قاع الهاوية»، أو «لقد شرّدت الهاوية من يقترف الخطيئة»، أو (طبقاً لـ **التوراة السبعينية**) «لقد أُستُحضِرت خطاياهم».

لقد أوردت المقاطع بتمامها وبحرفيتها وإلا لاستحال تكوين فكرة صحيحة عنها.

فهل هنالك، أرجوكم، كلمة واحدة يمكن أن يُستنتج منها أن موسى علّم اليهود تلك العقيدة البسيطة الواضحة القائلة بثواب وعقاب بعد الموت؟

ليس لـ **سفر أيوب** أي صلة بناموس موسى. ومن المرجّح، علاوة على ذلك، أن أيوب ما كان يهودياً؛ ذلك هو رأي القديس ييرونيموس في مسائله العبرانية عن **سفر التكوين**. فكلمة **شيطان** الواردة في **سفر أيوب** (الإصحاح الأول، ١، ٦، ١٢) ما كانت معروفة من قِبل اليهود ولن تعثروا لها على أثر في **أسفار موسى الخمسة**. ولم يتعلم اليهود ذلك الاسم إلا في بلاد الكلدانيين، على غرار اسمي جبرائيل وروفائيل المجهولَين لديهم قبل سبْيَهم إلى بابل. إذاً، لا يصح هنا الاستشهاد بأيوب.

وقد جيء أيضاً بذكر الإصحاح الأخير من **سفر إشعيا** (الآيتان ٢٣ و٢٤): «قال الرب: يكون من هلال إلى هلال، ومن سبت إلى سبت، أن كل ذي جسدٍ يأتي ليسجد أمامي؛ ويخرجون ويرون في المزابل جثث الناس الذين عصوا عليّ. إن دودهم لن يموت، ونارهم لن تنطفئ، ويكونون رذالة لكل ذي جسد حتى الشبع».

لئن رُميت تلك الجثث في المزابل، ولئن عُرضت لأنظار المارّة حتى الشبع، ولئن أكلها الدود، فذلك لا يعني أن موسى هدى اليهود إلى عقيدةِ خلود النفس؛ كما أن عبارة «نارهم لن تنطفئ» لا تعني أن الجثث المعروضة على أنظار الشعب تعاني من عذابات الجحيم الأبدية.

ثم كيف يصار إلى الاستشهاد بنص لإشعيا لقطع الدليل على أن اليهود تلقوا عقيدة خلود النفس في عهد موسى؟ فقد أطلق إشعيا نبوءاته، في العام ٣٣٨٠، طبقاً للحسابات

الزمنية العبرانية، في حين عاش موسى في نحو العام ٢٥٠٠؛ فثمة ثمانية قروناً تفصل بين الاثنين. إنها لإهانة للحسّ السليم، أو مجرد دعابة، عندما يسرف المرء في استغلال حرية الاستشهاد ليدّعي أنه أقام البرهان على أن مؤلّفاً بعينه قد عبّر عن معتقَد بعينه، بالرجوع إلى شذرة من مؤلّف آخر جاء بعده بثمانمئة عام، ولم يأت، أصلاً، بذكرٍ لذلك المعتقَد. وإنه لما لا مماراة فيه أن خلود النفس والعقاب والثواب بعد الموت، قد أُعلن عنها وأُقرّت ودُوِّنت في **العهد الجديد**؛ ومما لا مماراة فيه، أيضاً، أنه لم يأت لها ذِكر في أي موضع من **أسفار موسى الخمسة**. هذا ما قاله أرنو، الملقب بالكبير، [لاهوتي فرنسي، «١٦١٢-١٦٩٤»، دافع عن الجانسينيين ضد اليسوعيين (م)] بوضوح وقوة حجّة في دفاعه عن بور - رويال [دير في ضواحي باريس كان مركزاً للجانسينيين (م)].

ولئن آمن اليهود، مذّاك، بعقيدة خلود النفس، فإنهم لم يهتدوا إلى روحانيتها؛ فقد اعتقدوا، على غرار معظم بقية الأمم، أن النفس هي شيء طليق، أثيري، مادة خفيفة تحافظ على بعضٍ من شكل الجسد الذي كانت تحييه، وهذا ما سمي بـ«أشباح» الموتى أو أرواحهم. وقد تبنى هذا الاعتقاد بعض آباء الكنيسة. ففي الفصل الثاني والعشرين من كتاب **النفس** يقول ترتوليانوس: «نعرّف النفس، المولودة من نفس الله، بأنها خالدة، مادية، مصوَّرة، وبسيطة في جوهرها».

أما القديس إرانيوس فيقول في كتابه الثاني، الفصل الرابع والثلاثين: «إن النفوس غير مادية بالمقارنة مع الأجساد الفانية». ويضيف: «لقد علّمنا يسوع المسيح أن النفوس تحافظ على صورة الجسد». والحال أننا لسنا نرى أين علّمنا يسوع المسيح هذا المعتقد، كما يشقّ علينا أن نحزر مغزى كلام القديس إرانيوس.

ويبدي القديس هيلاريوس عن قدر أكبر من الجزم والموضوعية في شرحه على إنجيل متّى: فهو يعزو إلى النفس، بصريح العبارة، جوهراً مادياً «Corpoream naturae suae substantiam sortiuntur».

ويزعم القديس أمبروزيوس، في كتابه عن إبراهيم (الجزء الثاني، الفصل السابع) أنه لا ينبثق عن المادة شيء باستثناء جوهر الثالوث المقدّس.

قد يؤخذ على هؤلاء الكتّاب الموقَّرين قِصر باعهم في الفلسفة؛ ولكن لا بد لنا من التسليم بأن لاهوتهم كان في محصلة الحساب على قدر كبير من الصواب؛ إذ أنهم، على جهلهم بالطبيعة غير المفهومة للنفس، أكّدوا بأنها خالدة وأرادوها مسيحية.

نحن نعلم أن النفس روحانية، لكننا لا نعرف على الإطلاق ما هي الروح. ولئن شَكَتْ

فرقة الصدّوقيين[1] متمسكة بالاعتقاد بأن لا عقاب ولا ثواب بعد الموت، وأن مَلَكة الإحساس والتفكير تزول بزوالنا، أسوة بالقدرة على الحركة والقدرة على المشي

معرفتنا بالمادة من قصور كبير، فإنه يستحيل علينا، بالمقابل، أن نكوّن لأنفسنا فكرة واضحة عما هو غير مادي. نحن لا نعلم إلا القليل مما تحسّه حواسنا، ويتعذر علينا أن نعرف، بأنفسنا، ما يتجاوز هذه الحواس. إننا نزجّ ببعض مفرداتٍ من لغتنا العادية في غياهب الميتافيزيقا والثيولوجيا لنعطي أنفسنا فكرة، ولو سطحية، عن أشياء نقف عاجزين عن تصورها كما عن التعبير عنها؛ وبالاستناد إلى هذه المفردات نسعى إلى تقديم بعض الدعم، إذا أمكن، لَمَلكة فهمنا الضعيفة عندما ترتاد هذه المناطق المجهولة.

وهكذا نستخدم كلمة الروح التي تناظر **الرَوْح والريح** لنعبّر عن شيء غير مادي؛ ولمّا كانت هذه الكلمات: **الرُوح، الرَوْح، الريح**، تعيدنا بالرغم منا إلى فكرة جوهر طليق وخفيف، فإننا نبتسر منها أيضاً ما استطعنا كيما نتوصل إلى تصور الروحانية الخالصة؛ بيد أننا لا نصل أبداً إلى مفهوم واضح: بل نحن نجهل ما نقول عندما نتلفظ بكلمة **جوهر** [كلمة جوهر substance منحوتة بالفرنسية من SUB أي تحت وSTANCE أي الوجود، (م)]؛ فهذه الكلمة تعني، حرفياً، **ما هو موجود تحت**، وبذلك تنبّهنا إلى أنها غير قابلة للفهم: فما هو ذاك الذي هو موجود تحت؟ إن اكتناه أسرار الله ليس من قسمتنا في هذه الحياة الدنيا. فنحن، فيها، غارقون في ظلمات عميقة؛ ونحن نقاتل بعضنا بعضاً، ونخبط خبط عشواء وسط هذه الدياجير، دون أن نعرف حق المعرفة من أجل ماذا نقاتل.

إذا شئنا أن نُعمِل الفكر ملياً في مجمل ما تَقدم فلن نجد مناصاً من القول إن ما من إنسان عاقل إلا ويستخلص من كل هذا أنه ينبغي أن نتسامح مع آراء الآخرين وأن نستأهل هذا التسامح بدورنا.

هذه الملاحظات، بجملتها، ليست بعيدة عن صلب الموضوع الذي يتلخص في معرفة ما إذا كان على البشر أن يكونوا متسامحين مع بعضهم بعضاً. فلئن وقعت أخطاء في هذا الجانب أو ذاك عبر الأزمان فهي تُظهر، أيضاً، أن البشر قد اضطروا، في جميع الأزمان، إلى معاملة بعضهم بالحِلْم والتسامح.

1- الصدّوقيون: جماعة من اليهود جاء ذكرهم في كتاب **العهد الجديد** بوصفهم طائفة مخاصمة للفرّيسيين. كان الصدّوقيون قلّة من المثقفين، جلّهم أغنياء وذوو مكانة اجتماعية رفيعة. وقد يكون اسمهم نسبة إلى صادوق، رئيس الكهنة أيام داود وسليمان، الذي حُفظت رئاسة الكهنوت في أسرته حتى عصر المكابيين. (م)

والهضم. كما نفت هذه الفرقة أيضاً وجود الملائكة. وقد كان الصدّوقيون أشدّ اختلافا عن بقية اليهود من اختلاف البروتستانتيين عن الكاثوليكيين؛ غير أنهم بقوا على تواصل مع إخوانهم؛ بل كان كبار الكهنة من نحلتهم.

أما الفرّيسيون فكانوا يؤمنون بالقضاء والقدر[1] وبالتناسخ[2]. وبدورهم كان

١- إن عقيدة القضاء والقدر ضاربة في القدم وعامة في البشر، وأصداؤها تتردد باستمرار لدى هوميروس. فقد أراد جوبيتر أن ينقذ حياة ابنه سربدون، لكن القدر حكم عليه بالموت: فلم يبق أمام جوبيتر من خيار سوى الانصياع. وكان القدر عند الفلاسفة هو التسلسل الحتمي للأسباب والنتائج الناجمة بالضرورة عن الطبيعة، أو هو التسلسل عينه منظوماً مِن قِبل العناية الإلهية، وهو تصور أكثر سداداً بكثير. وكل مذهب القضاء والقدر يتمثل بهذا البيت من الشعر لإنايوس سنيكا:

«القدر يرشد من يذعن
ويجرّ جرّاً من يقاوم»

.Ducunt volentem fata، nolentem trahunt

لقد كان هنالك، على الدوام، إجماع على الإقرار بأن الله يحكم الكون بقوانين أزلية، كونية، ثابتة: وقد كانت هذه الحقيقة مصدراً لكل تلك المساجلات المستغلقة على الفهم حول الحرية، وذلك لأن هذه الحرية لم تجد من يعرّفها بدقة إلى أن جاء لوك الحكيم، فأثبت أن الحرية إنما هي المقدرة على الفعل. فالله هو من يمنح هذه المقدرة؛ والإنسان، الذي يتصرّف بحرية وفق أوامر الله الأزلية، لا يعدو أن يكون واحدة من عجلات آلة العالَم الكبرى. ولقد خاضت العصور القديمة في سجالات لامتناهية حول الحرية، ولكن لم يَضطهد أحدٌ أحداً بسبب هذا الموضوع إلا في أيامنا هذه. فما أشنعها من حماقة أن يُزجّ في السجن، أو يُنفى بسبب هذا السجال شخص مثل أرنو، أو ساسي [١٦١٣-١٦٨٤، لاهوتي جانسيني ومترجم **الكتاب المقدس** إلى الفرنسية. (م)] أو نيكول [١٦٢٥-١٦٩٥، كاتب جانسيني فرنسي درّس في دير بور - رويال. (م)]، وسواهم كثيرون ممن كانوا نبراس فرنسا.

٢- إن الرواية اللاهوتية عن التناسخ جاءتنا من الهند التي صدّرت إلينا من الخرافات قدراً أكبر بكثير مما يُظنّ عموماً. وقد شُرحت عقيدة التناسخ في الكتاب الخامس عشر الرائع من **تحولات** أوفيد. وقد شاعت في أرجاء المعمورة كافة تقريباً، ولكنها قوبلت بالمعارضة على الدوام. على أننا لم نر قط كاهناً من كهنة العصور القديمة يستصدر أمراً بالسجن أو بالنفي بحق تلميذ من تلامذة فيثاغورس.

الأسّينيون[١] يعتقدون بأن نفوس الصالحين تذهب إلى جزر السعادة[٢] ونفوس الأشرار إلى مكان يشبه الترتاروس[٣]. وما كانوا يقدّمون الأضاحي والقرابين؛ وكانوا يجتمعون فيما بينهم، في كنيس خاص بهم. باختصار، إذا شئنا أن نتفحص بإمعان الدين اليهودي، فستأخذنا الدهشة من وجود قدر عظيم من التسامح في سياق أفظع أشكال الهمجية. إنها مفارقة، هذا صحيح، ولكن بالمفارقات حَكمت معظم الشعوب نفسها. فنعماً بها من مفارقة يتمخض عنها سلوك رضيّ وخلق وديع في ظل شرائع دموية.

١- الإسّينيون: ثالثة طوائف اليهود، إلى جانب الفرّيسيين والصدّوقيين؛ وقد اشتهر الإسينيون بتقواهم وتنسكهم، وكانوا يسكنون بعيداً عن المدن. كان نظام حياتهم اشتراكياً، بنوع ما، إذ كانوا يقتسمون المسكن والمأكل، ويلبسون ثياباً بيضاً، ويكافِئون الشر بالخير. ويعتقد بعض الكتّاب أن المسيح كان ينتمي إلى هذه الطائفة التي عُرف أفرادها باسم المغتسلين. (م)

٢- ما كان قدامى اليهود، ولا المصريون، ولا معاصروهم الإغريق، يؤمنون بأن نفس الإنسان تصعد إلى السماء بعد وفاته. وكان اليهود يعتقدون أن القمر والشمس يقعان على مسافة بضعة فراسخ فوقنا، داخل دائرة واحدة، وأن السماء قبّة سميكة ومتينة تحتمل ثقل المياه التي تتسرب من الفتحات فيها. وكان قَصر الآلهة عند اليونانيين القدامى ينتصب فوق جبل الأولمب. أمّا مقام الأبطال بعد الموت فكان، في عهد هوميروس، في جزيرة تقع في ما وراء المحيط؛ وذلك كان أيضاً مُعتقَد الإسينيين.

لقد درجت العادة منذ هوميروس على تخصيص كل كوكب من الكواكب بإله من الآلهة، ولكن لم يكن داعي البشر إلى أن يضعوا إلهاً في القمر بأقوى من داعي سكان القمر إلى أن يضعوا إلهاً في كوكب الأرض. ولم يكن لجونون وإريس من قَصر للسكن إلا في الغيوم، حيث لا مكان لموطئ قدم. وكان الصابئة يعتقدون أن لكل إله نجماً، ولكن بما أن النجم شمس فإن السكن فيه مستحيل، إلا لمن تكون طبيعته من النار. من العبث، إذاً، أن نتساءل كيف كان الأقدمون يفكّرون بصدد السماء: فخير جواب عن هذا السؤال هو أنهم ما كانوا يفكرون.

٣- الترتاروس: مملكة العالم السفلي عند اليونانيين، وإليه تذهب النفوس بعد الممات، وقد تأوّله لاهوتيو المسيحية الأولى على أنه الجحيم. (م)

الفصل الرابع عشر

هل المسيح هو من علم التعصب؟

لنرَ الآن إن كان المسيح هو الذي سنّ قوانين دموية، وأوصى بالتعصّب، وأمر ببناء سجون محاكم التفتيش، ونصّب جلادي المحارق.

إن لم أكن مخطئاً، فقليلة هي في الأناجيل المقاطع التي يمكن لدعاة الاضطهاد أن يستخلصوا منها أن التعصب والإكراه مشروعان. ومنها المثل التالي الذي ضربه يسوع عندما شبّه ملكوت السموات بملك دعا ضيوفاً إلى عرس ابنه. فقد أبلغ هذا الملك مدعوّيه، عن طريق خدمه، قائلاً[1]: «لقد ذبحت ثيراني والسمان من ماشيتي؛ كل شيء بات جاهزاً، تعالوا إلى العرس». لكن بعضهم قصد دارته الريفية، غير مبالٍ بالدعوة؛ وبعضهم الآخر مضى إلى تجارته، في حين أهان فريق ثالث خدم الملك وفتك بهم. وعلى الأثر أرسل الملك جيوشه فزحفت على أولئك القتلة ودمّرت مدينتهم؛ ثم أرسل مبعوثيه إلى مفارق الطرق ليدعوا كل من تواجد فيها إلى الوليمة. ولمّا جلس أحدهم إلى المائدة من دون أن يرتدي ثوب العرس، غُلّ بالقيود ورمي به في «الظلمة البرّانية».

من الجليّ أن هذه الحكاية الرمزية تتحدث عن ملكوت السموات حصراً، وبالتالي لا يجوز لكائن مَن كان أن يستخلص منها الحق في أن يَغلّ بالحديد أو يسجن جاراً له قَدِم لتناول العشاء في بيته بلا لباس عرس لائق؛ وفي مطلق الأحوال، لم يقدّم لنا التاريخ مثالاً واحداً عن عاهل أمر بشنق فردٍ من أفراد حاشيته لمثل ذلك السبب. كما أنه من غير المحتمل، فيما لو ذَبح الإمبراطور دواجنه وأرسل غلمانه إلى أمراء المملكة يدعوهم إلى العشاء، أن يبادر هؤلاء الأمراء إلى الفتك بالغلمان. والحق أن الدعوة إلى العشاء ترمز إلى البشارة بالخلاص؛ كما أن قتل مبعوثي العاهل يشير إلى الاضطهاد الذي يتعرض له من يدعون إلى الحكمة والفضيلة.

١- إنجيل متّى، الفصل الثاني والعشرون، الآية ٤.

أمّا المثل الآخر[1] فمداره على شخص دعا أصدقاءه إلى وليمة عشاء كبرى؛ وحين أزفت ساعة الجلوس إلى المائدة، أرسل خادمه ينبئهم بذلك. فاعتذر أحدهم عن المجيء بحجة عزمه على تفقد قطعة أرض اشتراها: وهذا عذر لا يبدو في محلّه إذ ليس من المألوف أن يتفقد المرء أرضه ليلاً. وادّعى آخَر أنه ابتاع خمسة أزواج من البقر وأنه مضطر إلى الذهاب لتجريبها؛ وقد ارتكب الخطأ عينه إذ لا يُصار إلى تجريب البقر ساعة العشاء. وأجاب ثالث بأنه يتعذر عليه القدوم لأنه قد تزوج للتو؛ وكان عذره مقبولاً. وقد ثارت ثائرة رب الأسرة فجلب إلى وليمته عمياناً وعرجاناً. ولمّا بقيت على المائدة أماكنُ شاغرة قال لخادمه: «اُخرج إلى الطرق والأماكن المسيّجة وأرغم من فيها على الدخول».

صحيح أنه لا يقال لنا بصريح العبارة إن هذا المثل يرمز إلى ملكوت السموات. وقد بالغ المتأولون في تأويل عبارة «أرغم من فيها على الدخول». ولكن من الواضح أن خادماً واحداً ما كان إلا ليعجز عن إرغام كل مَن صادف مِن بشر على القدوم لتناول العشاء على مائدة سيده؛ ناهيك عن أن المدعوين لو أُرغموا على حضور الوليمة مكرَهين لما شاركوا في خلق أجواء من الحبور. إن عبارة «أرغم من فيها على الدخول» لا تعني، بحسب أكثر الشرّاح تضلعاً، سوى: ادْعُهم، ناشدهم، ألح عليهم، احملهم على المجيء. فهل من صلة، بحق الله، بين هذا الرجاء، وهذا العشاء، وبين الاضطهاد؟

لو أخذنا بحرف النص لاضطررنا إلى القول إن على المرء أن يكون أعمى، أكتع، مغلوباً على أمره كي يُقبل داخل الكنيسة. وقد قال المسيح في المثل عينه: «لا تدْعوا على العشاء أصدقاءكم ولا أقاربكم الأثرياء»؛ فهل أستنتج من ذلك أنه يحظّر تناول طعام العشاء مع الأقارب والأصدقاء إذا كانوا ميسوري الحال قليلاً؟

يقول يسوع المسيح بعد مَثل الوليمة[2]: «من أتى إليّ ولم يرغب عن أبيه، وأمه، وامرأته، وبنيه، وإخوانه، وأخواته، بل عن نفسه أيضاً، لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً، الخ. فمن منكم، إذا أراد أن يبني برجاً، لا يجلس قبل ذلك ويحسب النفقة؟». فهل على وجه هذه الأرض مَن هو منحرف العقل إلى حد الاستنتاج بأن المطلوب كراهية

١- إنجيل لوقا، الفصل الرابع عشر.

٢- إنجيل لوقا، الفصل الرابع عشر، الآية ٢٦ وما يليها.

الأب والأم؟ أفليس مِن الأيسر أن نفهم تلك العبارة على أنها تعني: لا توازنوا بيني وبين أعزّ الناس إلى قلوبكم؟

عندما يقول القديس متّى الإنجيلي[1]: «مَن لم يسمع للكنيسة فليكن عندك كالوثني والعشّار»، فهذا لا يعني إطلاقاً أن علينا اضطهاد الوثنيين وجباة مكوس الملك: إنهم ملعونون في الآخرة، هذا صحيح، غير أنهم لا يُسلَّمون في هذه الحياة الدنيا إلى السلطة الزمنية لتعاقبهم. فهؤلاء الجباة لم يُحرَموا من أي امتياز من الامتيازات الممنوحة للمواطنين، بل خُصّوا على العكس بأعظم الامتيازات. ولئن أدان **الكتاب المقدس** مهنتهم دون سواها، فإن الحكومات قد خصّتها، هي، برعايتها. فلماذا لا نخصّ إخواننا الضالّين بمقدار من الحِلْم يضاهي ما نخص به إخواننا التجار من الاعتبار؟

ثمة مقطع آخر من إنجيلي متّى ومرقص أُسيء تأويله أيّما إساءة، أعني المقطع الذي جاء فيه أن المسيح، إذ أحسّ بالجوع عند الصباح، دنا من تينة فوجدها مورقة غير مثمرة، إذ لم يكن موسم التين قد حان بعد: فلعن الشجرة فجفّت للحال.

لقد أُعطيت تفسيرات عدة لهذه المعجزة؛ ولكن هل من بينها تفسير واحد خليق بإباحة الاضطهاد؟ لقد استحال على تينة أن تعطي ثماراً في بداية آذار-مارس فجُفّفت: فهل هذه ذريعة كي نجفف أشقّاءنا بالعذاب طيلة مواسم السنة؟ لنحترم في **الكتاب المقدس** كل ما من شأنه أن يبلبل عقولنا الفضولية والمعتدّة، ولكن لا نسيء استخدامه لكي ننزع إلى التشدد وإلى القساوة. إن ذهنية الاضطهاد، التي تسيء تفسير كل شيء، تبحث أيضاً عن مبرر لها في حادثة طرد الباعة من الهيكل، وفي إدخال جوقة من الأبالسة في قطيع من ألفي رأس من البهائم الدنسة بعد إخراجها من جسد شخص كان به مسّ. ولكن أليس من الواضح أن هذين المَثلين ما هما إلا رمز إلى قصاص الله لمن يخالف ناموسه؟ فبيت الله كان قد تدنّس مع اتخاذ فنائه سوقاً للتجار. وعبثاً حاول الكهنة وأعضاء السنحدرين[2] تبرير هذه التجارة بضرورة تيسير

١- إنجيل متّى، الفصل الثامن عشر، الآية ١٧.

٢- السنحدرين: كلمة من أصل إغريقي معناها الاجتماع أو المحكمة؛ وقد أُطلق هذا الاسم على محكمة اليهود، ولا سيما محكمة أورشليم. وكان السنحدرين في مطلع العصر الميلادي يتألف من واحد وسبعين عضواً وكانت له شرطته الخاصة به، وازدادت أهميته

الأضاحي: فالله، الذي تُقدَّم له الأضاحي، كان من حقه، وقد توارى خلف وجه بشري، أن يقضي على ذلك التدنيس؛ كما كان من حقه، أيضاً، أن يُعاقِب من يُدخل إلى البلاد قطعاناً بكاملها من البهائم المحرّمة في الناموس الذي شاءت إرادته أن يقيِّد نفسه به. والحق أن هذين المثالين لا يمتّان بصلة إلى الاضطهاد بسبب العقيدة. ولولا أن ذهنية التعصب تتوسل بأفسد الاعتبارات وأردأ الحجج لما تحرّت في كل مسألة عن أوهى الذرائع.

فيما عدا تلك الأمثلة، تدعو أقوال المسيح وأفعاله قاطبة إلى اللطف، والصبر، والحِلْم. مثال على ذلك رب الأسرة الذي يفتح ذراعيه لابنه الضالّ، والعامل الذي وصل في آخر ساعة وتقاضى أجره بكامله أسوة بسواه، والسامري فاعل الخير. وقد برّر المسيح، بنفسه، لتلامذته عدم صيامهم، كما غفر للخاطئة، واكتفى بأن أوصى المرأة الزانية بالإخلاص لزوجها. بل تنازل فجارى المدعوين إلى عرس قانا الجليل واستجاب لإلحاحهم في طلب المزيد من الخمر مع أنهم كانوا انتشوا منه: فصنع معجزة من أجلهم بأن حوّل الماء إلى خمر.

ولم يغضب حتى على يهوذا الذي سوف يخونه؛ وأمر بطرس بألا يُشهر سيفه أبداً في وجه أحد، كما أنّب ابنيّ زبدى[1] لأنهما، على غرار النبي إيليا، أرادا إنزال نار السماء على المدينة التي رفضت أن تؤويهما.

وقد قضى، أخيراً، ضحية الغيرة والحسد. ولو تجرأنا على المقارنة بين المقدّس والمدنّس، بين إله وإنسان، لقلنا إن موته، من منظور بشري، يمتّ بأوثق صلة إلى موت سقراط. فقد ذهب سقراط ضحية السفسطائيين، والكهنة، وكبار القوم؛ وقضى مشرّع المسيحيين من جرّاء حقد الكتبة، والفرّيسيين، والكهنة. لقد كان في وسع سقراط أن يتفادى الموت، بيد أنه لم يرغب في ذلك. وقد قدّم المسيح نفسه للموت بملء إرادته. ولم يغفر الفيلسوف الإغريقي للمفترين عليه ولقضائه الجائرين فحسب، بل تمنى، أيضاً، على هؤلاء الأخيرين أن يعامِلوا يوماً أولاده كما عاملوه هو،

عند إلغاء المَلَكية فأصبح يمثّل السلطة المحلية بالنسبة للرومان، إلا أنه لم يكن يملك صلاحية إصدار أحكام بالإعدام منفرداً. (م)

١- زبدى: والد الحواريين يوحنا ويعقوب. (م)

فيما لو قُدِّر لهم حسن طالعهم أن يستحقوا حقدهم عليهم على غراره. أما مشرِّع المسيحيين، الأعلى كعباً بما لا يقارن، فقد توسل لأبيه كي يغفر لأعدائه.

لئن بدا المسيح وكأنه يخشى الموت، ولئن كان الخوف الذي انتابه شديداً إلى حد امتزج معه عرقه بالدم – وذلك هو عَرَض من أعنف الأعراض وأندرها – فذلك لأنه شاء أن ينزل إلى المرتبة البشرية ويكابد من ضعف الجسد البشري الذي ارتدى. كان جسده يرتعد فيما كانت روحه صامدة، لا تتزعزع. وقد علّمنا أن القوة الحقيقية والعظمة الحقيقية تكمنان في تحمّل الآلام التي تنوء طبيعتنا تحت وطأتها. فمَن يذهب إلى الموت وهو يخشاه يدلل عن شجاعة قصوى.

لقد نعت سقراط السفسطائيين بالجهل واتهمهم بسوء النية. وبالاعتماد على حقوقه الإلهية نعت المسيح الكتبة[1] والفرّيسيين بالمرائين، والحمقى، والعميان، والأشرار، والثعابين، والأفاعي.

لم يُتهم سقراط بالسعي إلى تأسيس نِحلة جديدة، ولم يُتهم المسيح، أيضاً، بالعمل على إنشاء نِحلة جديدة[2]. فقد جاء في **الكتاب المقدس** أن الأحبار وسائر أعضاء السنحدرين سعوا وراء شهادة زور ضد المسيح للقضاء عليه. والحال أنهم ما داموا سعوا وراء شهادة زور، فهذا معناه أنهم لم يتّهموه بمعارضةٍ علنية للناموس. والواقع أن المسيح خضع لناموس موسى منذ ولادته وحتى مماته. فقد خُتن في اليوم الثامن من ولادته، على غرار بقية الأطفال. ولئن تعمّد لاحقاً في مياه نهر الأردن، فذلك كان طقساً شائعاً عند اليهود، بل عند سائر شعوب المشرق. فجميع النجاسات المنصوص عليها في الشريعة كانت تزول بالمعمودية؛ وهكذا كان يجري رسم الكهنة. وفي عيد الغفران كان يصار إلى الغطس في الماء، وإلى تعميد الوثنيين الراغبين في اعتناق اليهودية.

لقد تقيّد المسيح بسائر بنود الناموس: امتنع عن العمل أيام السبت، واستنكف عن أكل اللحوم المحرّمة، واحتفل بسائر الأعياد، بل احتفل قبيل وفاته بعيد الفصح.

١- إنجيل متّى، الفصل الثالث والعشرون.

٢- إنجيل متّى، الفصل السادس والعشرون، الآية ٥٩.

لم يُتّهم بالترويج لآراء جديدة ولا باتّباع طقوس دينية غريبة. لقد ولد يهودياً وعاش، باستمرار، كيهودي.

في أثناء محاكمته اتهمه شاهدان بأنه قال[1]: «إني لقادر على نقض هيكل الله وبنائه في ثلاثة أيام». وكلام كهذا الكلام ما كان مفهوماً بالنسبة إلى يهود ماديين أجلاف؛ لكنه لا يشكل بحدّ ذاته اتهاماً بالسعي إلى تأسيس نِحلة جديدة.

لقد سأله رئيس الأحبار قائلاً: «أستحلفك بالله الحيّ لتقولنّ لنا هل أنت المسيح ابن الله». ولا يفيدنا المأثور بما كان يقصده رئيس الأحبار بقوله: «ابن الله»: فقد كانت هذه التسمية تُستخدم أحياناً للإشارة إلى الصدّيق من الناس[2]، كما كانت تسمية «ابن بليعال» تشير إلى الشرير. فاليهود البدائيون كانوا يجهلون كل شيء عن سر ابن الله المقدس، أي سر مجيء الله بنفسه إلى عالمنا.

وقد ردّ المسيح على رئيس الأحبار قائلاً: «هو ما تقول، وأنا أقول لكم: سترون بعد اليوم ابن الإنسان جالساً عن يمين القدير، وآتياً على غمام السماء». وقد اعتبر السنحدرين هذا الجواب، الذي أسخط أعضاءه، تجديفاً. ولمّا كان السنحدرين عديم السلطة فقد قاضى المسيح أمام الوالي الروماني، متهِماً إياه زوراً بالتحريض على الفتنة، وبالحثّ على عدم أداء الجزية لقيصر، وبالادعاء، علاوة على ذلك، بأنه ملك اليهود. من الجلي، إذاً، أنه قد اتُّهم بجريمة بحق الدولة.

١- إنجيل متّى، الفصل السادس والعشرون، الآية ٦١.

٢- كان صعباً للغاية على اليهود، إن لم نقل مستحيلاً، أن يفهموا، من دون وحي خاص، ذلك السر المستعصي على كل وصف والمتمثّل بتجسد ابن الله، أي الله نفسه. ف سفر التكوين (الإصحاح السادس) يطلق صفة ابن الله على أبناء العظماء من البشر؛ كذلك فإن الأرزات الكبيرة تسمى في المزامير (الإصحاح التاسع والسبعون، ١١) أرز الرب. وصموئيل (سفر الملوك [سهو: الصحيح سفر صموئيل (م)] الأول، الإصحاح السادس عشر، ١٥) يقول إن ذعراً إلهياً دبّ في الشعب، أي ذعراً عظيماً؛ والريح القوية هي روح الله؛ والمسّ الذي أصاب شاؤل هو روح رديء من قبل الله. ولكن اليهود، على ما يبدو، فهموا فهماً حرفياً ما قاله المسيح عن نفسه من أنه ابن الله؛ ولكن لئن اعتبروا هذا الكلام تجديفاً فربما كان في ذلك دليل آخر على جهلهم بسر التجسّد، سر الله وابن الله الذي أُرسل إلى الأرض لخلاص البشر.

عندما علم الوالي الروماني، بيلاطس البنطي، أنه من الجليل أرسله إلى هيرودوس أمير ربع الجليل. لكن هيرودوس، إذ حدس بأنه يستحيل أن يكون المسيح قد تطلع إلى تزعّم القوم وطمح في أن يكون ملكاً، عامله بازدراء وأعاده إلى بيلاطس الذي جبن جبناً مشيناً، فحكم عليه بالموت لتهدئة البلبلة التي استهدفته شخصياً، ولاسيما أنه سبق له أن واجه فتنة يهودية، كما يفيدنا المؤرخ فلاڤيوس يوسيفوس. لم يدلل بيلاطوس البنطي عن الأريحية التي تحلّى بها من بعده الوالي فستوس[١].

إني لأطرح الآن السؤال: هل من مستتبعات القانون الإلهي التعصب، أم بالعكس، التسامح؟ فإن شئتم أن تتشبّهوا بالمسيح، فكونوا شهداء لا جلادين.

١- فستوس: الوالي الروماني على اليهودية. لم يرضخ لطلب اليهود إدانةَ بولس الرسول وبعث به إلى روما ليحاكَم بصفته مواطناً رومانياً. (م)

الفصل الخامس عشر

شهادات ضد التعصب

- «إنه لمن قلة الدين أن نَحرم البشر من الحرية في موضوع الدين، وأن نحول دون اختيارهم لإلههم: فما من إنسان، ما من إله، يرغب في عبادة قسرية».

(**الدفاع**، الفصل الرابع والعشرون)[١]

- «إذا لُجئ إلى العنف للدفاع عن الدين، فسيتبنى الأساقفة موقفاً معارضاً».

(القديس هيلاريوس، الكتاب الأول)[٢]

- «إذا فُرض الدين بالقوة لا يعود ديناً: فالمطلوب الإقناع لا الإكراه. فالدين ليس مما يؤمر به أمراً».

(لاقتانسيوس، الكتاب الثالث)[٣]

- «إنها لهرطقة مقيتة أن نَجتذب بالقوة، بالضرب، بالسجن، مَن عجزنا عن إقناعهم بالعقل».

(القديس أثاناسيوس، الكتاب الأول)

- «لا شيء ينافي الدين كالإكراه».

(القديس يوستينوس، **تاريخ الشهداء**، الكتاب الخامس)

١- المقصود هنا دفاع ترتوليانوس. (م)

٢- المقصود هنا كتابه في **الثالوث**. (م)

٣- المقصود هنا كتابه **التعاليم الإلهية**. (م)

- «أنضطهد من سامحهم الله؟».

(هكذا قال القديس أوغسطينوس قبل أن يغلو في التشدد نتيجة نزاعه مع الدوناتيين)[1]

- «لنتفادَ كل تعدٍ على اليهود».

(مجمع طليطلة الرابع، البند السادس والخمسون)

- «انصحوا ولا ترغِموا».

(رسالة من القديس برنار)

- «ليس في نيتنا القضاء على الأخطاء باللجوء إلى العنف».

(خطاب الإكليروس الفرنسي إلى الملك لويس الثالث عشر)

- «لقد شجبنا على الدوام الأساليب العنيفة».

(الجمعية العامة للإكليروس، ١١ آب/أغسطس ١٥٩٠)

- «نحن نعلم أن الإيمان يأتي بالاقتناع لا بالإكراه».

(فليشييه، أسقف مدينة نيم، الرسالة ١٩)

- «لا يجوز لنا حتى أن نلجأ إلى الإهانة وإلى عبارات التجريح».

(الأسقف دي بلّيه في «رسالة رعوية»)

- «تذكّروا أن أمراض النفس لا تعالَج بالإكراه، ولا بالعنف».

(الكاردينال لو كامو، «الرسالة الرعوية» لعام ١٦٨٨)

١- الدوناتيون: أنصار دوناتوس، أسقف نوميديا في تونس (توفي نحو ٣٥٥م)؛ أدانتهم الكنيسة واضطهدتهم كهراطقة لأنهم غالوا في التشدد وأنكروا صفة المسيحية على كل من جحد دينه من جراء الاضطهاد ولو طلب، بعد ذلك، العودة إلى حظيرة الكنيسة. (م)

- «امنحوا الجميع التسامح المدني».

(فينيلون، رئيس أساقفة كامبريه، «رسالة إلى دوق مقاطعة بورغونيا الفرنسية»)

- «إن التعدي السافر على دين من الأديان هو بمثابة دليل قاطع على أن العقل الذي يقف وراءه إنما هو عدو للحقيقة».

(ديروا، دكتور من السوربون، الكتاب السادس، الفصل الرابع)

- «إن العنف قد يخلق منافقين؛ فالإقناع يستحيل عندما يُسلَّط سيف التهديد».

(تيّيمون، التاريخ الكنسي، الجزء السادس)

- «لقد رأينا أنه من روح العدل ومن مبدأ العقل القويم أن نسير على خطى الكنيسة القديمة التي لم تلجأ البتة إلى العنف لإرساء الدين ونشره».

(تنبيه من محكمة باريس العليا إلى الملك هنري الثاني)

- «لقد علمتنا التجربة أن العنف، بدلاً من أن يعالِج الداء الذي أرسى جذوره في النفس، قمين بأن يزيد من ضراوته».

(دي تو، «رسالة مهداة إلى الملك هنري الرابع»)

- «إنها لحميّة همجية تلك التي تدّعي لنفسها القدرة على زرع الدين في القلوب، كما لو أن الاقتناع قابل لأن يتولد من الإكراه».

(بولنفيليه، «أحوال فرنسا»)

- «مَثل الدين كمثل الحب: فهو لا يُفرض فرضاً ولا مدخل للإكراه إليه؛ ولا شيء أكثر استقلالية من الحب والإيمان».

(آملو دي لا هوسيه، حول «رسائل الكاردينال أوسا»)

. «لئن تكن السماء قد أحبتكم حتى جعلتكم تعاينون الحقيقة، فقد خصّتكم بنعمة عظيمة؛ ولكن أيحق للأبناء الذين نالوا ميراث آبائهم أن يبغضوا من لم يحصلوا عليه؟».

(مونتسكيو، «**روح الشرائع**»، الباب الخامس والعشرون)

بوسعنا أن نصنّف مجلداً ضخماً من مقتطفات كهذه. ذلك أن تواريخنا، وخطبنا، ومواعظنا، ومؤلفاتنا الأخلاقية، وكتب تعليمنا الديني، تستوحي جميعها فريضة التسامح المقدَّسة وتُجمِع اليوم على تعليمها. أفهي لعنة القدر أن نكذّب عملياً نظرية ننادي بها يومياً؟ الحق أنه عندما تناقض أفعالُنا أخلاقَنا، فليس لذلك من علّة سوى اعتقادنا بأن لنا مصلحة في فعل عكس ما ننادي به؛ ولكن من المؤكد أنه ليست لنا أي مصلحة في اضطهاد من لا يشاركوننا رأينا وفي حملهم على بغضنا. التعصب إذاً، نعود فنكرر، عبثي ومجانب للعقل. ولكن قد يقول قائل: إن من لهم مصلحة في إرباك الضمائر ليسوا ممن يعبثون ويجانبون العقل، وإليهم يتوجه الفصل التالي.

الفصل السادس عشر

حوار بين شخص قيد الاحتضار وآخر على أتم الصحة والعافية

كان مواطن يحتضر في مدينة من مدن الأقاليم؛ وقد جاءه رجل في تمام الصحة فطفق يشتمه ويهينه في آخر لحظاته. قال له:

- يا أيها الحقير! خذ برأيي؛ وقّع على هذا النص، اعترف بوجود خمس قضايا في كتاب لم نقرأه لا أنا ولا أنت؛ أيِّد لانفران[١] ضد بيرانجيه، والقديس توما[٢] ضد القديس بونافنتورا[٣]؛ قف مع مجمع نيقيا ضد مجمع

١- لانفران البافياوي: لاهوتي إيطالي الأصل ومن رواد حركة إصلاح الكنيسة الإنكليزية (١٠١٠-١٠٨٩). كانت له مساجلة مع بيرانجيه التوري حول طبيعة القربان المقدس، فانتصر لعقيدة التحول في الجوهر ضداً على مذهب بيرانجيه القائل بأن وجود المسيح في القربان هو محض وجود رمزي.

٢- توما الأكويني (١٢٢٤-١٢٧٤): فيلسوف ولاهوتي من أصل إيطالي. انتسب إلى رهبانية الإخوة الوعاظ؛ منح درجة الأستاذية في اللاهوت وتفرّغ للتعليم الجامعي، وكان الرائد الأكبر للسكولائية وللعقلانية اللاهوتية. لقب بـ **المعلم الملائكي**. أشهر مؤلفاته **الخلاصة اللاهوتية والشروح على أرسطو**. وكان له خوض كبير في المسائل الخلافية، وفي المناظرة مع الرشديين اللاتينيين. طوّبته الكنيسة قديساً. (م)

٣- جيوڤاني فيدانزا بوناڤنتورا: لاهوتي إيطالي ناطق باللاتينية (١٢٢١-١٢٧٥). وبونافتورا، **أي حسن الطالع**، هو اللقب الذي اشتهر به، وقد أطلقه عليه القديس فرانشسكو الأسيزي عندما كان لا يزال طفلاً. في حوالي عام ١٢٤٠ انتسب إلى رهبانية الآباء الفرنسيسكانيين، وكان لا يزال في السابعة والعشرون عندما أصبح أستاذاً في جامعة السوربون في باريس، فيما كان توما الأكويني يعلّم فيها. وقد كانت له مساجلات حول الأرسطية وحول مدى استقلالية العقل، وذهب إلى أن معرفة الحقيقة مشروطة، فضلاً عن العقل، بإشراق المُثل الإلهية. أنفق آخر قواه في مجمع ليون الذي نوقشت فيه قضايا

فرنكفورت[1]؛ اشرح لي للحال كيف أن عبارة «أبي أعظم مني» تعني بلا جدال «أنا لا أقلّ عظمة عنه». قل لي كيف أطلع **الآبُ الابنَ** على كل شيء، فيما خلا سرّ الأبوة، وإلا أمرت برمي جثتك في حفرة النفايات؛ وعندئذ لن يرثك أولادك، وستحرم زوجتك من بائنتها، وسوف تضطر أسرتك إلى استجداء كسرة الخبز، ولن يتصدق عليها من هم على شاكلتي.

المحتضر: أكاد لا أسمع ما تقوله لي؛ إن تهديداتك لا تصل إلى أذني إلا مشوشة، وهي تزرع البلبلة في نفسي وتزيد من هول منيّتي. أستحلفك، باسم الله، أن ترأف لحالي.

الهمجي: أرأف لحالك! لن تعرف الرأفة إلى قلبي سبيلاً ما لم تشاطرني رأيي في كل الأمور.

المحتضر: واأسفاه! أنت تدرك أن جميع حواسي، في لحظات النزع الأخير هذه، قد وهنت، وأن أبواب إدراكي قد أُوصِدت، وأن أفكاري تشرد وذهني يخمد. فهل أنا قادر على الجدال والسِجال؟

الهمجي: حسناً، إن لم تكن قادراً على أن تؤمن بما أريد، فقل بأنك تؤمن به، وسوف أكتفي بذلك.

المحتضر: كيف أحلف زوراً كي أنال رضاك؟ فما هي إلا لحظات حتى أمْثُل أمام الله الذي يعاقب على كل يمين زور!

الهمجي: لا يهم؛ فسوف تنعم بدفنك في مقبرة، وسوف تتأمّن لزوجتك وأبنائك معيشتهم. مت مرائياً، فالرياء أمر محمود. فهو، كما يقال، ضرب من تحية تؤديها الرذيلة للفضيلة. فأي ضرر، أيها الصديق، لو أخذت نفسك بقليل من الرياء؟

المحتضر: واحسرتاه! أنت تستخفّ بالله، أو لا تعترف به بالأوْلى، ما دمت تحثّني على

الكنيسة الشرقية. أشهر مؤلفاته «مسار النفس إلى الله» و«ردّ الفنون إلى اللاهوت». طوّبته الكنيسة قديساً. (م)

1- مجمع فرنكفورت: مجمع كنسي انعقد بإيعاز من الإمبراطور شارلمان عام ٧٩٤، ونقض قرارات مجمع نيقيا الثاني عن عبادة الصور والأيقونات. (م)

الكذب في ساعة الموت؛ تريدني أن أكذب على الله مع أنك ستمّثل بدورك أمامه، فيقاضيك ويعاقبك على هذه الكذبة!

الهمجي: ماذا تقول أيها السفيه! أتزعم أني لا أعترف بالله!

المحتضر: معذرة عما سأقول يا أخي، ولكن أخشى أن تكون جاهلاً به. فالإله الذي أعبد شدّ من أزري في هذه اللحظة كيما أقول لك، بصوت يكاد لا يسمع، إن عليك أن ترأف لحالي إن كنت تؤمن به. لقد أعطاني زوجة وأبناء، فلا تحكم عليهم بالموت جوعاً. أما جسدي فاصنع به ما تشاء: إني أدعه لك؛ ولكن أتضرع إليك، آمن بالله.

الهمجي: اِفعل ما قلته لك، بلا أخذ وردّ؛ إني أريد ذلك، وإني آمرك به.

المحتضر: وماذا ستجني من وراء تعذيبي كل هذا التعذيب؟

الهمجي: كيف؟ ماذا سأجني؟ لو حصلت على توقيعك لضمنت لنفسي وظيفة كنسيّة بلا عمل، تدرّ عليّ دخلاً وفيراً.

المحتضر: أواه يا أخي! ها أنا ألفظ أنفاسي الأخيرة؛ سوف أصلي لله كي يهديك.

الهمجي: لعنة الله على الوقح الذي لم يوقِّع! سوف أزوّر خطه وأوقّع عنه[1].

***

الرسالة التالية هي توكيد للمغزى عينه.

١- عندما كتبنا ذلك في العام ١٧٦٢ لم يكن الأمر بحلّ رهبانية اليسوعيين قد صدر في فرنسا. ولو كانوا من المنكوبين لاحترمهم المؤلِّف بكل تأكيد. ولكن يجب ألا يغيب عنا أبداً أنهم ما اضطُهدوا إلا لأنهم اضطَهَدوا؛ فليكن مثالهم مبعث خوف وارتعاد لجميع أولئك الذين يغلون أكثر من غلوّ اليسوعيين في التعصب، ويعقدون العزم على قمع مواطنيهم ممن لا يشاطرونهم آراءهم المتصلبة والمجانبة للعقل (حاشية أضيفت عام ١٧٧١).

الفصل السابع عشر

رسالة موجهة في ٦ أيار/مايو ١٧١٤
من صاحب دخل كنسي إلى الأب اليسوعي لوتلييه[١]

حضرة الأب المحترم

نزولاً عند رغبة سيادتكم سوف أعرض عليكم الوسائل الكفيلة بتخليص يسوع المسيح وجمعية اليسوعيين من أعدائهما. إن عدد الهوغونوتيين في المملكة ما عاد يتجاوز الخمسمئة ألف في رأيي. وإن كان بعضهم يقدّر هذا العدد بمليون، وبعضهم الآخر بمليون ونصف مليون؛ ولكن بغضّ النظر عن تفاوت العدد فإني أقترح عليكم، بكل تواضع، الحلول الآتية:

١ ـ إلقاء القبض، خلال يوم واحد، على جميع القساوسة البروتستانتيين، وتعليقهم على أعواد المشانق دفعة واحدة وفي ساحة بعينها؛ وما ذلك ليكونوا قدوة للناس فحسب، بل لجمال المشهد أيضاً.

٢ ـ الأمر باغتيال جميع الآباء والأمهات وهم نيام في أسرّتهم، لأن قتلهم في الشوارع قد يتسبب في إثارة بعض البلبلة، كما قد يتيح لبعضهم أن يلوذ بالفرار، وهو ما يتعين تفاديه بأي ثمن. إن هذه التصفية هي لازمة طبيعية تترتب عن مبادئنا: فما دام قتل الهرطوقي الواحد واجباً إلزامياً، كما يبيِّن العديد من كبار لاهوتيينا، فمن البديهي والضروري معاً أن يُقتل الهراطقة جميعاً.

٣ ـ الأمر، غداة هذه التصفية الجماعية، بتزويج الفتيات إلى كثالكة صالحين،

١- فرنسوا مشيل لوتلّييه (١٦٤٣-١٧١٩): يسوعي فرنسي ارتقى في المناصب حتى صار رئيسا للرهبانية اليسوعية في فرنسا، ومعرِّف الملك لويس الرابع عشر، وكان له عليه تأثير كبير. وقد استحصل منه على قرار بهدم دير بور رويال، مركز الجانسينيين الذين كان يكنّ لهم أشد العداء. (م)

تجنباً للمزيد من فقر البلاد بالسكان بعد الحرب الأخيرة؛ أما الصبيان الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة، والذين تشبّعوا بالمبادئ السيئة التي لا أمل في استئصالها، فيتوجب خصاؤهم جميعاً في نظري كي لا تتجدد ذرية تلك الحثالة. أما البقية الباقية من صغار الصبية فتتولّى معاهدكم تنشئتهم، على أن يُجلدوا بالسياط إلى أن يَحفظوا عن ظهر قلب كتابات سانشيز[١] ومولينا[٢].

٤ ـ إن لم أكن مخطئاً فإنه ينبغي أن نُخضِع جميع لوثريي الألزاس أيضاً للمعاملة نفسها، نظراً إلى أني رأيت عام ١٧٠٤ امرأتين مسنّتين من ذلك الإقليم تضحكان يوم معركة هوشتاد[٣].

٥ ـ أما موضوع الجانسينيين فقد يبدو مربكاً بعض الشيء: فأنا أقدّر عددهم بستة ملايين على الأقل؛ لكن عقلاً كعقلكم لا يَستهيب من ذلك في اعتقادي. وإني أُدرج في عداد الجانسينيين سائر الهيئات القانونية التي تؤيد بصفاقة حريات الكنيسة الانغليكانية[٤]. وإلى سيادتكم يعود، بما أوتيتم من حصافة، تقدير الوسائل القمينة بإخضاع تلك الرؤوس المشاكسة. ولئن لم تحقق مؤامرة البارود[٥] النجاح المرجو، فذلك لأن أحد المتآمرين أفشى السرّ حرصاً منه

١- توما سانشيز (١٥٥٠-١٦١٠): يسوعي إسباني كتب بوجه خاص عن الزواج والعلاقات الجنسية من منظور الفقه الكنسي. (م)

٢- لويس دي مولينا (١٥٣٥-١٦٠٠): لاهوتي إسباني انتسب إلى الرهبانية اليسوعية ودرّس اللاهوت في البرتغال. وضع شرحاً لـ **الخلاصة اللاهوتية** للقديس توما الأكويني، وأصاب أكبر الشهرة عندما نشر كتابه عن **التوفيق بين حرية الاختيار وهبة النعمة**. وقد أثار مذهبه خلافات داخل الكنيسة الكاثوليكية انحاز إثرها أتباعه من المولينيين إلى الجانسينية. (م)

٣- معركة وقعت عام ١٧٠٤ أثناء زحف الجيش الفرنسي - البافاري على العاصمة النمساوية، فيينا. وقد كان النصر فيها للتحالف النمساوي - البريطاني - الهولندي. (م)

٤- الكنيسة الأنغليكانية: هي الكنيسة الرسمية لإنكلترا بعد انشقاق الملك هنري الثاني عن كرسي روما البابوي. (م)

٥- مؤامرة نظّمتها جماعة من الكثالكة (١٦٠٥)، وكانت تهدف إلى اغتيال ملك إنكلترا ↩

على إنقاذ حياة أحد أصدقائه؛ ولكن بما أنه ليس لكم من أصدقاء، فلا داعي للتوجّس من مثل ذلك المحذور؛ ولن يكون عليكم أيسر من تفجير سائر الهيئات والمحاكم القضائية في المملكة بفضل اختراع الراهب شوارتز المسمى PULVIS PYRIUS[1]. وسوف تحتاج كل محكمة في تقديري إلى قرابة ستة وثلاثين برميلاً من البارود. ولو ضربنا اثنتي عشرة محكمة بستة وثلاثين برميلاً لاتضح لنا أن العملية لا تحتاج بالإجمال إلى أكثر من أربعمئة واثنين وثلاثين برميلاً؛ وبما أن سعر البرميل الواحد لا يتعدى المئة ليرة، فإن الكلفة الإجمالية لن تتجاوز مئة وتسعة وعشرين ألف وستمئة ليرة؛ وهو مبلغ تافه قياساً إلى ما هو في متناول حضرة الأب الرئيس العام.

وبعد تفجير هذه المحاكم تبادرون إلى إسناد مهامها إلى أعضاء جمعيتكم اليسوعية، المتضلّعين في شؤون قوانين المملكة.

٦ - لن يكون أيسر من تسميم الكاردينال دي نواي[2]؛ فالرجل بسيط ولا يرتاب في شيء ولا يحتاط من شيء.

وفي وسعكم، حضرة المحترم، اللجوء إلى وسائل الهدي إلى الطريق المستقيم عينها مع بعض الأساقفة المتشبّثين بآرائهم: فبعد أن توضع أسقفياتهم بين أيدي اليسوعيين بمقتضى رسالة بابوية، وبعد أن نكون قد ضمنّا انضواء سائر الأساقفة تحت لواء قضيتنا العادلة وكفلنا انتقاء الكهنة جميعاً بفطنة من قبل

جاك الأول الأنغليكاني وأسرته وقسم من الأرستقراطية الإنكليزية عن طريق تفجير قصر وستمنستر في لندن أثناء الاحتفال بافتتاح البرلمان في ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ١٦٠٥. ويبدو أن هذه المؤامرة كانت قد دُبّرت من قِبل الحكومة الإسبانية الكاثوليكية، وربما أيضا من قِبل اليسوعيين. ولكنها فشلت بفضل لورد إنكليزي كاثوليكي كان بعث برسالة مغفلة إلى صديق له بروتستانتي يحثّه فيها على عدم حضور الاحتفال. وقد عُثر في قبو البرلمان على ٣٦ برميلاً من البارود. (م)

١- الاسم اللاتيني للبارود. (م)

٢- لويس أنطوان دي نواي (١٦٥١-١٧٢٩): كاردينال فرنسي شغل منصب رئيس أساقفة باريس في عام ١٦٩٥؛ عارض تطبيق البراءة البابوية المعروفة باسم «يونيجنتوس»، والتي كانت ترمي إلى محاربة الجانسينيين. (م)

هؤلاء الأساقفة، أقترح هذا الحل على سيادته، تاركاً لكم طبعاً حرية التقييم والاختيار.

٧ ـ بما أن الجانسينيين، على ما يقال، يتناولون القربان المقدس ولو لمرة واحدة في السنة، بمناسبة عيد الفصح، يستحسن أن يُرشّ على خبز القربان من ذلك المسحوق الذي استُخدِم للانتقام من الإمبراطور هنري السابع[١]. وقد يعارضنا أحدهم فيقول إننا قد نجازف في هذه العملية بإعطاء مبيد الجرذان للمولينيين أيضاً: والحق أن هذا الاعتراض وجيه، ولكن ما من مشروع إلا وله سيئاته، وما من بناء إلا وهو مهدد بالتداعي والانهيار في ركن من أركانه. ولو استوقفتنا هذه الصعوبات الثانوية لما استطعنا بلوغ أي هدف. وعلى أي حال، ما دمنا نتطلع إلى نشر أعظم خير ممكن، فلا حرج إن كانت بعض النتائج السلبية غير ذات الأهمية قد ترتبت على هذا الخير العظيم.

ليس هنالك ما نؤاخذ أنفسنا عليه؛ فقد قام البرهان على أن جميع دعاة الإصلاح المزعوم[٢] وجميع الجانسينيين آيلون إلى الجحيم؛ ونحن، بالتالي، لا نفعل سوى تعجيل ساعة دخولهم إليه.

ومما لا جدل فيه أيضاً أن الجنة هي حق للمولينيين: فإن قتلناهم، عن طريق الخطأ، ومن دون سوء نية مسبقة، نكن قد عجّلنا بسعادتهم. وفي كلتا الحالتين لن نكون إلا أداة بيد العناية الإلهية.

أما الذين قد يخيفهم عدد الضحايا ففي وسع نيافتكم أن يُذكِّرهم بأنه منذ عهد ازدهار الكنيسة ولغاية عام ١٧٠١، أي على مدى نحو أربعة عشر قرناً، تسبب اللاهوت في مصرع أكثر من خمسين مليون إنسان؛ وأنا لا أقترح إلا خنق، أو ذبح، أو تسميم زهاء ستة ملايين وخمسمئة ألف شخص فقط.

قد أجد من يعارضني مرة أخرى بحجة أن حسابي غير صحيح، وأني أخلّ بقاعدة النسبة الثلاثية: فلئن لم يهلك سوى خمسين مليون شخص على مدى أربعة عشر

١- هنري السابع (١٢٨٢-١٣١٣): إمبراطور ألماني قاد حروباً قاسية ضد نابولي ومدن إيطاليا أخرى. لم يتوَّج إمبراطوراً إلا باللجوء إلى العنف. (م)

٢- الإصلاح، أي إصلاح الكنيسة، هو الشعار الذي اتخذه البروتستانتيون لأنفسهم. (م)

قرناً، بسبب تعريفات وأدلّة وأدلّة مضادة لاهوتية، فهذا يعني أنه لم يمت سنوياً سوى خمسة وثلاثين ألف وسبعمئة وأربعة عشر شخصاً وكسور، وبالتالي أكون قد قتلت بالزائد ستة ملايين وأربعمئة وأربعة وستين ألفاً ومئتين وخمسة وثمانين شخصاً وكسور خلال هذا العام.

هذه المماحكة ساذجة للغاية في الحقيقة؛ بل إنها ضرب من الكفر: أفليس جليّاً أني أنقذ بخطتي هذه حياة جميع الكثالكة، وإلى أبد الآبدين؟ والحق أنه ما كان لإنسان أن ينجز عملاً من الأعمال فيما لو أراد أن يحسب حساباً لجميع الانتقادات.

مع فائق الاحترام لنيافتكم، أنا الوضيع، الورع والوديع ...
من مواليد مدينة أنغوليم، ومدبّر فرع الجمعية اليسوعية.

***

لم يقيّض لهذا المشروع أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ لأن الأب لوتلّييه وجد فيه بعض الصعوبات، ولأن أبوّته حُكم عليه بالنفي في العام التالي. ولكن بما أنه ينبغي في كل حالة الموازنة بين الحسنات والسيئات، فإنه يستحسن أن نتحرّى عن الحالات التي تنطبق عليها على نحو مشروع، ولو جزئياً، وجهاتُ نظر مراسل الأب لوتلّييه. ويبدو أنه سيكون من الصعب تنفيذ هذا المشروع بكامل نقاطه، ولكن ينبغي أن ننظر في الحالات التي يتعين علينا فيها أن ندولب، أو نشنق، أو نحكم بالأشغال الشاقة على من لا يشاركنا آراءنا: هذا هو موضوع الفصل التالي.

الفصل الثامن عشر

الحالات الوحيدة التي يكون فيها التعصب من مستلزمات القانون البشري

كيلا يكون من حق حكومة من الحكومات أن تعاقب أخطاء البشر يلزم ألا تكون هذه الأخطاء جرائم؛ وهي لا تغدو جرائم إلا عندما تُخلّ بأمن المجتمع؛ وهي تخلّ بهذا الأمن عندما تحرِّض على التعصب الديني. فعلى البشر، إذاً، أن يبدؤوا بالتحرر من كل تعصب ديني كيما يستأهلوا معاملتهم بتسامح.

لو انطلق بعض اليسوعيين الشبان من فكرة أن الكنيسة تمقت الملعونين، وأن الجانسينيين ملعونون ما داموا أُدينوا بموجب براءة بابوية، فعمدوا من ثم إلى إحراق دار للآباء الأوراتوريين[1] بحجة أن كينل[2]، المنتمي إلى جمعيتهم، كان جانسينياً، فمن الواضح أن معاقبة أولئك اليسوعيين تفرض في هذه الحال نفسها فرضاً.

ولو روّجوا، كذلك، لشعارات إجرامية، ولو خالفت جمعيتهم قوانين المملكة، لتوجب حلّ هذه الجمعية وإسقاط صفة اليسوعية عن أعضائها لتحويلهم إلى مواطنين. وهذا تدبير لا ينطوي، في محصلة الحساب، إلا على شر وهمي، مقابل خير فعلي لهم. فأي ضرر لو ارتدوا ثوباً قصيراً بدل الجبة، وتنعموا بالحرية بدل البقاء في حالة عبودية؟ إن فيالق برمتها من الجنود تُسرَّح في حالة السلم، وما من أحد يشتكي، فلماذا يعلو صريخ اليسوعيين إذا ما سُرِّحوا كيما يستتب السلم؟

١- الأوراتوريون: أتباع جمعية كهنوتية كاثوليكية تأسست في فرنسا في العام ١٦١١، ونافست اليسوعيين في مجال التعليم الثانوي، ولا سيما بعد أن طُرد اليسوعيين من فرنسا عام ١٧٦٢. (م)

٢- باسكيه كينل (١٦٣٤-١٧١٩): لاهوتي فرنسي انضم إلى جمعية الأوراتوريين عام ١٦٥٧، ثم تحول عنها إلى المذهب الجانسيني ونشر عدة كتب مشبعة بالفكر الجانسيني. نفي عن فرنسا فالتجأ إلى مونس، ثم إلى بروكسل فأمستردام. بعد وفاة أرنو الكبير (عام ١٦٩٤) أصبح كينل زعيم الجانسينيين. (م)

لو أقدم الحبّالون[1]، بدافع من تعبّدهم وحميّتهم للسيدة العذراء، على تدمير كنيسة لليعاقبة[2]، بحجة أنهم يعتقدون بأن مريم ولدت في حالة الخطيئة الأصلية[3]، لتوجب أن يعامَل الحبّالون على غرار اليسوعيين.

الكلام عينه ينطبق على اللوثريين والكالفنيين. فلو تذرعوا بالقول: نحن نتّبع ما يمليه علينا ضميرنا، وخير لنا أن نطيع الله من أن نطيع البشر، ونحن، ولا أحد غيرنا، القطيع الحقيقي، ومن واجبنا إبادة الذئاب، فمن الواضح في هذه الحال أنهم يكونون هم الذئاب.

إن واحداً من أعجب الأمثلة على التعصب الديني تقدمه لنا فرقة دينية صغيرة من الدانمارك كان مبدؤها السعي وراء العالم الأفضل. فأتباع هذه النِحلة كانوا يصبُون إلى تأمين الخلاص الأبدي لأشقائهم من البشر، غير أن النتائج المترتبة على مبدئهم كانت في منتهى الشذوذ. كانوا يعتقدون أن الأطفال، الذين يموتون قبل تلقيهم سرّ المعمودية، محكوم عليهم بالهلاك الأبدي، في حين أن الأطفال الذين يقضون بعد معموديتهم مباشرة ينعمون بالمجد السرمدي. لذلك كانوا يذبحون كل من صادفوا من أطفال حديثي المعمودية من كلا الجنسين يقيناً منهم، بلا ريب، بأنهم يأتون بفعل خير تجاههم: فبقتلهم أولئك الأطفال كانوا يقونهم من الخطيئة، ومن عذابات هذه الدنيا وعذابات الجحيم، ويرسلونهم، بكل تأكيد، إلى الجنة. ولكن ما فات أولئك الناس الخيّريين أن يدركوه هو أنه لا يجوز اقتراف فعل شر صغير في سبيل خير عظيم، وأنهم لا يملكون أي حق للتصرف بحياة أولئك الأطفال، وأن الآباء والأمهات هم من البشر، وأن معظم البشر ماديون إلى درجة يفضّلون معها أن يبقى أبناؤهم وبناتهم إلى جوارهم على أن يُذبَحوا كيما يدخلوا الجنة، وأن القاضي يتوجب عليه، في خلاصة القول، أن يعاقب جريمة القتل حتى ولو اقتُرِفت بنيّة حسنة.

١- الحبّالون: اسم كان يطلق في فرنسا، حتى ثورة ١٧٨٩، على الآباء الفرنسيسكانيين. (م)

٢- اليعاقبة: اسم كان يطلق على الآباء البندكتيين. (م)

٣- على عكس عقيدة الحَبَل بلا دنس التي تقول بأن مريم العذراء وُلدت بلا خطيئة أصلية. (م)

إن لليهود الحق، أكثر من سواهم في ظاهر الأمر، في سرقتنا وقتلنا: فلئن انطوى **العهد القديم** على مئة مثال من أمثلة التسامح، فقد احتوى أيضاً على أمثلة وشرائع بالغة التشدد. فقد أمر الله اليهود، في بعض الأحيان، بقتل عَبَدة الأوثان، باستثناء المؤهَّلات للنكاح من بناتهم؛ والحال أنهم يعتبروننا من عَبَدة الأوثان. ورغم تسامحنا معهم اليوم، ففي وسعهم، إذا ما غدوا هم السادة، ألّا يدَعوا سوى بناتنا على قيد الحياة.

ولسوف يكونون ملزَمين بقتل جميع الأتراك[1]، وهذا لسبب واضح: فقد استولى الأتراك على بلاد الحيثيين، واليبوسيين، والأمّوريين، والجرجاشيين، والحوّيين، والعرقيين، والسينيين، والحمّاتيين، والصمّاريين[2]. والحال أن جميع هذه الأقوام كان حلّ عليها غضب الله، فأعطى أراضيها الممتدة في الطول على أكثر من خمسة وعشرين فرسخاً لليهود بموجب عدة عهود متتالية. ولهذا قد يتراءى لهؤلاء الأخيرين أنهم مطالبون باسترداد مِلكهم الذي اغتصبه المحمّديون منذ أكثر من ألف عام.

لو حاكم اليهود الأمور على هذا النحو اليوم، فمن الواضح أنه لن يكون لدينا من جواب آخر نردّ به عليهم سوى الحكم عليهم بالأشغال الشاقة.

تلك هي، على وجه العموم، الحالات الوحيدة التي يبدو فيها عدم التسامح منطقياً ومعقولاً.

١- في عصر ڤولتير كان اسم الأتراك يطلق عموماً على سائر المسلمين. (م)

٢- جميع هذه الأقوام جاء ذكرها في التوراة وكانت سكنت فلسطين قبل أن يحتلها أتباع موسى. (م)

الفصل التاسع عشر

حكاية شجار بسبب مجادلة في الصين

خلال السنوات الأولى من عهد الإمبراطور العظيم كانغ - هِيّ[1] سمع موظف رفيع الشأن في مدينة كانتون جَلَبة قوية صادرة عن دار تحاذي داره. سأل هل أن جريمة قتل تُرتكب، فقيل له إن شجاراً قد نشب بين مرشد رهبانية دانماركية وكاهن من باتاڤيا وأب يسوعي. أرسل الموظف في طلب الثلاثة، وقدّم لهم الشاي مع مربيات واستفسرهم عن أسباب شجارهم.

أجابه اليسوعي قائلاً إنه يشقّ كثيراً عليه، وهو الذي يقف إلى جانب الصواب دوماً، أن يتعامل مع أشخاص هم دائماً على خطأ؛ وإنه حاول في البداية أن يجادل بكثير من الاتزان، غير أن صبره فرغ في النهاية.

حاول الموظف الصيني أن يُفهم الثلاثة، بكثير من اللباقة، ضرورة التقيد بأصول الأدب في أي مساجلة، وأكد لهم أن ما من أحد يغضب ويحنق في الصين. ثم استفسرهم عن سبب خلافهم.

انبرى اليسوعي يجيب: «يا صاحب السعادة، كن أنت الحكم؛ إن هذين السيدين يرفضان الانصياع لمقررات مجمع ترنتو»[2].

«أمر مدهش»، أجاب الموظف. ثم استدار نحو المعترضَين الاثنين وقال: «يبدو لي، أيها السيدان، أن من واجبكما احترام آراء جمعية كبيرة: لست أدري ما مجمع ترنتو

١- كانغ - هِيّ: إمبراطور صيني (١٦٦٢-١٧٢٢) من سلالة تسينغ؛ أشرع أبواب الإمبراطورية أمام التأثيرات الغربية، وأمام اليسوعيين على وجه الخصوص. (م)

٢- مجمع ترنتو: مجمع مسكوني عُقد على مراحل ثلاث في مدينة ترنتو الإيطالية، بين ١٥٤٥ و١٥٦٣، وتميّز بحدّة ما شهده من المساجلات. وقد جرى التأكيد في هذا المجمع، الذي نظمّته حركة الإصلاح الكاثوليكي، المضاد لحركة الإصلاح البروتستانتي، على مجمل عقائد المذهب الكاثوليكي. (م)

ذاك، ولكن الجماعة هي دوماً أكثر علماً من الفرد. ليس يجوز لأحد أن يعتبر نفسه أوسع اطلاعاً من الآخرين، وأن العقل لا يسكن إلا في رأسه هو. هذا ما يعلّمنا إياه كونفوشيوس العظيم؛ فإن شئتما الأخذ برأيي فحسناً تفعلان لو التزمتما بمقرّرات مجمع ترنتو».

هنا أخذ الدانمركي الكلام فقال: «إنك تتكلم يا صاحب السيادة بحكمة عظيمة؛ نحن نحترم الجمعيات الكبيرة، كما يملي علينا الواجب، لذلك ترانا نتقيد كل التقيد بآراء عدة جمعيات انعقدت قبل مجمع ترنتو».

- آه، إن كانت الأمور على ما أوضحت، قال الموظّف الصيني، فإني أستميحكما المعذرة، فقد تكونان على صواب. ذلك أنكما تتفقان ولا بد في الرأي، أنت وهذا الهولندي، ضد هذا اليسوعي المسكين؟
- البتة! انبرى الهولندي يجيب؛ إن لهذا الرجل آراء لا تقل غرابة عن آراء هذا اليسوعي الذي يتظاهر باللطف أمامك؛ لا مجال، بالتالي، للأخذ بها.
- يستحيل عليّ فهمكم، قال الموظف؛ أفلستم مسيحيين أنتم الثلاثة؟ أفلم تقْدِموا بهدف نشر الدين المسيحي في إمبراطوريتنا؟ أفلا يتوجب عليكم، بالتالي، أن تلتقوا حول عقائد واحدة؟
- كما ترى يا سيدي، قال اليسوعي، كل من هذين الشخصين عدو لدود للآخر، وهما لا ينفكان عن الدخول في المماحكة معي. من الواضح، إذاً، أنهما كليهما على خطأ، وأن الصواب هو إلى جانبي.
- ليست الأمور بهذا الوضوح، ردّ الموظف؛ فمن المحتمل جداً أن تكونوا ثلاثتكم على خطأ؛ لذلك أود أن أستمع إليكم، الواحد تلو الآخر.

ألقى اليسوعي، عندها، خطبة طويلة لم يكفّ الهولندي والدانماركي أثناءها عن هز كتفيهما استخفافاً؛ ولم يفقه الموظف من الخطبة شيئاً. وتكلم الدانماركي بدوره، فيما كان خصماه يرنوان إليه بازدراء؛ ولم يزدد الموظف علماً. ولاقى الهولندي المصير عينه. أخيراً، راح الثلاثة يتكلمون دفعة واحدة، ويتبادلون الشتائم. ولم يفلح الموظف المتزن في تهدئتهم إلا بعد لأي، فقال لهم: «إن شئتم أن نتسامح مع مذهبكم هنا، فعليكم، بادئ ذي بدء، ألا تكونوا متعصبين وعديمي التسامح».

بعد ارفضاض الجلسة التقى اليسوعي بمبشِّر دومينيكاني فأنبأه بأنه قد ربح قضيته مؤكِّداً أن الحقيقة تنتصر على الدوام. فقال له الدومينيكاني: «لو تواجدت معكم لما قُدّر لك الفوز: كنت سأثبت أنك تكذب وأنك تعبد الأوثان». واحتدم الشجار، فتعارك الدومينيكاني واليسوعي وشدّ كل منهما شعر الآخر. ولمّا أُعلم الموظف الكبير بالفضيحة أمر بسجن الاثنين. وقد سأل موظف صغير القاضي: «إلى متى تشاء سيادتكم أن يَظلا موقوفين؟»، «إلى أن يتفقا»، أجاب القاضي. «آه! سوف يسجَنان مدى الحياة إذاً»، قال الموظف الصغير. «حسناً، قال القاضي، إلى أن يتسامحا». «لن يتسامحا أبداً، قال الآخر، فأنا أعرفهما حق المعرفة». «إلى أن يتظاهرا بالتسامح إذاً»، قال القاضي.

الفصل العشرون

هل من فائدة من تنشئة الشعب على الخرافة؟

قد يكون الجنس البشري من الضعف وفساد الخُلق إلى حد قد يُؤَثِر معه لجمه بكل ضروب الخرافات الممكنة، بشرط ألا تكون قاتلة، على أن يعيش بلا دين. فلطالما احتاج الإنسان إلى كابح يلجمه؛ ومع أن تقديم القرابين إلى آلهة الحقول، وربّات الغابات، وحوريات الأنهار، قد يبدو مثيراً للسخرية، تبقى عبادة هذه الأشكال الغريبة من الآلهة أكثر تعقلاً وأكثر فائدة من تعاطي الإلحاد. فالملحد الذي لا يفتأ يحاجج ويجادل بعنف ولجاج لا يكون أقلّ بلوى وأذيّة من المؤمن - الدموي المَنْزع - بالخرافات.

حينما لا تتوفر للبشر مفاهيم صحيحة عن الألوهية، تنوب منابها لا محالة تصورات خاطئة، تماماً كما يصار في الأزمنة الصعبة إلى التعاطي بالعملة المزوَّرة عندما تُفتَقد الصحيحة. لقد كان عابد الأوثان يتحاشى اقتراف جريمة، خوفاً من أن تعاقبه الآلهة الكاذبة؛ فالتاميلي، مثلاً، يخشى أن تقاصصه أصنام معبده. فحيث يقوم المجتمع، يغدو الدين ضرورياً؛ فالقوانين تسهر على ردع الجرائم المنظورة، والدين على ردع الجرائم المستورة.

ولكن بعد أن توصّل البشر إلى اعتناق ديانة طاهرة ومقدّسة، لم تعد الخرافة غير لازمة فحسب، بل أمست شديدة الخطورة أيضاً. فليس يجوز أن نُقيت بالبلّوط مَن مَنّ الله عليهم بالخبز.

إن الخرافة بالنسبة إلى الدين لهي كالتنجيم بالنسبة إلى علم الفلك، أو فلنقل إنها البنت المجنونة لأم حكيمة. ولطالما طوَّعت هاتان المرأتان العالم بأسره.

في عهود الهمجية، في زمن ما كانت تتواجد فيه نسخة من **العهد الجديد** إلا في بيت إقطاعي واحد أو اثنين، كان يمكن غضّ النظر عن سرد الخرافات على أسماع الجهلة عديمي الثقافة، أي على أولئك السادة الإقطاعيين أنفسهم، وعلى زوجاتهم الغبيات، وعلى مواليهم الأفظاظ. وهكذا أُدخل في روعهم أن القديس كريستوف حمل الطفل

يسوع من ضفة نهر إلى الأخرى؛ كما حُشيت أدمغتهم بقصص السحرة والممسوسين. فكانوا يتصورون بمنتهى اليسر أن القديس جونو يشفي من داء النقرس، وأن القديسة كلارا تبرئ العيون المريضة. وكان الأولاد يصدّقون بوجود الغيلان، والآباء يؤمنون بالقدرة العجائبية لحبل جبّة القديس فرنسيس الأسيّزي. وكانت ذخائر القديسين والبقايا المتبقية من رفاتهم لا تقع تحت حصر.

وقد بقي صدأ هذا الفيض من الخرافات عالقاً لبعض الزمن لدى الشعوب، حتى بعد أن جرت تنقية الدين من شوائبه. فنحن نعلم كيف قاضت مدينة شالون أُسقفها، السيد دي نواي، لأنه أمر بأن تُنزع وتُحرق الذخيرة المقدسة المزعومة لسرّة المسيح؛ بيد أن هذا الأسقف دلل عن شجاعة تعادل تقواه، ونجح في إقناع سكان منطقة شمبانيا[1] بأن المسيح يُعبَد بالروح وبالحقيقة بدون حاجة لوجود سرّته في الكنيسة.

لقد ساهم الجانسينيون على نحو ملموس في تحرير عقول الناس من معظم الأفكار الخاطئة، المشينة بحق الدين المسيحي. فما من أحد عاد يؤمن بأنه يكفيه أن يتلو صلاة الثلاثين يوماً للعذراء مريم كي يحصل على كل ما يتمنى، وكي يقترف من الخطايا ما شاء من دون عقاب.

وأخيراً، شرعت البورجوازية تشكك في أن تكون القديسة جنفييف[2] هي التي تمنح الأمطار أو تحبسها، وأدركت أن التحكم بعناصر الطبيعة يعود إلى الله وحده. وقد أبدى الرهبان عن استغرابهم من كون القديسين قد توقفوا عن إتيان المعجزات. ولو قيّض لمؤلِّفي «**حياة القديس فرنسوا كزافييه**» أن يعودوا إلى الحياة، لما تجرؤوا على أن يكتبوا أن القديس قد أحيا تسعة أموات، وأنه تواجد في البحر وعلى البر في آن معاً، وأن صليبه سقط في البحر فأعاده إليه سرطان بحري.

الملاحظة عينها تنطبق على الحِرْم الكنسي. فمؤرخوننا يزعمون أنه بعد أن أنزل

١- شمبانيا: مقاطعة فرنسية تقع في شمال شرقي البلاد، وشالون من مدنها الكبرى. (م)

٢- القديسة جنفييف (نحو ٤٢٢ - نحو ٥٠٢): شفيعة مدينة باريس التي تعهدت لسكانها بألا يُمسّوا بسوء على يد زعيم قبائل الهون، أتيلا. وقد نجوا فعلاً من فتكه. بقيت شعبيتها عظيمة في باريس لغاية ثورة ١٧٨٩. (م)

البابا غريغوريوس الخامس الحِرْم الكنسي بحق الملك روبير[1]، لأنه تزوج من ابنة عمه الأميرة برتا، رمى الخدم من النوافذ اللحوم التي كانت تُعدّ للملك، وولدت الملكة برتا إوزة عقاباً على ذلك الزواج القائم على زنى المحارم. ما عاد يوجد بعد اليوم من قد يصدّق بأن خدم ملك أُنزل بحقه الحِرْم الكنسي سيتجرؤون على رمي طعام عشائه من النافذة، وبأن الملكة ستلد فرخ إوز للسبب عينه.

قد يتواجد حتى يومنا هذا بعض المختلجين في ضاحية من الضواحي؛ غير أن مرض المقمّلين هذا لا يصيب إلا أحط طبقات الرعاع. فالعقل لا يفتأ يزداد انتشاراً وتغلغلاً في فرنسا يوماً بعد يوم، في حوانيت التجار كما في قصور النبلاء. المطلوب، إذاً، رعاية ثمرات هذا العقل، ولاسيما أنه بات يستحيل الحؤول دون تفتّحها. ويتعذر اليوم أن تُحكم فرنسا، بعد أن نوَّرها أمثال بسكال، ونيكول[2]، وأرنو[3]، وبوسويه[4]،

١- روبير الثاني الملّقب بالورع (نحو ٩٧٠-١٠٣١): ارتقى عرش فرنسا عام ٩٩٦ وأُنزل به الحِرْم الكنسي، بالرغم من تقواه، لأنه طلّق زوجته الأولى ليعقد على ابنة عمه. (م)

٢- بيير نيكول (١٦٢٥-١٦٩٥): كاتب أخلاقي فرنسي علّم في دير بور - روايال وانتصر للجانسينيين، وشارك مع أرنو في تحرير **منطق بور—روايال**، والتحق به في هولندا هرباً من الاضطهاد. (م)

٣- أنطوان أرنو الملقب بأرنو الكبير (١٦١٢-١٦٩٤): لاهوتي فرنسي ذاعت شهرته لمّا كتب ضد اليسوعيين رسالته عن **المناولة المتكررة**، وانتصر لجانسينوس في مذهبه حول النعمة الإلهية، فتأدى ذلك إلى إدانته مِن قبل جامعة السوربون وطرده من كلية اللاهوت. حبس نفسه في دير بور - روايال اثني عشر عاماً حيث وضع بالمشاركة مع نيكول، كتاب **المنطق أو فن التفكير**. ألجأه الاضطهاد إلى بلجيكا حيث دخل في مساجلات مع البروتستانتيين، ثم كتب **في الأفكار الصادقة والكاذبة** دفاعاً عن نظرية النعمة والرؤية في الله ضداً على مالبرانش. (م)

٤- جاك بوسويه (١٦٢٧-١٧٠٤): لاهوتي وكاتب فرنسي، اشتهر أولاً بمواعظه ثم ما لبث أن عَلّق نشاطاته الكنسية ليتفرغ لوظيفته كمؤدب لوليّ العهد. وحرصاً منه على فائدة تلميذه تحوّل إلى مؤرخ وفيلسوف وكتب **المقال في التاريخ الكوني**، الذي حاول فيه التركيب بين النظام الإلهي والفاعلية الإنسانية. ثم خاض في مساجلات لاهوتية ضد البروتستانتيين، وأصاب نفوذاً كبيراً، وآلت إليه زعامة كنيسة فرنسا. ورغم تعرّضه في هذه المساجلات حرّر بناء على طلب الملك لويس الرابع عشر بياناً باسم إكليروس فرنسا، سعى فيه إلى

وديكارت، وغاسندي[١]، وبايل[٢]، وفونتنيل[٣]، كما كانت تُحكَم في عصر غاراس[٤] ومونو[٥].

لو أن فقهاء الضلال، أعني كبار الأساتذة الذين طالما أُكرموا وأُغدق عليهم بالمال كي يبلّدوا عقول البشر، أوجبوا على الناس اليوم الاعتقاد بأن على الحبّة أن تنتن وتفسد كي تنبت، وأن الأرض ثابتة على ركائزها ولا تدور حول الشمس، وأن المدّ والجزر ليسا بالنتيجة الطبيعية لجاذبية الأرض، وأن قوس قزح لا يتشكل من جراء انكسار أشعة الضوء وانعكاسها، الخ، ولو اعتمدوا على مقاطع مُساء فهمها من

التوفيق بين السلطة البابوية والحريات الأنغليكانية، كما بين المطلب الديني والمطلب العقلي. وختم حياته الفكرية بالسجال ضد مذهب الطمأنينة التصوفي، كما قال به تلميذه ٤. (م)

١- بيير غاسندي (١٥٩٢-١٦٥٥): عالم وفيلسوف ورجل دين فرنسي، قادته أعماله في الرياضيات والسمعيات وعلم الفلك إلى توجيه النقد إلى ديكارت، ثم إلى التوفيق بين المذهب الذرّي القديم والأخلاق الإبيقورية. (م)

٢- بيير بايل (١٦٤٧-١٧٠٦): كاتب فرنسي جاءت أعماله، ولا سيما **قاموسه التاريخي والفلسفي**، وكذلك نقده للخرافات الشعبية، لتبشّر بميلاد العقل الفلسفي للقرن الثامن عشر. (م)

٣- برنار فونتنيل (١٦٥٧-١٧٥٧): كاتب فرنسي درس أولاً لدى اليسوعيين وحظي برفيع التقدير في الصالونات الأدبية حيث كان يفتن النساء بحديثه الظريف المرهف. بيد أن أصالته واستقلاله الفكري تبدّيا بوضوح عندما أصدر **محاورات الموتى** ثم **أحاديث حول تعدد العوالم**، وقد أخذ على عاتقه فيهما أن يُدخل إلى عقلية أهل زمانه الرؤية الجديدة للعالَم كما يمكن استخلاصها من كشوف كوبرنيكوس وديكارت. وكان، بحق، بشيراً بعصر الأنوار من خلال كتابيه **تاريخ العرافات** و**أصل الخرافات**، إذ اعتبر أساطير الأقدمين الدينية اختراعات اخترعتها السذاجة البشرية. (م)

٤- فرنسوا غاراس (١٥٨٥-١٦٣٠): راهب يسوعي فرنسي متشدّد، تفرّغ لمحاربة الهرطقة والحرية الجنسية والمجون الفكري، وأرهب أدباء عصره، ولم يتورع عن استخدام سلاح الافتراء ضدهم. وكان أول من أشعل فتيل الخلاف بين اليسوعيين والجانسينيين. (م)

٥- ميشيل مونو، (توفي عام ١٥٨٨): راهب فرنسيسكاني، اشتهر بمواعظه التي لجأ فيها إلى الهزل الفجّ لتسفيه أخلاق المجتمع الفرنسي النازع إلى التحرر في عصره. (م)

الكتاب المقدس كي يدعموا دعاويهم، فكيف سينظر إليهم كلُّ مَن تعلّم وتثقّف من الناس؟ هل تكون كلمة «بهائم» قاسية أكثر مما ينبغي في هذه الحال لوصفهم؟ ولو لجأ هؤلاء الفقهاء الحكماء إلى القوة والاضطهاد ليفرضوا سلطان جهلهم الصفيق، فهل تكون كلمة «بهائم متوحشة» نابية بحقهم؟

بقدر ما تُحتَقر أباطيل الرهبان ويُحطّ من شأنها، يحظى الأساقفة والكهنة بمزيد من الاعتبار والاحترام. فهؤلاء لا يفعلون سوى الخير، في حين أن أباطيل الرهبان، المتشددين في انتصارهم للكرسي البابوي، لا تتأتى منها إلا الأضرار. ولكن ألا تبقى أكثر هذه الأباطيل خطورة تلك التي تحثّ على كراهية الآخر بسبب آرائه؟ أفلا تهون عبادة السرّة المقدسة، والغُرْلة المقدسة[1]، ولبن السيدة العذراء وثوبها، وتبدو أقرب إلى العقل من كراهية الأخ واضطهاد الشقيق؟

١- الغرلة: جلدة الذكر التي تقطع بالختان. ومن هنا كان التمييز اللاهوتي بين أهل الختان اليهود وأهل الغرلة المسيحيين. (م)

الفصل الحادي والعشرون

الفضيلة خير من العلم

كلما قلّ عدد العقائد، قلّ عدد النزاعات؛ وكلما قلّت النزاعات، قلّت المصائب: إن لم يكن هذا الكلام صائباً، أكن أنا المخطئ.

لقد وُجد الدين ليجعلنا سعداء في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة. ما المطلوب كي نكون سعداء في الآخرة؟ أن نكون صالحين. وما العمل كي نكون سعداء في هذه الدنيا في حدود ما يسمح به بؤس طبيعتنا؟ أن نكون متسامحين.

إنه لمن منتهى الحمق أن يدّعي مدّعٍ أنه قادر على حمل البشر قاطبة على التفكير بطريقة واحدة في شؤون الميتافيزيقا. فتطويع الكون برمته بقوة السلاح أسهل بما لا يقاس من تطويع العقول في مدينة واحدة.

لقد أقنع إقليدس بسهولة البشر قاطبة بحقائق الهندسة. لماذا؟ لأن ما من واحدة منها إلا وهي لازمة عن هذه البديهية البسيطة: اثنان واثنان يساويان أربعة. غير أن الأمر يختلف في مزيج الميتافيزيقا واللاهوت.

عندما استهلّ الأسقف الإسكندر والقس أريوس مشاحنتهما حول كيفية انبثاق اللوغوس من الآب[1]، كتب إليهما الإمبراطور قسطنطين هذه الكلمات التي نقلها أوسابيوس عن سقراط: «ما أحمقكما إذ تتخاصمان بصدد أمور لا يسعكما فهمها».

لو دلّل الطرفان عن قدر من الحكمة فسلّما بصحة رأي الإمبراطور، لما سالت الدماء غزيرة في العالم المسيحي على مدى قرون ثلاثة.

فهل من حماقة أكبر ومن شناعة أفظع من أن نقول للبشر: «أيها الأصدقاء، لا يكفي أن تكونوا رعايا أوفياء، وأبناء مطيعين، وآباء عطوفين، وجيراناً منصفين؛ ولا

١- كان يوحنا، رابع الإنجيليين، هو أول من أدخل اللغة الفلسفية اليونانية إلى المسيحية، فافتتح إنجيله بالقول: «في البدء كان الكلمة (أي اللوغوس)... والكلمة (أي الله في شخص المسيح) صار بشراً».

يكفي أن تمارسوا الفضائل كافة، فتراعوا الصداقة، وتنبذوا الإجحاف، وتعبدوا يسوع المسيح بأمان وسلام؛ بل يتعين عليكم، أيضاً، أن تعرفوا كيف أُوجِدنا من أبد الآبدين؛ وإن عجزتم عن تمييز الأقنوم من المشارك في الجوهر[1] فإننا سوف نشي بكم لتحترقوا في نار الجحيم إلى أبد الآبدين؛ وبانتظار ذلك سنبدأ بذبحكم ذبحاً».

لو عُرض مثل هذا القرار على شخص مثل أرخميدس، أو بوزيدونيوس[2]، أو ڤارون[3]، أو كاتون[4]، أو شيشرون... فبمَ كان سيجيب؟

لم يثابر قسطنطين على موقفه الأول الرامي إلى إسكات الفريقين. فقد كان في مقدوره أن يدعو قادة تلك المماحكات إلى قصره ويسألهم بأي حق يعيثون فساداً في العالم: «هل فُوِّضتم بالأمر من قبل الأسرة الإلهية؟ ولمَ يهمّكم أن تعرفوا هل اللوغوس مجعول أو مخلوق[5]، ما دام كل المطلوب أن نكون أوفياء له، وأن ندعو إلى الأخلاق القويمة، وأن نمارسها إذا أمكن؟ لقد ارتكبتُ العديد من الأخطاء في حياتي، وأنتم

١- الأقنوم والمُشارِك في الجوهر من مفردات اللاهوت المسيحي الذي اعتبر أن الله واحد من ثلاثة أقانيم، الأب والابن والروح القدس، وكل من الابن والروح القدس مشاركان لله الأب في الجوهر. (م)

٢- بوزيدونيوس (نحو ١٣٥ - نحو ٥٠ ق. م): مؤرخ وفيلسوف رواقي ولد في أفاميا، في سوريا، ودرّس في رودوس حيث كان درَس عليه شيشرون وبومبيوس، منافس يوليوس قيصر على سدة الإمبراطورية. (م)

٣- ماركوس ترنتيوس ڤارون (١١٦-٢٧ ق. م): علاّمة لاتيني متعدد الاختصاصات. كان محامياً في روما وشارك في الحرب الأهلية إلى جانب بومبيوس، ثم عاد فتصالح مع قيصر الذي عهد إليه بمهمة تنظيم المكتبات العامة. (م)

٤- كاتون الملقب بالقديم أو بالرقيب (٢٣٤-١٤٩ ق. م): رجل دولة روماني. سعى إلى مكافحة البذخ وانتشار العادات الإغريقية في روما. اتبع سياسة محافظة وقومية عندما أصبح قنصلاً في العام ١٩٥ ق. م، وعمل على الحد من عظمة قرطاجة. كان كاتون واحداً من أوّل من كتب باللاتينية. (م)

٥- هل اللوغوس مجعول أو مخلوق؟ هذه المساجلة التي دارت بين أريوس وخصومه حول طبيعة المسيح، بوصفه كلمة الله، ستجد استمراراً لها في الإسلام من خلال الصراع بين المعتزلة والحنابلة حول القرآن وحول ما إذا كان، بوصفه كلام الله، مخلوقاً أو مجعولاً. (م)

كذلك؛ أنتم طموحون، وأنا كذلك. لقد أتيت ما أتيت من أفعال المكر والقسوة في سبيل الإمبراطورية، وأقدمت على قتل جميع أهلي وأقاربي تقريباً[1]؛ إني نادم عما فعلت، وراغب في التكفير عن جرائمي بأن أجعل الأمن يستتب في الإمبراطورية الرومانية. لا تمنعوني، إذاً، من النهوض بعمل الخير الوحيد الخليق بمحو ذكرى أفعالي الهمجية السابقة؛ ساعدوني كيما أنعم بالسلام في أيامي الأخيرة». لكن قسطنطين لم يفعل ذلك؛ ربما ما كان سيحقق نتيجة مع المتشاجرين؛ وربما كفاه زهواً أن يكون ترأّس مجمعاً كنسياً، وارتدى ثوباً طويلاً، وأثقل رأسه بالأحجار الكريمة.

ولكن هذا بالضبط ما أشرع الأبواب أمام تلك البلايا التي أتت من آسيا لتُغرِق الغرب. فمن كل آية متنازع عليها من آيات الكتاب المقدس انبجس عنف مسلح بالسفسطة والخناجر، أطلق العنان للجنون والقسوة بين البشر. إن قبائل الهُون، والهيرول، والقوط، والفندال، التي اجتاحت الإمبراطورية واحدة تلو الأخرى، ما ألحقت بها إلا قدْراً أقل بكثير من الأضرار؛ ولعل أعظم ضرر تسببت فيه كان دخولها، بدورها، في دائرة تلك المشاحنات المشؤومة.

١- قسطنطين (فلاڤيوس قسطنطنيوس باللاتينية): الرابع والثلاثون من أباطرة روما (٢٧٢-٣٣٧). أعاد الوحدة إلى الإمبراطورية من خلال إقراره بشرعية المسيحية، وإصداره مرسوم ميلانو الشهير عام ٣١٣ الذي أباح حرية العبادة. ورغم ما يقال عن اعتناقه للمسيحية، فقد عاش وثنياً ولم يتلق المعمودية إلا يوم وفاته. وقد طوبته الكنيسة قديساً، رغم أن حياته تميزت بعنف منقطع النظير: ففضلاً عن تصفيته الدموية لخصومه، اغتال أباه، وقتل زوجته خنقاً في الحمام، وذبح ابنه، وصفّى جسدياً العديد من أفراد أسرته. (م)

الفصل الثاني والعشرون

في التسامح الكوني

لم أكن في حاجة إلى حذق كبير أو بلاغة متكلفة كيما أثبت أن على المسيحيين أن يكونوا متسامحين فيما بينهم. غير أني سأذهب إلى أبعد من ذلك فأدعوكم إلى اعتبار البشر جميعاً إخوة لكم. ماذا؟ قد تجيبون؛ أيكون التركي شقيقي؟ والصيني شقيقي؟ واليهودي؟ والسيامي؟ أجل بلا ريب؛ أفلسنا جميعاً أبناء أب واحد، ومخلوقات إله واحد؟

قد يقول قائلكم: ولكن هذه الشعوب تحتقرنا؛ تعتبرنا من عَبَدة الأوثان! حسناً، سوف أقول لها إنها مخطئة. وأعتقد أني قد أربك على الأقل هذا الإمام المكابر أو ذلك الراهب البوذي السيامي المتعجرف، إذا ما خاطبتهما على النحو التالي:

هذه الكرة الأرضية الصغيرة ليست أكثر من نقطةٍ دائرة في الفضاء، على غرار كرات أخرى عديدة؛ ونحن ضائعون داخل هذا الكون الشاسع، اللامتناهي الأبعاد. إن الإنسان، هذا الذي لا يتجاوز طوله خمس أقدام، لا يمثّل شيئاً يُذكَر في هذه الخليقة. لنتخيل واحداً من تلك الكائنات التي تكاد لا تُرى وهو يصارح جيرانه في شبه الجزيرة العربية أو في كافريريا[1] قائلاً: «اصغوا إليّ، فقد هداني رب العالمين: هنالك تسعمئة مليون نملة صغيرة على شاكلتنا على وجه الأرض، ولكن منملتي وحدها عزيزة على قلب الله الذي يمقت المنملات الأخرى من الأزل إلى الأبد؛ إن منملتي وحدها ستحظى بالسعادة، أما المنملات الأخرى فستكون ملعونة إلى أبد الآبدين».

هنا سيقاطعني الإمام أو الراهب البوذي ليسألني أي مجنون قد تفوّه بهذه الحماقة. وسأجد نفسي مضطراً إلى الإجابة: «أنتما الاثنان». وسأحاول فيما بعد مراضاتهما، غير أن مهمتي لن تكون سهلة.

١- كافريريا: كلمة من أصل عربي، كانت تشير في الماضي إلى الشطر الإفريقي الواقع جنوب خط الاستواء، وما عادت تشير اليوم إلا إلى منطقتين من مقاطعة الكاب. (م)

سأتوجه بالكلام، بعد ذلك، إلى المسيحيين وأتجرأ على أن أقول، مثلاً، لراهب دومينيكاني من محققي ديوان التفتيش: «يا أخي، هل تعلم أن لكل مقاطعة في إيطاليا لغتها الخاصة، وأن رطانة البندقية وبرغامو غير رطانة فلورنسا؟ لقد وضعت أكاديمية كروسكا[1] قواعد ثابتة للغة، وقاموسها يُعتبر مرجعاً لا يجوز لأحد أن يحيد عنه؛ كما أن كتاب **القواعد** لبوانمتّي[2] يُعتبر، هو الآخر، دليلاً معصوماً عن الخطأ يتعيّن التقيّد به. فهل تعتقد أن قنصل الأكاديمية، أو بوانمتّي في غيابه، سيأمران، وبكل راحة ضمير، بقطع لسان سائر سكان البندقية، أو برغامو، المواظبين على الكلام بلغتهم المحلية؟».

سوف يجيبني المحقق في محكمة التفتيش: «شَتّان ما بين الأمرين؛ فمسعانا، نحن، يرمي إلى إنقاذ الأرواح. فخدمةً لمصلحتكم تأمر الهيئة العليا لمحكمة التفتيش بإلقاء القبض عليكم بناء على شهادة شخص واحد، حتى ولو كان نذلاً ومحكوماً عليه سابقاً؛ وخدمةً لمصلحتكم، أيضاً، تُحرَمون من عون محام يتولى الدفاع عنكم؛ قد تجهلون حتى اسم الشخص الذي اتهمكم، وقد يعدكم القاضي بالعفو ثم يصدر حكمه بإدانتكم، وقد تخضَعون لخمسة ضروب مختلفة من التعذيب قبل أن يصار إلى جلدكم بالسياط، أو إرسالكم إلى الأشغال الشاقة، أو إحراقكم وسط أجواء احتفالية[3]. ومهما يكن من أمر، فإن الأب إيڤونيه، والدكتور كوشالون، وزنكنيوس، وكامبيجيوس، ورُوياس، وملينوس، وغوماروس، وديابوروس، وجرملينوس[4] يؤكدون، وعلى نحو قاطع، أن هذه الممارسة الورعة لا تحتمل أي معارضة أو مناقضة».

سوف أسمح لنفسي عندها بأن أجيب: «ربما تكون على صواب يا أخي؛ وإني

١- أكاديمية كروسكا الإيطالية للدراسات اللغوية واللسانية، أسسها في فلورنسا أنطونيو غراتزيني عام ١٥٨٣. (م)

٢- بندتو بوانمتّي: لغوي إيطالي من القرن السادس عشر، خالف أطروحات أكاديمية كروسكا ووضع معجماً للغة التوسكانية. (م)

٣- راجع الكتاب الممتاز «**الوجيز في محاكم التفتيش**» [الوجيز في محاكم التفتيش: عنوان عدة تصانيف وضعت باللاتينية في القرون الوسطى؛ ولعل ڤولتير يشير هنا إلى وجيز نيقولا إيمريك (م)].

٤- جميع هؤلاء الأعلام كانوا من الفقهاء واللاهوتيين الذين شرّعوا لمحاكم التفتيش. (م)

لواثق من أنك تسعى وراء مصلحتي. ولكن، ألا يمكن إنقاذي من دون اللجوء إلى هذه الأساليب؟».

صحيح أن أشباه هذه الفظائع، التي لا يتقبلها عقل، لا تلطّخ وجه الأرض يومياً؛ ولكنها كانت فيما مضى متواترة؛ بل قد يسعنا، لو سردنا تفاصيلها، أن نضع مجلداً أضخم بكثير من الأناجيل التي تدينها أصلاً. فعلاوة على القسوة المفرطة التي ندلل عليها عندما نضطهد، خلال هذه الحياة الوجيزة، كل من لا يفكر على منوالنا، أفلا ندلل أيضاً على جسارة لامتناهية عندما نحكم عليه باللعنة الأبدية؟ ذلك أنه لا يجوز، في نظري، لذرّات عابرة مثلنا، أن تستبق أحكام الخالق. لست ممن يعترضون على الحكمة القائلة: «لا خلاص خارج الكنيسة»؛ فأنا أحترم الكنيسة كما أحترم تعاليمها كافة؛ ولكن كلمة حق تقال: هل نحن مطّلعون على دروب الله قاطبة، وعلى سعة حِلْمه ورحمته؟ فلماذا لا يكون رجاؤنا فيه معادلاً لخشيتنا منه؟ ثم ألا يكفي أن نكون مخلصين للكنيسة؟ وهل يتوجب أن يغتصب بعضهم حقوق الله، فيستبقه إلى تقرير المصير الأبدي للبشر أجمعين؟

عندما نعلن الحِداد على ملك السويد، أو الدانمارك، أو إنكلترا، أو بروسيا[1]، فهل نقول إننا نحدّ على ملعون سوف يحترق إلى الأبد في نار جهنم؟ ففي أوروبا اليوم زهاء أربعين مليون شخص غير تابعين لكنيسة روما، فهل نقول لكل واحد من بينهم: «سيدي، بما أنك محكوم عليك باللعنة الأبدية لا محالة، لذا أرفض أن آكل، أو أتحدث، أو أتعاقد معك؟».

أيّ سفير فرنسي سيقول بينه وبين نفسه إذا ما مثُل أمام الصدر الأعظم: إن جلالتكم ستكتوي لا محالة بنار جهنم إلى أبد الآبدين لأنها خضعت للختان؟ فلو كان هذا السفير يعتقد حقاً وفعلاً أن الصدر الأعظم هو العدو اللدود لله، وموضوع غضبه وثأره، فهل كان سيسعه أن يتكلم معه؟ بل هل كان يجوز أن يوفَد إليه أصلاً؟ فأي امرئ نستطيع أن نعاشر، وأي واجب من واجبات الحياة المدنية نستطيع الاضطلاع به، لو كنا على اقتناع بأننا لا نتعامل إلا مع محكوم عليهم باللعنة الأبدية؟

يا أيها المتشيعون لإله الرأفة! إن كانت قلوبكم قاسية؛ وإن كنتم، وأنتم تتعبدون لمن

١- جميع هذه البلدان بروتستانتية. (م)

يتلخص جوهر شريعته بالعبارة التالية: «أحبوا الله وأحبوا قريبكم»، قد حمّلتم هذه الشريعة الطاهرة والمقدسة بالسفسطات وبالمشاحنات التي لا مخرج من متاهتها؛ وإن كنتم تشعلون نار الشِّقاق والفتنة بسبب كلمة جديدة تارة، أو حرف واحد من الأبجدية تارة أخرى؛ وإن كنتم ترهنون العقوبات الأبدية ببضع عبارات تُغفَل أو يساء تأويلها، أو بطقوس ما كان للشعوب الأخرى أن تعرفها، فسوف أقول لكم عندها، وأنا أذرف الدمع على الجنس البشري: «انتقلوا معي إلى اليوم الذي سيقاضى فيه جميع البشر، يوم يحاسب الله كل إنسان حسب أعماله.

«إني أرى جميع موتى القرون السابقة، وقرننا هذا، يمثُلون في حضرته. أواثقون أنتم من أن خالقنا وأبانا سيقول للفاضل كونفوشيوس، أو للمشرّع صولون[1]، أو لفيثاغورس، أو لزالوقوس[2]، أو لسقراط، أو لأفلاطون، أو للأباطرة الأنطونيين المؤلّهين، أو لترايانوس الطيب، أو لتيطوس[3]، أو لأبقتاتوس[4]، أو لسواهم من نخبة البشر وخيرة الناس: «ابتعدوا عني يا أيها المسوخ، اذهبوا وتحمّلوا عقوبات لامتناهية

١- صولون (نحو ٦٤٠ - نحو ٥٥٨ ق. م): رجل دولة أثيني وواحد من حكماء اليونان السبعة. ارتبط اسمه بالإصلاح الاجتماعي والسياسي الذي تدين له أثينا بنهضتها، كما أرسى الأسس الأولى لما سيعرف بالديموقراطية الأثينية. (م)

٢- زالوقوس: تلميذ فيثاغورس؛ عاش في القرن السادس قبل الميلاد وكان مشرّع أبناء جلدته من اللوقريين في إيطاليا الجنوبية. وقد قامت شريعته على ضرورة الدين. والمؤرخون يشككون في وجوده. (م)

٣- تيطوس (٣٩-٨١): إمبراطور روماني؛ تميّز عهده بالليبرالية وبالإنشاءات الضخمة، منها مدرّج روما الشهير، وبانفجار بركان الفيزوف (٧٩) الذي دمّر ثلاث مدن، منها بومباي. (م)

٤- إبقتاتوس: فيلسوف رواقي ولد نحو سنة ٥٠ بعد الميلاد في فريجيا في آسيا الصغرى. كان عبداً مسكيناً، وقد سيق إلى روما في ظروف بقيت مجهولة. ومع أن سيده، إبافروديتس، كان شديد القسوة في معاملته، فقد أباح له حضور الدروس التي كان يلقيها موزونيوس روفوس، الرواقي الذي افتتح مدرسة في روما. وانتقل هو نفسه بعد ذلك إلى التدريس في روما أولاً، ثم في نيقوبوليس، وحقق شهرة منقطعة النظير. وقد توصل إبقتاتوس الفريجي إلى أن يربط بأوثق العرى مفهومَي الحرية والفضيلة. (م)

شدة وديمومة، وليكن قصاصكم أبدياً مثلي! أما أنتم يا أحبائي، جان شاتيل[١]، وراڤاياك[٢]، وداميان[٣] وكارتوش[٤]، الخ، أنتم يا من قضيتم نحبكم وفق الطقوس المنصوص عليها، فاجلسوا على يميني وشاركوني في ملكوتي وغبطتي»».

أتنكصون على أعقابكم مستفظعين هذه الكلمات؟ ولكن لم يعد عندي ما أقوله لكم بعد أن أفلتت مني.

١- جان شاتيل (١٥٧٥-١٥٩٤): شاب حاول اغتيال الملك هنري الرابع في ٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٥٩٤، فأُعدم بعد يومين. كان تلميذاً لليسوعيين، فاتُّهم هؤلاء بأنهم هم مدبّرو المؤامرة فاضطهِدوا. وقد عدّته الرابطة الكاثوليكية شهيداً من شهدائها. (م)

٢- فرانسوا راڤاياك (١٥٧٨-١٦١٠): قاتل الملك هنري الرابع. أُعدم فسخاً من القدمين. (م)

٣- روبير داميان (١٧١٥-١٧٥٧): حاول اغتيال الملك لويس الخامس عشر؛ ورغم عفو هذا الأخير عنه حكمت عليه محكمة باريس بالإعدام، فنُفّذ فيه الحكم بفسخه من رجليه. (م)

٤- كارتوش (١٦٩٣-١٧٢٠): لص شهير في تاريخ فرنسا. كان لصاً عادياً، ولكن اسمه أحيط بهالة أسطورية بعد أن جَعل منه الممثل لوغران بطلاً لمسرحيته التي عُرضت يوم إعدام كارتوش بالدولاب؛ ثم كُتبت باسمه ملحمة قارنها ڤولتير، على سبيل السخرية، بالهنرياذة. وقد جعله لابوميل، الخصم الفكري لڤولتير، أعلى كعباً من صولون في الحكمة والتشريع. (م)

الفصل الثالث والعشرون

صلاة إلى الله

إذن، لم أعد إلى البشر أتوجه، بل إليك يا رب جميع الكائنات والعوالم والأزمان: فإن جاز لمخلوقات ضعيفة، تائهة في فضاء العالم اللامحدود، وغير منظورة من قِبل بقية الكون، أن تتجرأ فتطلب منك شيئاً. أنت يا من رسم كل شيء ويا من قضاؤك ثابت سرمدي، فهو أن تتلطف وتنظر بعين الرحمة والشفقة إلى الأخطاء والضلالات المترتبة على طبيعتنا، ولا تسمح بأن تكون هذه الأخطاء والضلالات سبب هلاكنا. أنت لم تمنحنا قلباً كي نبغض بعضنا بعضاً، ولا أيادٍ كي نذبح بعضنا بعضاً؛ اجعلنا نتآزر لنحمل عبء حياة صعبة وعابرة؛ ولا تسمح بأن تغدو الفوارق الطفيفة بين الملابس التي تغطي أجسادنا الواهنة، أو بين لغاتنا التي هي سواء في عدم اكتمالها، أو بين عادتنا السخيفة، أو بين قوانيننا التي تشكو من ألف علّة وعلة، أو بين آرائنا المغلوطة، أو بين شروط حياتنا الشديدة التفاوت في نظرنا والمتساوية تماماً في نظرك، لا تسمح بأن تغدو كل هذه الفوارق الطفيفة، التي هي من السمات المميزة لتلك الذرّات المسماة «بشراً»، علامات حقد واضطهاد. واجعل الذين يولِعون الشموع في رابعة النهار، إكراماً لك، يتحمّلون من يكتفي بنور شمسك؛ واجعل الذين يغطّون لباسهم بكتان أبيض، حين يدعون إلى محبتك، يمتنعون عن كراهية من يقولون الشيء عينه وهم مرتدون معطفاً من الصوف الأسود؛ واجعل سواء في نظرهم أن يتعبّدوا لك برطانة متحدِّرة من لغة قديمة أو برطانة آتية من لغة أكثر حداثة؛ واجعل أولئك الذين يرتدون لباساً مصبوغاً بالأرجوان أو بالبنفسج، ممن يتبخترون فوق رقعة صغيرة من طين هذا العالم ويملكون بعض القطع المستديرة من معدن بعينه، يتنعّمون بلا عجرفة بما يسمونه بـ«الثروة» و«الأبهة»، واجعل الآخرين في الوقت نفسه ينظرون إليهم بلا حسد: فأنت خير من يعلم أنه ليس في هذه الأباطيل ما يدعو إلى الحسد أو إلى التباهي.

حبذا لو تذكّر البشر قاطبة أنهم أخوة! وليتهم يمقتون الاستبداد الذي يثقل بباهظ

وطأته على النفوس، تماماً كما يمقتون اللصوصية التي تَحْرُم، بالقوة، العاملين وأصحاب الحرف المسالمين من ثمرة عملهم. وإن لم يكن من سبيل إلى تفادي آفات الحرب وويلاتها، فلنتفادَ، على الأقل، أن نتحارب ونتذابح فيما بيننا أيام السلم، ولنكرّس كل لحظة من حياتنا لنبارك معاً، وبمختلف لغات الأرض، من السيام إلى كاليفورنيا، رأفتك التي منحتنا هذه اللحظة.

الفصل الرابع والعشرون

ملاحظة إضافية

فيما كنا منكبّين على تحرير هذه المقالة، غير واضعين نصب عينينا سوى أن نجعل البشر أكثر رحمة ووداعة، كان شخص آخر يكتب بدوره، ولكن سعياً وراء هدف معاكس تماماً: ولا غرو، فلكل إنسان رأيه الخاص. وقد عمد هذا الشخص[1] إلى نشر كتيّب عن مشروعية الاضطهاد، أسماه «**توافق الدين والإنسانية**» (وقع الناشر في خطأ ولا بد إذ ينبغي أن نقرأ «اللاإنسانية»).

لقد اعتمد مؤلف هذه الأهجية الورعة على القديس أوغسطينوس الذي، بعد أن كان قد دعا إلى الحِلْم والرأفة، راح يوصي بالاضطهاد، بالنظر إلى أنه غدا هو الأقوى وقتئذ، ولأنه ما كان يثبت على رأي أصلاً. كما استشهد مؤلفنا بأسقف مدينة مو، بوسويه، الذي اضطهد فينيلون الشهير، رئيس أساقفة مدينة كامبريه، بحجة أنه أذنب عندما كتب يقول إن الله يستحق أن نحبّه من أجل ذاته.

كان بوسويه بليغاً، إني أقرّ بذلك؛ كما أن أسقف مدينة هيبونا، أوغسطنيوس، اللامتماسك المنطق أحياناً، كان أكثر فصاحة من بقية الأفارقة؛ هذا ما أقرّ به أيضاً. غير أني سأسمح لنفسي بأن أقول لواضع تلك الأهجية المقدّسة ما قالته أرماندا في مسرحية موليير «**النساء المتحذلقات**»:

«إذا أردنا أن نقتدي بشخص فلنتشبّه به في جوانبه الحسنة»

(الفصل الأول، المشهد الأول)

سوف أقول لأسقف هيبونا: يا صاحب الغبطة، لقد عدلتم عن رأيكم، فاسمحوا لي بأن أتقيد بما عبّرتم عنه بالأول، لأنه هو الأفضل في الحقيقة.

وسوف أقول لأسقف مو: يا صاحب الغبطة، أنت رجل عظيم، ولا تقلّ علماً واطلاعاً

١- مؤلف «**توافق الدين والإنسانية**» هو جان نوفي دي كافيراك، الذي دافع في كتاباته عن التعصب الديني وأيّد إلغاء مرسوم نانت من قِبل الملك لويس الرابع عشر. (م)

في رأيي عن القديس أوغسطينوس، وإن كنت أكثر منه بلاغة. ولكن ما الداعي إلى أن تُعمِل يد القطع والوصل في ما كتبه زميل لك دلّل عن بلاغة تضاهي بلاغتك في حقل آخر، علاوة على أنه كان أكثر قرباً إلى النفس؟

إنّ كاتب الأهجية الورعة عن اللاإنسانية ليس ببوسويه ولا بأوغسطينوس؛ إنه خليق، في رأيي، بأن يكون قاضياً ممتازاً في محكمةٍ من محاكم التفتيش. بل إني لأراه في غوا[1]، على رأس محكمة تفتيشها الرائعة. وهو، علاوة على ذلك، رجل دولة ويخوض في المبادئ الكبرى للسياسة. فهو يقول: «إذا كان أهل البدع عديدين بينكم، فراعوا جانبهم وحاولوا إقناعهم؛ أما إذا كانوا أقلية صغيرة، فعلّقوا مشانقهم وقيّدوهم بالأغلال فيطمئن بالكم». هذا ما ينصح به في الصفحتين ٨٩ و٩٠.

إني أحمد الله لأني كاثوليكي صالح، وليس عليّ أن أخشى ما يسمّيه الهوغونوتيون بـ«الشهادة»؛ ولكن لو قيِّض لهذا الرجل أن يصير وزيراً أوّل، كما يتوقع في أهجيته، فإني سأغادر إلى إنكلترا فور صدور المرسوم الملكي بتعيينه.

وبانتظار ذلك لا يسعني إلا أن أشكر العناية الإلهية التي لا تأذن لَمن هم على شاكلته بأن يكونوا أكثر من مماحكين فارغين. إنه يذهب إلى حد إدراج اسم بايل في عداد أنصار عدم التسامح: وهذه سفسطة بارعة من جانبه. فانطلاقاً من دعوة بايل إلى معاقبة المشاغبين والمحتالين يخلص صاحبنا إلى القول بوجوب اضطهاد الناس المسالمين من ذوي النيات الحسنة وملاحقتهم بالحديد والنار.

ولا يعدو كتابه أن يكون برمته محاكاة لكتاب «**الدفاع عن مذبحة عيد القديس بارتليمي**»[2]: فإن لم يكن منسوخاً عنه، فهو صدى له. وكل ما نأمله، في كلتا الحالتين، هو ألا يُقيَّض للأستاذ ولا لتلميذه أن يتسلّما يوماً ما مقاليد الدولة.

ولكن إذا اتفق أن أصبحا على رأس السلطة فسأوّجه إليهما، ولو من بعيد، عريضة بخصوص سطرين وردا في الصفحة ٩٣ من تلك الأهجية الورعة: «أينبغي أن نضحّي بسعادة الأمة برمتها في سبيل سعادة واحد من عشرين منها؟».

١- خضع إقليم غوا في الهند للاستعمار البرتغالي لغاية العام ١٩٦١؛ والحال أن البرتغال، كما هو معروف كانت خضعت لحقبة مديدة من الزمن لنفوذ محاكم التفتيش. (م)

٢- «**الدفاع عن مذبحة عيد القديس بارتليمي**»: كتاب لغي دين بيراك (١٥٢٩-١٥٨٦) وهو رجل سياسة، وقاضٍ وشاعر. (م)

لنفترض أن في فرنسا، فعلاً، عشرين كاثوليكياً مقابل هوغونوتي واحد؛ أنا لا أدّعي، إطلاقاً، أنه يحق للهوغونوتي أن يفترس الكثالكة العشرين؛ ولكن لماذا يحق للكثالكة العشرين أن يفترسوا ذلك الهوغونوتي الواحد، ولماذا لا يُسمح لهذا الأخير بأن يتزوج؟ أفليس هنالك أساقفة، وكهنة، ورهبان يملكون أراضٍ في مقاطعة الدوفينيه أو الجيفودان، أو في جوار مدينة أغد أو كركاسون؟ أفلا يشتغل في أراضي هؤلاء الأساقفة والكهنة والرهبان مزارعون شاء سوء حظّهم ألا يؤمنوا بتحول القربان فعلياً إلى جسد ودم يسوع المسيح؟ أفليس من مصلحة الأساقفة والكهنة والرهبان وعامة البشر أن تكون لهؤلاء المزارعين أُسر كثيرة الأولاد؟ أفلا يحق إلا للذين يتناولون القربان المقدس أن ينجِبوا أطفالاً؟ ليس في ذلك عدل ولا إنصاف.

يقول المؤلف: «لم يترتب على إلغاء مرسوم نانت[1] ذلك القدر العظيم من النتائج السلبية الذي يزعمه بعضهم».

وبالفعل، لو عُزي إلى إلغاء ذلك المرسوم من النتائج أكثر مما تمخّض عنه حقاً، لكان في الأمر مبالغة بلا أدنى ريب؛ والميل إلى المبالغة هو بالفعل المأخذ الذي يؤخذ على معظم المؤرخين؛ كما تؤخذ، بالمقابل، على جميع المجادلين في شؤون الدين نزعتهم إلى التهوين من حجم الأضرار التي تحدثها كتاباتهم. لن نصادق، إذاً، على ما يقوله لاهوتيو باريس ولا على ما يدّعيه وعّاظ أمستردام. بل سنحتكم إلى الكونت داڤو، سفير فرنسا في هولندا بين عامي ١٦٨٥ و١٦٨٨. فهو يقول في الصفحة ١٨١، من الجزء الخامس من مذكراته، إن شخصاً واحداً فقط تطوّع للكشف عن أن الأموال التي أخرجها المضطَهدون من فرنسا قد نافت على العشرين مليوناً. وعندما رفع إلى

١- مرسوم نانت: مرسوم أصدره الملك هنري الرابع عام ١٥٨٨ لتنظيم الوضع القانوني للكنيسة البروتستانتية في فرنسا. وقد حصل البروتستانتيون بموجب هذا المرسوم على جملة من الحقوق في الميادين السياسية والقضائية والعسكرية، بالإضافة إلى حق ممارسة طقوس عبادتهم بحرية، وإن في أماكن محددة سلفاً. ولكن الملك لويس الرابع عشر ما عتم أن ألغى مرسوم نانت عام ١٦٥٨، فهُدمت معابد البروتستانتيين، وحُظرت تجمّعاتهم، واتخذت إجراءات قمعية بحقهم، وحرموا من سائر الحقوق التي كان المرسوم قد منحهم إياها. ونتيجة لإلغاء مرسوم نانت هاجر ما بين مئتين وثلاثمئة ألف فرنسي إلى الخارج ليستقرّوا في سويسرا وألمانيا على وجه الخصوص. (م)

الملك لويس الرابع عشر هذه المعلومات، أجابه العاهل الفرنسي في رسالة وجهها إليه: «إن الأنباء التي تبلغني يومياً عن الأعداد الهائلة من الاهتداءات إلى مذهبنا القويم لا تدع عندي مجالا للشك في أن أعند المعاندين وأكثرهم تطرفاً لن يتوانوا عن أن يحذوا حذو الآخرين».

يتضح، من هذه الرسالة، أن لويس الرابع عشر كان واثقاً من جبروت سلطانه وسعة مداه. كيف لا، وقد كان يسمع، يومياً، عبارات المديح نفسها: «يا صاحب الجلالة، أنت ملك الكون برمته، والعالم بأسره سيفتخر بالتفكير على منوالك حالما تتكلم وتكشف عما في نفسك». إن بلّيسون، الذي جنى ثروة من وراء منصبه كوكيل أول للمالية، والذي سُجن في الباستيل على مدى ثلاثة أعوام، بتهمة التواطؤ مع فوكيه[1]، والذي صار من موظفي الكنيسة وله دخل منها، بعد أن كان كالفنياً، والذي كان يوصي بطبع صلوات للقداس وباقات زهر مهداة إلى إيريس[2]، والذي حصل على منصب أمين صندوق ومشرف على إرشاد النفوس، بلّيسون هذا كان يرفع للملك، كل ثلاثة أشهر، لائحة طويلة بأسماء الذين ارتدّوا عن مذهبهم لقاء حصولهم على سبعة ريالات أو ثمانية، ويحمل العاهل على الاعتقاد بأنه قادر، في اللحظة التي يشاء، على أن يهدي الأتراك قاطبة لقاء المبلغ عينه. لقد كانت حاشية الملك تتناوب على خداعه، فهل كان في وسعه أن يقاوم الإغراء؟

غير أن السيد داڤو، عينه، أبلغ الملك أن شخصاً يدعى ڤنسان يستخدم ما يقارب من خمسمئة عامل غير بعيد عن مدينة أنغوليم، وأن ضرراً عظيماً سيلحق بهؤلاء العمّال فيما لو غادر البلاد. كما تحدث السيد داڤو عن فيلقين جنّدهما، لصالح أمير أورانج[3]، ضباط فرنسيون لجؤوا إلى هولندا، وعن بحّارة هربوا من ثلاث سفن

١- نيقولا فوكيه (١٦١٥-١٦٨٠): رجل دولة فرنسي شغل منصب وزير المال (١٦٥٣) ونجح في إعطاء دفعة قوية للتجارة الفرنسية. جمع ثروة طائلة أنفق منها بسخاء على الأدباء، ومن بينهم موليير ولافونتين. اتهمه كولبير بالاختلاس، فاعتُقل عام ١٦٦١، وحُكم عليه بالنفي المؤبد. (م)

٢- إيريس: رسولة الآلهة في الميتولوجيا اليونانية، كان يُرمز إليها بزهرة تحمل اسمها، وهي في العربية زهرة السوسن. (م)

٣- أورانج: أسرة نبيلة تحدّر منها الأمراء الذين حكموا الأقاليم المتحدّة - وهو الاسم الذي

فرنسية ليخدموا على سفن الأمير. وبالإضافة إلى هذين الفيلقين شكّل أمير أورانج فرقة من الضباط التلاميذ اللاجئين، وعهد بقيادتها إلى ضابطين فرنسيين (الجزء الخامس، ص٢٤٠). وفي رسالة وجّهها إلى السيد سنيوليه[١]، في ٩ أيار/مايو ١٦٨٦، يعترف هذا السفير بأنه يعجز عن كتمان حزنه عندما يرى المعامل الفرنسية تنتقل إلى هولندا بلا رجعة.

لنضف إلى ما قاله السفير شهادات سائر المؤتمنين على أموال المملكة في عام ١٦٩٩، ولنحكم بعد ذلك إن لم يكن إلغاء مرسوم نانت قد أضرّ أكثر مما أفاد. بالرغم مما يدّعيه المؤلف الموقر لكتاب «**توافق الدين واللاإنسانية**».

كان ماريشال في الجيش الفرنسي، معروف بنباهته، قد قال قبل بضع سنوات: «لست أدري إن كانت حملات الخيّالة[٢] ضرورية؛ ولكن الضروري، بالمقابل، هو ألا نكرّرها».

أعترف بأن شكوكاً كانت انتابتني عندما نشرتُ الرسالة الموجّهة إلى الأب لوتلّييه[٣]، والتي كان كاتبها، العضو في الجمعية اليسوعية، اقترح اللجوء إلى براميل البارود. لقد خشيت أن أكون قد ذهبت إلى أبعد مما ينبغي، فقلت بيني وبين نفسي:

☜ كان يطلق على الجزء الشمالي من البلدان الواطئة - في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وصاروا ملوك البلدان الواطئة، أي هولندا، ابتداء من عام ١٨١٥. (م)

١- المركيز جان باتيست أنطوان كولبير دي سنيوليه (١٦٥١-١٦٩٠): الابن البكر لكولبير، وزير الملك لويس الرابع عشر الشهير، وخليفته على رأس البحرية الفرنسية والديوان الملكي. (م)

٢- حملات الخيّالة: اسم أطلق على حملات الاضطهاد التي نُظِّمت ضد بروتستانتيي فرنسا بين عامي ١٦٨١ و١٦٨٥، وتولى تنفيذها خيّالة الجيش الملكي. وقد ألزم المرسوم الناظم لتلك الحملات الأسر الهوغونوتية باستضافة الجنود المكلّفين باضطهاد أفرادها، والملقَّبين من قبيل السخرية بـ«المبشِّرين أصحاب الجزمات». (م)

٣- المقصود هنا الرسالة المنشورة في الفصل ١٧ والتي كتبها ڤولتير بنفسه موقّعاً إياها باسم «صاحب دخل كنسي». (م)

لن يصدّقني أحد، سوف تُعتبر هذه الرسالة ملفّقة. لكن مخاوفي زالت، لحسن الحظ، عندما قرأت في «**توافق الدين واللاإنسانية**»، ص ١٤٩، هذه الكلمات الوديعة:

«إن الانقراض التام للبروتستانتيين في فرنسا لن يضعفها
أكثر مما تُضعِف عملية فصدٍ مريضاً صحيح البنية».

إن هذا المسيحي الرؤوف، الذي أفاد قبلاً بأن البروتستانتيين يشكّلون واحداً من عشرين من الأمة، يرغب إذاً في أن يسفح دم هذا الواحد من أصل عشرين من الأمة، ولا يَعتبر هذه الفعلة أكثر من عملية فصد!

إن كان هذا الرجل الشريف قد اقترح تصفية واحد من كل عشرين من الأمة، فماذا يمنع أن يقترح صديق الأب لوتلّييه تفجير، وذبح، وتسميم ثلثها؟ مِن المعقول جداً، إذاً، أن تكون الرسالة إلى الأب لوتلّييه قد كُتبت فعلاً.

وينتهي مؤلّفنا الورع إلى القول أخيراً بأن التعصب أمر مستحسن، «لأنه ما أدين إدانة صريحة من قِبل يسوع المسيح» على حد زعمه. ولكن يسوع المسيح لم يُدِن، كذلك، من يضرم الحرائق في شتى أرجاء باريس؛ فهل هذا سبب لتطويب مشعلي الحرائق قديسين؟

إذاً، في الوقت الذي تُسمِعنا فيه الطبيعة صوتها الوديع والشافي، يَطلق التعصب، ذلك العدو للطبيعة، صرخاته وزعقاته؛ وعندما تشرق شمس السلام على البشر، يعمد عدم التسامح إلى شحذ سلاحه. فيا أنت، يا من كنت حكَماً بين الأمم، وبسطت السِلم والوئام في ربوع أوروبا، أفما آن لك أن تفصل بين روح السلم وروح القتل!

الفصل الخامس والعشرون

تتمة وخاتمة

تناهى إلى علمنا أنه يوم السابع من آذار/مارس عام ١٧٦٣ اجتمع مجلس الدولة في فرساي بحضور جميع الوزراء وبرئاسة قاضي القضاة؛ وقد تولى السيد دي كرون، رئيس قسم الالتماسات، عرض قضية كالاس بنزاهة قاضٍ، ودقة رجل واسع الاطلاع، وببلاغة خطيب ورجل دولة يتوخى الصدق والبساطة، وهي البلاغة الوحيدة التي تليق بمثل ذلك الاجتماع. وكان حشد كبير من المواطنين، من شتى الطبقات والمراتب، قد احتلّ أروقة القصر في انتظار قرار المجلس. وسرعان ما أُعلم الملك بأنه تقرر، بالإجماع، توجيه أمر إلى محكمة تولوز بإرسال كامل ملف الدعوى إلى المجلس، وبتوضيح مبررات الحكم الصادر عنها والقاضي بإعدام جان كالاس على الدولاب. وقد أيّد صاحب الجلالة الحكم الذي أصدره المجلس.

هنالك، إذاً، إنسانية وإنصاف لدى البشر، ولاسيما في مجلس ملك محبوب وجدير بهذا الحب. إن قضية أسرة منكوبة من المواطنين المغمورين قد شغلت صاحب الجلالة، ووزراءه، وقاضي القضاة، ومجلس الدولة برمته، ونوقشت بمثل التمحيص الذي تُناقش به الموضوعات الجليلة المتعلقة بشؤون الحرب والسلم. وقد كان حب الإنصاف وخير الجنس البشري رائدي القضاة قاطبة. لنحمد إله الرأفة على ذلك. فهو، دون سواه، من يلهم البشر الإنصاف والفضيلة!

إني أصرّح هنا وأؤكد أني ما عرفت قط جان كالاس الذي أعدمه قضاة تولوز الثمانية استناداً إلى أوهى الأدلّة، وبالتعارض مع مراسيم ملوكنا وقوانين الأمم قاطبة؛ كما أصرّح وأؤكد أني ما عرفت ابنه مارك - أنطوان، الذي أوقعت وفاته الغريبة القضاة الثمانية في الخطأ، ولا أمه، تلك السيدة الجليلة والتعيسة معاً، ولا بناتها البريئات اللاتي قطعن برفقتها مسافة تزيد على مئتي فرسخ ليضعن فجيعتهنّ وفضيلتهنّ معاً عند عتبة العرش الملكي.

ويعلم الله أنه لم يكن لنا من دافع عندما كتبنا نعرض رأينا في التسامح، بمناسبة مصرع جان كالاس الذي ذهب ضحية عدم التسامح، سوى شغفنا بالعدل، والحقيقة، والسلام.

لم نقصد إهانة قضاة تولوز الثمانية عندما قلنا إنهم قد أخطأوا، وهذا ما حدَس به المجلس أيضاً: وكل ما فعلناه هو أننا مهّدنا لهم الطريق، على العكس، كي يبرّروا أنفسهم أمام أوروبا بأسرها. فما عليهم، إن شاؤوا سلوك هذه الطريق، إلا أن يعترفوا بأن أدلّة ملتبسة وصيحات حشود هائجة، فاقدة لصوابها، هي ما جعلهم يغفلون عن عدلهم؛ وما عليهم أيضاً إلا أن يستغفروا أرملة جان كالاس، وأن يعوّضوا، بقدر ما هو متاح لهم من طاقة، عن دمار أسرة بريئة برمتها، ليلتحقوا بالتالي بركاب كل من مدَّ لها يد العون في فاجعتها. لقد أمروا بإعدام الأب ظلماً، ومن واجبهم، بالتالي، أن يقوموا مقام الأب لأولاده، وهذا على فرض أن أولئك اليتامى موافقون على أن يتقبّلوا منهم مثل هذه الإشارة الواهنة على ندم صادق. إنه لمن الجميل أن تصدر مثل هذه الإشارة عن القضاة، ومن الأجمل أن ترفضها الأسرة.

ويتعين، في المقام الأول، على كبير قضاة تولوز، السيد داڤيد، أن يعطي المثال عن ندمه وتبكيت ضميره، إذا كان فعلاً هو أول من اضطهد البراءة. لقد أهان، في مطلق الأحوال، رب أسرة وهو قيد الاحتضار فوق دولاب الإعدام. لقد دلّل عن قسوة مذهلة، ولكن ما دام الله غفوراً فعلى البشر، أيضاً، أن يغفروا لمن يسعى إلى التكفير عن جائر عمله.

لقد وصلتني من مقاطعة اللانغدوك هذه الرسالة المؤرخة في ٢٠ شباط/ فبراير ١٧٦٣:

> «إن كتابكم عن التسامح ينطق بالإنسانية وبالحقيقة؛ ولكن ما أخشاه هو أن يضرّ بأسرة كالاس أكثر من أن ينفعها. ذلك أنه قد يثير سخط القضاة الثمانية الذين أيّدوا الإعدام على الدولاب؛ وقد يطالبون المحكمة بإحراق كتابكم، فينبري المتعصبون (فهنالك دوماً متعصّبون) لمواجهة صوت العقل بصريخهم وهيجانهم، الخ».

وهاكم جوابي عن هذه الرسالة:

«قد يأمر قضاة تولوز الثمانية بحرق كتابي إن ارتأوا ذلك؛ فلا شيء أسهل ولا أيسر: أفلم يُحرق كتاب «**الرسائل الإقليمية**»[1] الذي ربما كان يفوقه جودة بكثير. ثم أليس في مستطاع كل واحد منا أن يحرق في عقر داره كل الكتب والأوراق التي لا تحظى برضاه؟

«لا يمكن لكتابي أن ينفع أسرة كالاس، التي لا أعرفها، ولا أن يضرّ بها. فمجلس الملك، الحازم وغير المتحيِّز، يصدر أحكامه وفق القوانين وطبقاً لقواعد العدل والإنصاف، وبالاعتماد على الأدلّة والأصول المرعيّة الإجراء، لا على نصٍ ليس له أي طابع قانوني؛ نص يبقى جوهر موضوعه بعيداً كل البعد عن القضية التي ينظر فيها.

«مهما كُتبت وطبعت كراسات مؤيدة أو معارضة لقضاة تولوز الثمانية، مع التسامح أو ضده، فلا المجلس الملكي ولا أي محكمة من المحاكم سيعتبران تلك الكتيبات من مستندات الدعوى.

«إن هذا النص حول التسامح ما هو إلا عريضة ترفعها الإنسانية بمنتهى التواضع إلى السلطة والحصافة. إني أزرع بذرة قد تعطي، يوماً، محصولاً. لنراهن على الزمن، وعلى طيبة الملك، وعلى حكمة وزرائه، وعلى روح العقل الذي بدأ ينشر نوره في كل الأنحاء.

«تقول الطبيعة للبشر كافة: لقد جعلتكم تولدون ضعفاء وجهلة، كيلا يُقيَّض لكم أن تعيشوا إلا للحظات معدودات على هذه الأرض، وكي تسمِّدوها بجثثكم. فتعاضدوا ما دمتم ضعفاء، واستنيروا ما دمتم جهلة، واحتملوا بعضكم بعضاً. وإذا ما أجمعتم على رأي، وهذا لن يحصل أبداً بكل تأكيد، ولم يعارضكم إلا شخص واحد، فعليكم أن

١- **الرسائل الإقليمية**: رسائل كتبها بسكال إلى أحد الرؤساء الإقليميين للرهبانية الجانسينية بخصوص الخصومات المحتدمة في جامعة السوربون الباريسية؛ وقد كان لها دوي عظيم، وكاد بسكال يدان بسببها من قبل الفاتيكان. وقد عُرفت هذه الرسائل الثماني عشرة بـ«**الإقليميات**». (م)

تسامحوه، لأني أنا من جعله يعتقد ما يعتقده. لقد منحْتكم أذرعاً كي تزرعوا الأرض، وبصيصاً خافتاً من العقل كي تهتدوا بهديه؛ كما وضعت في قلوبكم بذرة رأفة كي تتآزروا في مواجهة مصاعب الحياة. فلا تخنقوا هذه البذرة، لا تفسدوها، بل اعلموا أنها إلهية المنشأ؛ ولا تدَعوا الصوت الحانق والبائس للمتعصبين للمذاهب يعلو على صوت الطبيعة.

«وحدي أنا من يجمعكم رغماً عن أنوفكم؛ وحدي أنا من يوحِّد بينكم عن طريق حاجاتكم المشتركة، حتى في خضمّ حروبكم الوحشية التي تضرمون نيرانها لأتفه الأسباب، وتجعلون منها المسرح الأبدي للأخطاء والمخاطرات والفواجع. وحدي أنا من يضع حداً، داخل الأمة، للعواقب الوخيمة المترتبة على الانقسام الدائم بين طبقة النبلاء وسلك القضاة، كما بين هاتين الهيئتين ورجال الإكليروس، بل حتى بين البورجوازي والمزارع. فجميعهم يتجاهلون حدود حقوقهم؛ ولكنهم جميعهم يصغون في النهاية، وإن على مضض، إلى صوتي الذي يخاطب قلوبهم مباشرة. وحدي أنا من يصون العدالة في المحاكم التي كانت ستقع، لولاي، فريسة التردد والنزوات، وسط فوضى ركام القوانين التي ما صيغت إلا بالصدفة ولتلبية حاجات عابرة؛ قوانين تختلف من مقاطعة إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى، بل شبه متناقضة فيما بينها حتى في المكان الواحد. وحدي أنا من يبثّ روح العدل عندما لا تحثّ القوانين إلا على المماحكة والمشاحنة. فمَن يصغِ إليّ يَحكم بالعدل دوماً؛ ومَن لا يسعَ إلا وراء التوفيق بين الآراء المتعارضة والمتناقضة يخطئ ويضلّ.

«ثمة صرح عظيم قد أرسيتُ أسسه بيدي؛ كان متيناً وبسيطاً، وكان في مستطاع جميع البشر أن يقيموا تحت سقفه بأمان. لكنهم أرادوا أن يضيفوا إليه زخرفات غريبة، هي غاية في عدم الإتقان وعدم الجدوى، فكان أن تهاوى ذلك البناء أنقاضاً من كل جوانبه، فهرع البشر يلتقطون أحجاره ويتراشقون بها. إني أصيح بهم: كفى، أبعدوا هذه الأنقاض

المشؤومة التي هي من صنعكم، وأقيموا معي بسلام وأمان في الصرح المنيع الذي هو من صنع يدي».

مادة أضيفت لاحقا
تتضمن عرضا لآخر حكم صدر في صالح أسرة كالاس

منذ السابع من آذار-مارس ١٧٦٣ إلى تاريخ صدور الحكم النهائي انقضى أيضاً عامان آخران؛ فلئن سهل على التعصب الديني أن ينتزع الحياة من الأبرياء، فقد صعب، بالمقابل، على العقل أن يستردّ لهم حقوقهم. وقد تطلب الأمر انتظار مدد طويلة، تقتضيها أصول المحاكمات. وبقدر ما لم يجرِ التقيد بهذه الأصول إبان الحكم على كالاس، كان يتوجب على مجلس الدولة بالمقابل أن يتشدّد في مراعاته لها لدى إعادة نظره في ذلك الحكم. ولم تكفِ مدّة عام بتمامه لإرغام محكمة تولوز على إحالة كامل الملف إلى المجلس، كيما يعيد النظر فيه ومن ثم يلغيه. وقد كُلف السيد كرون، مرة أخرى، بهذا العمل الشاق. وفي النهاية قرر مجمع مؤلّف من نحو ثمانين قاضياً نقض الحكم الصادر عن محكمة تولوز، وأمر بإعادة نظر شاملة في الدعوى.

ثمة قضايا هامة أخرى شغلت، آنذاك، معظم محاكم المملكة. فقد بوشر بطرد اليسوعيين وبإلغاء جمعيتهم في فرنسا. كانوا غير متسامحين، بل مضطهِدين، فأصبحوا مضطَهدين بدورهم.

كانت بدعة رسائل الاعتراف[1]، التي عزي إليهم تأليفها سراً، والتي جاهروا بتأييدهم لها في مطلق الأحوال، قد أجّجت ضدهم نار كراهية الأمة. وقد جاء الإفلاس المدوّي لأحد مبشّريهم، وهو إفلاس اعتُبر بصفة جزئية احتيالياً، ليقضي على ما تبقى لهم من سمعة ورصيد. فهاتان الكلمتان، «مبشِّر» و«مفلِس»، اللتان لا يفترض أن يجمع بينهما جامع، كانتا بمثابة حكم بالإدانة انتقش سلفاً في جميع الأذهان. وقد

١- كان أسقف باريس قد طلب في عام ١٧٤٦ من جميع رجال الإكليروس أن يستحصلوا من المؤمنين على رسائل اعتراف يثبتون فيها تأييدهم للبراءة البابوية المعروفة باسم **أونيجنتوس**، الصادرة عام ١٧١٣، والتي أدانت المذهب الجانسيني. وقد تسبب هذا الطلب في اضطرابات عديدة. (م)

جاءت أخيراً أنقاض دير بور رويال، وجثامين المشاهير الذين انصّبت عليهم إهانات اليسوعيين وهم في مثواهم الأخير قبل أن يُنبشوا نبشاً من قبورهم في مطلع القرن، تنفيذاً لأوامر انفرد أولئك اليسوعيون بإصدارها، كل ذلك جاء ليقضي على ما تبقى لهم من رصيد واهن[١]. ويمكن الاطلاع على كامل تفاصيل قصة حظر جمعيتهم في الكتاب الممتاز المعنون «**حول تدمير اليسوعيين في فرنسا**»[٢]؛ فهو كتاب غير متحيِّز لأن مؤلِّفه فيلسوف، وقد حرّره برهافةِ بسكال وبلاغته، وعلى الأخص بعقلية تنويرية لا تفسدها أفكار مسبَقة كان لها إغراؤها عند عظماء المفكرين أحياناً.

إن هذه القضية المدوّية التي رأى فيها بعض أنصار اليسوعيين إهانة للدين، في حين اعتبرتها غالبية الناس أخذاً بثأر الدين، شغلت الجمهور على مدى أشهر عن قضية كالاس. ولكن ما إن أسند الملك إلى المحكمة المسماة محكمة الالتماسات والقضايا الاستثنائية مهمّة إصدار الحكم النهائي، حتى أهمل هذا الجمهور، الشغوف بالانتقال من مشهد إلى آخر، اليسوعيين وقضيتهم ليولي كامل اهتمامه لقضية آل كالاس.

إن محكمة الالتماسات والقضايا الاستثنائية محكمة ذات سيادة، مؤلَّفة من أمناء ديوان الالتماسات، ومكلّفة بإصدار أحكامها في الدعاوى بين كبار موظفي البلاط، كما في القضايا التي يحيلها إليها الملك. كان اختيار هذه المحكمة هو الأنسب، إذ أن قضاتها كانوا هم الذين بتّوا، لمرتين على التوالي، في الإجراءات التمهيدية لإعادة النظر في محاكمة كالاس؛ وكانوا، بالتالي، مطّلعين على القضية سواء من حيث المضمون أو من حيث الشكل. وقد أعيد إدخال أرملة جان كالاس، وابنه، والسيد لاڤيس إلى السجن، كما جُلبت، من أقصى مقاطعة اللانغدوك، تلك الخادمة الكاثوليكية العجوز التي لم تبارح سادتها وسيدتها، ولو لحظة واحدة، في ذلك اليوم الذي يُفترض بهؤلاء أنهم

١- بعد تدمير دير بور رويال في عام ١٧١٠ جرى فتح قبور مشاهير المذهب الجانسيني وإخراج البقايا المتبقية من جثثهم، بحجة أنهم لم يتلقوا سر المشح قبل وفاتهم. (م)

٢- «**حول تدمير اليسوعيين في فرنسا**»: كتاب صدر عام ١٧٦٥ يحمل توقيعاً مجهولاً؛ منعته الرقابة، فطُبع سراً في جنيف بعناية ڤولتير. وقد كان المؤلف الحقيقي لهذا الكتاب الفيلسوف الموسوعي والعالم الرياضي جان دالمبير، الذي عرض فيه حججه ضد الرهبانية اليسوعية. وقد حيّا هذا الكتاب عددٌ من الفلاسفة، وعلى رأسهم ديدرو. (م)

اقترفوا أثناءه جريمة خنق ابنهم وأخيهم. وقد جرى التداول من جديد في الأدلة عينها التي اعتُمدت في الحكم على جان كالاس بالإعدام على الدولاب وعلى ابنه بيير بالنفي خارج البلاد.

وفي أثناء ذلك نُشرت مذكرة جديدة بقلم السيد دي بومون، المعروف ببلاغته، وأخرى صادرة عن لافيس، الشاب الذي زُجّ به ظلماً وعسفاً في هذه القضية الجنائية من قبل قضاة تولوز الذين تأبّوا، فوق ذلك، عن تبرئته. فالشاب قد صاغ بنفسه مرافعة اعتُبرت، بالإجماع، جديرة بأن تَمثُل إلى جانب مذكرة السيد دي بومون وتُعتمد معها. وقد تكلم فيها باسمه، وباسم أسرة شاركها محنة السجن. وقد كان في وسع الشاب أن يحطّم قيوده وأن يغادر سجن تولوز، فيما لو شاء أن يصرّح بأنه فارق آل كالاس في ذلك اليوم الذي أقدم أثناءه الأب والأم على اقتراف جريمتهما المزعومة بحق ابنهما. وقد هُدِّد بالتعذيب، بل لوِّح أمامه باحتمال انتزاع اعترافه بالقوة وبالحديد المحمّى، وبالحكم عليه بالموت أيضاً. كانت كلمة واحدة منه تكفي ليُطلَق سراحه؛ غير أنه آثر التعرّض للتعذيب على أن يتفوه بهذه الكلمة، التي ما كانت لتكون إلا كذباً وبهتاناً. وقد عرض ذلك كله في مذكرة دفاعه بوداعة بالغة النبل وبالغة البساطة والبعد عن كل تفاخر، فمسّ قلوب جميع أولئك الذين ما كان يرمي إلى أكثر من إقناعهم، ونال ما ناله من إعجاب وتقدير، وهو غير الساعي وراء الشهرة.

والد الشاب، وهو محام قدير، لم يساهم البتة في صياغة تلك المذكرة، لكنه وجد نفسه، على حين غرة، وقد بات له ندّ وعديل في شخص ابنه الذي لم يتعاط المحاماة يوماً.

وراحت شخصيات ذات قدر ووزن تتدفق على السجن الذي احتُجزت فيه السيدة كالاس، والذي ضمّ، أيضاً، ابنتيها اللتين اختارتا الإقامة معها. وما كان بوسع الزوار أن يمسكوا دموعهم تأثراً. وتآزرت الإنسانية والأرْيحيّة مع تينك البائسات؛ أما «المحبّة المسيحية»، كما تُسمّى، فلم توفر لهن أية مساعدة. فهذه المحبة، التي غالباً ما تكون دنيئة وجارحة، وقفت على ورعاء الناس، والورعاء كانوا لا يزالون ضد كالاس.

وجاء اليوم (٩ آذار/مارس ١٧٦٥) الذي انتصرت فيه البراءة أتمّ انتصار. فبعد أن أعاد السيد باكنكور استعراض مراحل الدعوى وإجراءاتها كافة، وقدّم تحقيقه

في القضية بأدق تفاصيلها، وأعلن القضاة، بإجماع أصواتهم، براءة الأسرة المنكَّل بها والمتعسَّف في الحكم عليها من قبل محكمة تولوز. ردّ أولئك القضاة الاعتبار إلى ذكرى الأب، وأجازوا للأسرة اللجوء إلى الجهة المختصة لمقاضاة قضاتها وللحصول على النفقات والتعويضات والفوائد التي كان يُفترض بقضاة تولوز أن يقدموها من تلقاء أنفسهم.

وعمّت الفرحة في باريس: احتشد الناس في الساحات العامة وفي المنتزهات، وهرعوا إلى رؤية تلك الأسرة التي عانت كثيراً وبُرِّئت على خير وجه. وكان القضاة يُستقبلون بالتصفيق وبعبارات التبريك حيثما عبروا. ومما جعل هذا المشهد مؤثِّراً أكثر بعدُ كون التاسع من آذار/مارس صادف يوم إعدام جان كالاس الذي قضى، قبل ثلاثة أعوام، بعد أن ذاق أقسى ضروب التعذيب.

عندما أنصف السادة قضاة محكمة الالتماسات أسرة كالاس وردّوا إليها حقها كاملاً، لم ينهضوا، في الواقع، إلا بواجبهم. ولكنّ هنالك واجباً آخر، واجب الإحسان الذي نادراً ما تَنهض به المحاكم التي تَعتقد، على ما يبدو، بأن مهمتها تنحصر بإقرار العدل. والحال أن أمناء ديوان الالتماسات قرروا أن يوجّهوا رسالة جماعية إلى صاحب الجلالة يناشدونه فيها التعويض بعطاياه عن الدمار الذي لحق بالأسرة. وبالفعل، تم تحرير هذه الرسالة. وردّ الملك عليها بأن أرسل إلى الأم وأولادها مبلغ ستة وثلاثين ألف ليرة؛ وقد اقتُطع منه مبلغ ثلاثة آلاف ليرة كان من نصيب الخادمة الفاضلة التي ما فتئت تدافع عن الحقيقة بدفاعها عن سادتها.

لقد استحق الملك بفعل خيره هذا، وبجملة من الأفعال الأخرى المماثلة، اللقب الذي منحه إياه حبُّ الأمة له[1]. ليت هذا المثال يلهم البشر حبَّ التسامح الذي من دونه سيعيث التعصب في الأرض فساداً، أو سيجعل الحزن، في أدنى الأحوال، يخيّم عليها إلى الأبد. نحن نعلم، حق العلم، أن الموضوع لا يتعلّق هنا إلا بأسرة واحدة، وأن شراسة النِحل والفِرق الدينية قد تسببت في هلاك الآلاف؛ ولكن اليوم، وبعد أن خيّم ظل من الأمان على المجتمعات المسيحية كافة بعد قرون من المجازر، أقول: في زمن الطمأنينة والسكينة هذا ينبغي لمأساة أسرة كالاس أن تُحدِث أعظم الأثر، على غرار

١- كان الملك لويس الخامس عشر يلقَّب بـ«الملك المحبوب». (م)

الرعد الذي ينفجر في صفاء يوم صاحٍ. إن هذه القضايا نادرة بلا شك، لكنها تحصل مع ذلك؛ وهي تتأتى عن ذلك الاعتقاد الباطل والمشؤوم الذي يَحمل ضِعاف النفوس على تلبيس الجرائم لكل من لا يشاركهم معتقدهم.

رابطة العقلانيين العرب

من أجل ثقافة نقدية تنويرية علمانية

إصدارات الرابطة

١. فلينزع الحجاب، تأليف شاهدورت جاڤان، ترجمة فاطمة بلحسن. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٢. المرض بالغرب: التحليل النفسي لعصاب جماعي عربي، تأليف جورج طرابيشي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٣. ازدواجية العقل: دراسة تحليلية نفسية لكتابات حسن حنفي، تأليف جورج طرابيشي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٤. فلسفة الأنوار، تأليف ج. فولغين، ترجمة هنرييت عبودي. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.

٥. حرية الاعتقاد الديني، إعداد وتصنيف محمد كامل الخطيب. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.

٦. نقد الثوابت: آراء في العنف والتمييز والمصادرة، تأليف رجاء بن سلامة. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.

٧. مواقف من أجل التنوير، تأليف محمد الحداد. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.

٨. يوسف القرضاوي بين التسامح والإرهاب، تأليف عبد الرزاق عيد. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٥.

٩. علم نفس الجماهير: تأليف سيغموند فرويد، ترجمة وتعليق جورج طرابيشي. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٦.

١٠. الإسلام: نزوات العنف واستراتيجيات الإصلاح، تأليف محمد الحداد، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٦.

١١. هرطقات١: عن الديموقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية، تأليف جورج طرابيشي. دار الساقي، الطبعة الثانية، بيروت ٢٠٠٦.

١٢. هرطقات٢: العلمانية كإشكالية إسلامية إسلامية، تأليف جورج طرابيشي. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.

١٣. العلمانية على محك الأصوليات اليهودية والمسيحية والإسلامية، تأليف كارولين فوريست وفياميتا فينر، ترجمة غازي أبو عقل. دار بترا، دمشق ٢٠٠٦.

١٤. عمانويل كانط: الدين في حدود العقل أو التنوير الناقص، تأليف محمد المزوغي. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٧.

١٥. الانسداد التاريخي: لماذا فشل مشروع التنوير في العالم العربي؟ تأليف هاشم صالح. دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٧.

١٦. الحجاب، تأليف جمال البنا. دار بترا، دمشق ٢٠٠٧.
١٧. أسرار التوراة، تأليف روجيه الصبّاح، ترجمة صالح بشير. دار بترا، دمشق ٢٠٠٧.
١٨. مدخل إلى التنوير الأوروبي، تأليف هاشم صالح. الطبعة الثانية، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٧.
١٩. هدم الهدم، كشف القفا للأب السياسي والثقافي والتراثي، تأليف عبد الرزاق عيد. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٧.
٢٠. معضلة الأصولية الإسلامية، تأليف هاشم صالح. دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٨.
٢١. في نقد إنسان الجموع، تأليف رجاء بن سلامة. دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٨.
٢٢. إمامة المرأة، تأليف جمال البنا. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.
٢٣. الإسلام والحرية، تأليف محمد الشرفي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.
٢٤. حفريات في الخطاب الخلدوني: الأصول السلفية ووهم الحداثة العربية، تأليف ناجية الوريمّي بوعجيلة. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.
٢٥. الإسلام معطَّلاً: العالم الإسلامي ومعضلة الفوات التاريخي، تأليف فريدون هويدا، ترجمة حسين قبيسي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.
٢٦. امرأتنا في الشريعة والمجتمع، تأليف الطاهر الحداد. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.
٢٧. موجز فكر التنوير، تأليف د. عثمان أشقرا. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.
٢٨. الحداثة وتحرير الإنسان، مجموعة باحثين. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.
٢٩. وردة في صليب الحاضر: نحو عقد اجتماعي جديد وعروبة ديمقراطية، تأليف جاد الكريم الجباعي. دار بترا، دمشق ٢٠٠٨.
٣٠. ثورات الحرية والمساواة، تأليف روبرت بالمر، ترجمة هنرييت عبودي، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٨.
٣١. تأسيس الإسلام: بين الكتابة والتاريخ، تأليف ألفريد لويس دي بريمار، ترجمة عيسى محاسبي، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٩.
٣٢. المفكرون الأحرار في الإسلام، تأليف دومينيك أورفوا، ترجمة جمال شحيد، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.
٣٣. الإسلام والتحليل النفسي، تأليف فتحي بن سلامة، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.
٣٤. المدينة الإسلامية والأصولية والإرهاب، تأليف عبد الصمد الديالمي، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.
٣٥. المعجزة: أو سبات العقل في الإسلام، تأليف جورج طرابيشي، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٨.
٣٦. الديموقراطية، تأليف جان ميشال دوكنت، ترجمة حسين عيسى، دار بترا، دمشق ٢٠٠٩.
٣٧. ٢٣ عاما: دراسة في الممارسة النبوية المحمدية، تأليف علي الدشتي، ترجمة ثائر ديب. الطبعة الثالثة، دار بترا، دمشق ٢٠٠٩.
٣٨. سوسيولوجيا الجنسانية العربية، تأليف عيد الصمد الديالمي، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٩.
٣٩. وجهاً لوجه مع الفكر الأصولي، تأليف خالد غزال، دار الطليعة، بيروت ٢٠٠٩.

«الإسلام واحداً ومتعدداً»

سلسلة دراسات يشرف عليها د. عبد المجيد الشرفي

صدر منها إلى الآن عن دار الطليعة ببيروت:

٣٩. الإسلام الخارجي، تأليف ناجية الوريمّي بوعجيلة.

٤٠. إسلام المتكلمين، تأليف محمد بوهلال.

٤١. الإسلام السني، تأليف بسام الجمل.

٤٢. الإسلام الشعبي، تأليف زهية جويرو.

٤٣. الإسلام الحركي، بحث في أدبيات الأحزاب والحركات الإسلامية، تأليف عبد الرحيم بوهاها.

٤٤. إسلام الفلاسفة، تأليف منجي لسود.

٤٥. الإسلام في المدينة، تأليف بلقيس الرزيقي.

٤٦. الإسلام «الأسود» جنوب الصّحراء الكبرى، تأليف محمد شقرون.

٤٧. الإسلام الآسيوي، تأليف آمال قرامي.

٤٨. إسلام الفقهاء، تأليف نادر الحمامي.

٤٩. إسلام المتصوفة، تأليف محمد بن الطيب.

٥٠. إسلام المجددين، تأليف محمد حمزة.

٥١. الإسلام العربي، تأليف عبد الله خلايفي.

٥٢. إسلام عصور الانحطاط، تأليف هالة الورتاني وعبد الباسط قمودي.

٥٣. إسلام الأكراد، تأليف تهامي العبدولي.

٥٤. إسلام الساسة، سهام الدبابي الميساوي.

٥٥. إسلام المصلحين، جيهان عامر.

إصدارات الرابطة تحت اسم

المؤسسة العربية للتحديث الفكري

٥٦. أعلام النبوة: الرد على الملحد أبي بكر الرازي، تأليف أبو حاتم الرازي. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٣.

٥٧. في الائتلاف والاختلاف – ثنائية السائد والمهمش في الفكر الإسلامي القديم، تأليف ناجية الوريمي بوعجيلة. دار المدى، دمشق ٢٠٠٤.

٥٨. ما الثورة الدينية؟ الحضارات التقليدية في مواجهة الحداثة، تأليف داريوش شايغان، ترجمة محمد الرحموني. دار الساقي، بيروت ٢٠٠٤.

٥٩. الحداثة والحداثة العربية. دار بترا، دمشق ٢٠٠٤.

٦٠. النهضة وصراع البقاء، تأليف إبراهيم بدران. المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥.

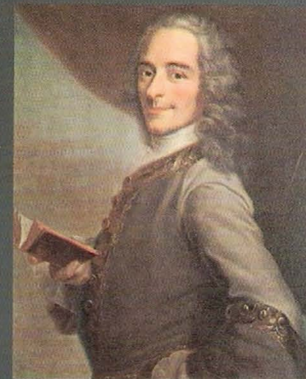
٦١. الحرب المقدسة: الجهاد، الحرب الصليبية – العنف والدين في المسيحية والإسلام، تأليف جان فلوري، ترجمة غسان مايو. دار المدى، بيروت ٢٠٠٥.
٦٢. أسباب النزول، تأليف بسام الجمل. المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥.
٦٣. الإنسان نشوؤه وارتقاؤه، تأليف جان شالين، ترجمة الصادق قسومة. دار بترا، دمشق ٢٠٠٥.
٦٤. الحديث النبوي ومكانته في الفكر الإسلامي الحديث، تأليف محمد حمزة. المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥.
٦٥. السنّة: أصلاً من أصول الفقه، تأليف حمادي ذويب. المركز الثقافي العربي، بيروت ٢٠٠٥.
٦٦. العلمانية، تأليف غي هارشير، ترجمة رشا الصباغ. دار المدى، دمشق ٢٠٠٥.
٦٧. الكنيسة والعلم: تاريخ الصراع بين العقل الديني والعقل العلمي، الجزء١، تأليف جورج مينوا، ترجمة موريس جلال. دار الأهالي، دمشق ٢٠٠٥.
٦٨. محاكم التفتيش، تأليف غي وجون تستاس، ترجمة ميساء السيوفي. دار الأهالي، دمشق ٢٠٠٥.
٦٩. ما هي العلمانية؟ تأليف هنري بينا-رويث، ترجمة ريم منصور الأطرش. دار الأهالي، دمشق ٢٠٠٥.
٧٠. الفكر الحر، تأليف أندريه ناتاف، ترجمة رندة بعث. دار المدى، دمشق ٢٠٠٥.

«كراسات الأوان»

مجموعات من الأبحاث والدراسات المنشورة على موقع الرابطة: www.alawan.org

صدر منها إلى الآن عن دار بترا بدمشق:

٧١. تابو البكارة. ٢٠٠٨.
٧٢. قراءات في الإرهاب. ٢٠٠٩.
٧٣. الرقابة بوجوهها وأقنعتها المختلفة. ٢٠٠٩.
٧٤. المرأة وحجابها، ٢٠٠٩.
٧٥. ثورة الطلاب، ٢٠٠٩.
٧٦. المسألة العلمانية (١)، ٢٠٠٩.
٧٧. المسألة العلمانية (٢)، ٢٠٠٩.



رسالة في التسامح

«قد أختلف معك في الرأي ولكنني على استعداد لأن أموت دفاعا عن رأيك».

لم تكن عبارة ڤولتير هذه محض قولة عارضة في متون مؤلفاته التي ناهزت المئة كتاب، بين شعر ومسرحية ونثر وفلسفة، بل كانت خلاصة رسالته الفكرية والحياتية التي كانت بمثابة سيف رفعه طيلة حياته في وجه «الوحش الضاري»، الذي كان يقصد به التعصب الديني ومنطق محاكم التفتيش.

هذا الوحش، الذي كان لا يزال يعمل أنيابه في المجتمعات الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، هو نفسه الوحش الذي ينهش بعض مجتمعاتنا العربية والإسلامية إلى الآن ويتهددها بالتمزق والدمار. ولم تستطع أوروبا القضاء عليه إلا بإعلاء حرية الاعتقاد وبتكريس التسامح الديني وقبول الآخر المختلف دينياً أو طائفياً.

كان الفضل في هذا لعصر التنوير، الذي صنعه مثقفون روّاد، كان من أشهرهم وأجرئهم ڤولتير الذي لم يتوان يوما عن خوض أي معركة مهما كانت طاحنة دفاعا عن قيم التنوير وحقوق العقل والتسامح. وهذا الكتاب هو تتويج لواحدة من كبرى معاركه. فڤولتير الذي ينتمي من حيث أصله العائلي إلى الأغلبية الكاثوليكية في فرنسا يقف في هذا الكتاب مدافعا شرسا وجريئا عن أسرة بروتستانتية اضطهدت بسبب انتمائها المذهبي ودفعت ثمناً للتعصب أباً أعدم بالدولاب وابناً سُجن وأمّاً نُفيت.

هذا الكتاب الذي نشره ڤولتير عام 1763 يحتفظ براهنيته كاملة، ولاسيما بالنسبة إلى عالمنا العربي والإسلامي الذي لا يزال يصارع، واليوم أكثر من أي وقت سبق، للخروج من القرون الوسطى ومنطق القرون الوسطى.

من إصدارات رابطة العقلانيين العرب